M. I. Quandour

روايه NOVEL

محي الدين قندور

كازبك القبرطاي

قصة تاريخية

الجزء الثاني
من
ثلاثية القفقاس



كازبك القبرطاي

قصة تاريخية

ترجمة

محمد أزوقة

الجزء الثاني

من

ثلاثية القفقاس



ثلاثية القفقاس - الجزء الثاني
كازبك القبرطاي / رواية
محي الدين قندور / مؤلّف من الأردن
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٥



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب : ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب :٩١٥٧ ، هاتف : ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس ٥٦٨٥٥٠١
E-mail : mkayyali@nets.com.jo
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
محمود الوزني

لوحة الغلاف :
م. م. غورلوف / روسيا
الصفّ الضوئيّ :
سمير اليوسف
ترجمة :
محمد أزوقة
التنفيذ الطباعيّ :
مصطفى قانصوه للطباعة والتجارة / بيروت ، لبنان

ISBN 9953-36-743-4

كازبك

الزمن هو العقد الاول من القرن التاسع عشر في القفقاس . أحمد الكوباني قد أسس نفسه بإمكانيات راسخة كنبيل ومربي خيول في بلاد القباردا . يأخذ إبنه كازبك دور المغامر وتبدأ هذه المغامرات بقصة حبه وزواجه في نهاية المطاف من نورسان الجميلة .

تصبح قصة حبهما مادة للأساطير ، لكنها تسوء ولا يعود كازبك يجد السكينة ولا الراحة في زواجه . يعود صديق طفولته ، أصلان جيراي المتحدر من عائلة كريم ترتار الملكية ، الى الظهور في حياته بمفاهيم مزعجة عن الصوفية و«الجهاد» التي جاء بها من حجه الى مكة المكرمة .

تبدأ تحركات المريدية في القفقاس الشرقي وتبدأ معها حركة إحياء للمقاومة الشيشانية والجبلية ضد الغزاة الروس .

يظهر الطبيب العجوز الروسي باسل فاسيليفيتش في القباردا في الوقت الحرج لينقذ أطفال أحمد من جائحة الطاعون . لكن جائحة من نوع آخر تنزل على القفقاس . إسمها الجنرال ييرمولوف .

يشهد كازبك مذبحة ترام الرهيبة ، التي ارتكبها قوزاق الجنرال ييرمولوف ، ويتسبب هذا في تغيير جذري بداخله من نبيل قباردي مسالم الى شركسي مقاتل . في وقت لاحق ، وعندما تقتل مجموعة أخرى من القوزاق إبنه الوحيد إمام ، يقسم كازبك يمين الانتقام وتقطر يداه بالدم الروسي .

شكر واعتراف

هنالك العديد من الأصدقاء والزملاء الذين أرغب في شكرهم، وهم الذين ساعدوا في جعل إخراج هذا الكتاب ممكناً. الأولى بين هؤلاء هي المساعدة والباحثة، الآنسة فرانسيس كينيث. لقد كان إخلاصها ومساعدتها في التحرير لجعل هذا العمل يأخذ شكله النهائي لا تقدر بثمن.

أرغب أيضاً في توجيه الشكر إلى صديقيَّ: محمد حفيظة من نالتشك (جمهورية قباردينو – بلقاريا) والدكتور إيجور تيموفييف من موسكو، لتشجيعهما المستمر ومساعدتهما لي في البحث عن الحقيقة التاريخية في متاهات الأرشيفين الروسي والسوفييتي.

إنني مدين في معرفتي لعادات وتقاليد القباردي إلى الراحل العزيز والدي وإلى أجدادي الذين غذوا فيَّ روح "الأديغه" وأنا طفل، واستمروا في تغذيتها، برغم أسفاري البعيدة.

أدعو الله أن يرقدوا مرتاحين وهم يعلمون أنني قد حاولت أن ألبي رغبتهم: وهي كتابة تاريخ أمتنا.

***

المقدمة

هذا هو الكتاب الثاني من سلسلة القفقاس حول تاريخ الشراكسة في شمال القفقاس. إنه استمرار للملحمة التي بدأت بــ"سيوف بلاد الشيشان".

إن تاريخ الشركس (الشراكسة) مختلط بالتاريخ القديم لبلاد القفقاس، والتاريخ القفقاسي بدوره قديم قدم الخليقة. فقد كانت تسمى في الأساطير اليونانية أرض الكولشيز، التي أبحر الأرغونوت إليها بحثاً عن الجزة الذهبية، وحيث حصلوا على أسس الفنون والحرف المتقدمة. لقد تكسرت كل موجة من التهجير من الشرق إلى الغرب فوق بعض منحدراتها تاركة آثارها خلفها. كل هذه الجيوش القديمة، كل بدوره ومجتمعين، أسقوا خيولهم من جداولها الثلجية وبنوا أكواخهم في غاباتها الواسعة. بحيث أصبح القفقاس متحفاً لأجناس بادت من أمكنة أخرى ومتحفاً للغات المختلفة.

في هذا القفقاس الساحر، تبدأ قصتنا وتستمر مع قصة كازبك (الابن الأكبر لأحمد). جميع الأحداث في هذه الرواية مبنية على حقائق تاريخية. تم اختلاق بعض الشخصيات الخيالية لضرورة استكمال الأحداث التاريخية ولجعل التأثير الدرامي لقصتنا قراءة أكثر إمتاعاً.

***

الفصل الأول

حوالي سنة 1784

انتظر أميرالحابسا بفراغ صبر أخبار وصول ابنه. كان قلبه مفعماً بالسرور واحتاج إلى الخصوصية حتى يحافظ على رباطة جاشه لأسعد يوم في حياته كلها. ترك موضوع تزيين قريته بكل مظاهر الاحتفال للآخرين: لتركيب أكاليل الزهور فوق البوابات، تكنيس ساحة القرية إلى حد النظافة، تزيين الخيول بالأقمشة المزركشة الملونة والعدة اللامعة.

إنه يفتخر بقريته إلى درجة كبيرة، فهي إحدى أكثر القرى ازدهاراً في حوض نهر التيريك. فقد كان أهل القرية محظوظين بموقعهم: قرر أسلافه اختيار موقع مستوطنتهم فوق منحنى واسع إلى جهة اليمين من مجرى المياه، على هضبة خصيبة تشرف على مناظر خلابة من غابات الزان والتنوب. هناك ممر ملتوي ينحدر لمسافة حوالي مئة ياردة نحو ضفاف النهر، نحو مرعى خصيب يمتد جنوباً على مرمى البصر، بعرض حوالي نصف الميل. يحتفظ شعبه هنا بقطعان من الماشية والخيول القباردية المتميزة.

إلى مسافة أبعد باتجاه الجنوب، تضيق المراعي لتصبح امتداداً من الأرض بطول ميلين حيث رعى المستوطنون أغنامهم طيلة السنوات التي تعيها ذاكرة الأمير، تحت ظلال صخور النهر الصلصالية المائلة إلى الحمرة. تظلل ضفاف النهر أشجار الحور الرجراج والصفصاف، حيث كان الأمير، مثل كل الصبية الصغار في قبيلته، يصطادون سمك الترويته. أغمض الأمير عينيه نصف إغماضة، وهو يتخيل تلك الأيام السعيدة، وكيف كان يقضي الساعات منتظراً أن تعلق بسنارته سمكة.

لقد عملت عشيرته، التي سميت القرية باسمها، بجد وحققت الكثير. فقد بنى الأجداد في البداية تكتلاً صغيراً من المساكن على الطراز الطيني التقليدي، على شكل دائرة مع مساحة دفاعية واسعة في الوسط.

ما زال كل بيت في قلب القرية يمتلك بستان فاكهة كبيراً وزرائب واسعة للحيوانات، شاهدة على تلك الجهود القديمة لبناء مجتمع زراعي مزدهر. لكن القرية ازدهرت على مر السنين وتضاعفت أعداد أسر الحابسا، فشقت طرق شعاعية خارجة من الساحة، بحيث بنيت حولها مساكن جديدة وزرعت بساتين جديدة، وزرعت خارجها حقول القمح والذرة الصفراء على امتداد عشرين ميلاً، أي حوالي ثلاثين فيرست بالحسابات الروسية، حتى وصلت إلى سفوح الجبال.

لكن أمير الحابسا لم يكن يفكر بمجرد التقدم المادي لشعبه، وهو يشاهد المنظر الجميل المتحفز للاستقبال. فهنا يسود الانسجام والنظام، وهي حياة رغيدة. تعرف هذه البلاد المشاطئة لنهر التيريك من قبل جميع الأديغه باسم "قباردا الصغيرة" للتمييز بينها وبين قباردا الكبرى الواقعة إلى الغرب، حيث تصب الأنهار الأربعة الجبارة، الشيجيم، المالكا، الباخسان والتشيريك، في نهر التيريك. ينتمي الناس إلى فخذ الجلاخستني من أمة قباردا الكبرى. يعترف كل الناس أن الشعب في قباردا الصغرى يتمسكون بالأساليب التقليدية بقوة عاطفية أكثر من أي مكان آخر: وبأن دفؤهم وكرم ضيافتهم تحملان شهرة مستحقة. يقول القبارديون "إذا كنت ترغب في معرفة "الخابزا" والتراث القديم، فاذهب إلى قباردا الصغرى". وهكذا فقد أرسل العديد من الأمراء والنبلاء "الوَرْق" أولادهم للتدريب عند "الأتالق" في هذا الإقليم. تعلم الأبناء فنون القتال والفروسية: وتعلمت البنات مهارات التطريز، الحياكة، التدبير المنزلي. لكن الجميع تعلم المعتقدات التقليدية وعادات الشعب، والسلوك الأديغي الصحيح.

طبيعي أن يدرك أمير الحابسا أن افتخاره بهذه الطريقة التقليدية في الحياة هو السبب الجزئي الذي دفع بابنه مراد إلى الابتعاد. يدرك أنه ربما كان في بعض الأحيان متصلباً، غير مسامح وحاد المزاج. فقد حن إلى ابنه الثاني بحدة وندم على عدم تفهمه. لقد تطورت شخصية نجله الأكبر عمر إلى محصلة حسنة، فقد امتلك كل الفضائل التي يحتاجها أي وريث للنبالة حتى يوحي لشعبه بالتبعية والولاء. لكن أمير الحابسا كان ببساطة يندم لأنه لم يتمكن من مراقبة تحول ولده الثاني إلى مرحلة الرجولة: فقد أراد أن يعرف كيف أصبح –ما هي المميزات العائلية التي حظي بها– وما الذي تطور ونما من خلال تجربته في الحياة.

إضافة إلى ذلك، فقد كان شعب الحابسا يحتاج إلى العديد من القادة من النوعية المميزة، وسوف يحتاج عمر عندما يخلفه إلى فريق من المستشارين لمساعدته في قيادة شعب قباردا الصغرى في وقت بمنتهى الصعوبة. فإن عزلة الإقليم ووحدته بشكل خاص هو معضلته: كيفية الاحتفاظ بهما.

إن الجلاخستني شعب يحب الابقاء على عزلته: لم تكن لديهم الرغبة في توطيد علاقاتهم بالمتطفلين الأجانب، الروس الزاحفون على طول خط الجبهة ومستضيفوهم القوزاق إلى الشمال. أو حتى في ذلك الإطار، الشيشان الذين يقطنون الجبال إلى الجنوب: كانت لدى الأمير تحفظاته حول جيرانه ذوي المزاج الحاد... لقد كان الاتصال "بالجاور" في حدوده الأدنى ويتسم على الغالب بالمجاملة. فقد أصدر الأمير تعليماته الصارمة بأن لا يفكر أي من شبانه المتحمسين في المناوشات أو الغارات، لخشيته من أن يجلبوا على أنفسهم تأسيس خط جبهة آخر. وكانت حجته في ذلك أن القوزاق لديهم كل الأسباب ليحترموا الفروسية والقدرات القتالية القباردية، وعليه فأن إظهارها أمر متهور وغير ضروري.

مقابل هذه السياسة الحكيمة، فقد أصدرت الأوامر المشددة لجميع الجنود والضباط في "السنانيتزات" المجاورة بعدم عبور نهر التيريك

ألا في مهمات رسمية. وهكذا تجنب أبناء قبيلة الحابسا الصراع وازدهرت أحوالهم المعيشية: وحمد أمير الحابسا الله تعالى على حكمة قيادته.

ولكن ماذا سيحدث بعد ذهابه -ماذا سيحصل وقتها؟ لقد ظل هذا التوازن الدقيق معرضاً للخطر على الدوام. إنَ أمير الحابسا يذكر عن ابنه الثاني أنه صبي ثاقب البصيرة وعميق التفكير، ربما يميل إلى الاعتداد بآرائه بعض الشيء مما جعلهم يختلفون في كثير من الأحيان.

ولكن الآن، فإن الحاجة ستكون ماسة إلى رجل يحمل آراء قوية ناضجة، ولن يخوض الأمير جدالاً مع ابن كهذا...

"لقد انتظرت طويلاً جداً يا حافظا. لكن يبدو أن صبري قد نفذ فجأة".

كان حافظا أول من عاد من بلاد الشيشان ليعلن عن قرار مراد بالعودة. وبأن تيمرقان، الوزير الأول لدى أمير الحابسا، سيرافق مراد في عودته إلى الوطن مع عائلته ومرافقيه.

"سيصلون إلى هنا اليوم، خلال وقت قصير، إنشاء الله، يا سيدي".

خفق قلب أمير الحابسا بعنف غير مريح. نظر إلى الخارج عبر الباب المفتوح إلى الامتداد العريض لنهر التيريك المتدفق بهدوء وغزارة خلف الصخور الشاهقة. كانت زهرات السوسن النهري قد بدأت تذبل في هذا الفصل المتأخر من السنة وقد تحولت أشجار الصفصاف والحور الرجراج إلى اللونين الذهبي والأحمر الساطعين: تتلوى أوراقها أثناء سقوطها فيما يشبه الزخات الرائعة فوق صفحة المياه. بدأ الناس يخرجون من منازلهم النظيفة الحسنة التنظيم في قريته ويتوجهون للتجمهر في جماعات متحمسة. بدا منظرهم أنيقاً، وقد ارتدى الرجال سترات "التشيركيسكا" الزاهية الغنية بالتطاريز: حملت بعض الفتيات باقات زهر، وقد غطت

أمهاتهن رؤوسهن بوشاحات ناصعة البياض مزدانة بعصابة ذهبية تلتمع تحت أشعة الشمس. ارتدى نبلاؤه، "الوَرْق" أفضل ملابسهم: لم يتسنّ لهم الاحتفال بزواج مراد من المرأة الشيشانية، لكن عودته إلى الوطن ستكون احتفالاً لا ينمحي من الذاكرة، جديراً بفصل الحصاد الحالي. استغل شباب وصبايا القرية هذه المناسبة كفرصة للاستمتاع بصحبة بعضهم بعضاً، فأخذت الفتيات يتمشين جيئة وذهاباً لاستعراض فساتينهن الجميلة بينما يلقي معجبوهن النظرات المعبرة تجاههن.

اندفع خادم متحمس من الحاشية الملكية مسرعاً عبر القرية ثم قفز عن سرجه ببراعة الشباب المطلق، وصاح بصوت يستطيع كل القرويين أن يسمعوه.

"لقد رأيتهم! لقد عبروا الحقول الجنوبية وسيكونون هنا قريباً جداً!".

أسرع حافظا نحو الباب لتوكيد الأخبار.

لاحظ أمير الحابسا أن حافظا يتحرك بهمة قوية، رغم الإرهاق الذي حل به من الرحلة الأخيرة، بدون أن يعي حالة الوهن التي حلت به في السنوات الأخيرة.

"نحن جاهزون لاستقبالهم، يا صاحب السمو" قال حافظا وهو يحني رأسه احتراماً بينما تمشى الأمير نحو الباب وخرج إلى الشمس الذهبية.

شكل النبلاء "الوَرْق" نصف دائرة خلف قائدهم. رفض أمير الحابسا أن يتكئ على ذراع حافظا، بل رفع قامته وتحرك بالتدريج نحو الناحية الشرقية من ساحة القرية حيث ظهرت للعيان كوكبة من الفرسان تخرج من بين أشجار الصفصاف. أطلق أحدهم حنجرته في أغنية مفاجئة، وسرعان ما انضم إليه الحشد كله وطفق الأطفال يرقصون على جانبي الطريق. أشادت الأغنية بفضائل

سوسروقه، بطل النارتيين، لكن الجميع كانوا يدركون إنها ترداد صدى لصلح المحبة من الأمير إلى ابنه

"آه يا ابني يا سوسروقه، يا حبي الذي ربيته
يا من هو حبة عيني. لقد لوحت الشمس وجهك
لكن عينيك تومضان شرراً كوميض البرق.
من لا يعرفك سيتعرف إليك خير معرفة، حين
تمتطي جوادك الرائع وتصبح بطلاً لا يعرف الخوف".

اقترب من أهل القرية قطيع من الأفراس الجميلة، يحف بها أربعة من الخيالة ومعهم عربتان. وقد ربط خلف إحدى العربتين حصان فحل عربي أسود اللون، لم يتوقف عن القفز بخيلاء. ركب مراد قريباً من تيمرقان، وعندما اقترب، بدأ الحشد بإطلاق التحيات، فقد كان مراد يبتسم جذلاً، وقد ظهر عليه فرح عارم لرؤية موطنه.

ترجل تيمرقان وتقدم من الأمير أولاً، فاحتضنه الأمير العجوز في عناق حميم: كان يشعر بشيء من التوتر، غير متأكد من كيفية اتخاذ الخطوة الأولى، حتى يكون قريباً من ابنه، فقد تبادلا العديد من الكلمات القاسية قبل سنين كثيرة ماضية، لذلك آثر أن يتعلق بتيمرقان.

"يا أخي المسن! كم أنا سعيد برؤيتك وقد عدت. لقد اشتقنا إلى وجودك بيننا. أدعو الله أن تكون في صحة جيدة".

"أشكرك يا أميري. أجيء إليك اليوم بأخبار طيبة... لقد عاد ابنك الذي فقدته، ولديك أحفاد يستحقون اسمك".

"نعم، نعم، ولكن ما كان يتوجب أن يوكل إليك بهذه الرحلة المتعبة. فهل ستسامح هذا الأمير العجوز المزعج؟".

سمع الجميع هذه الكلمات. تأكد مراد، وهو ينتظر أن يتم استقباله، أن اعتذارات أبيه وعناقاته المرتعشة موجهة إليه هو. فهذه

هي الطريقة الوحيدة التي يستطيع أب من الأديغه أن يعبر بواسطتها عن عمق أحاسيسه بشكل علني.

قال تيمرقان بلطف "استغفر الله، يا أميري، إن حياتي كلها مكرسة لخدمتك. والآن إذا سمحت لي... فإذن هذا الشاب متشوق إلى مصافحتك".

أفلت تيمرقان من قبضة أميره الضاغطة ومد يده الأخرى إلى مراد، داعياً إياه بالاقتراب. أوصل الأب بابنه، يداً بيد، ثم تراجع إلى الخلف.

أحسّ مراد بكل الهيبة والاحترام اللذين احتفظ بهما لأبيه وحده، طيلة حياته. شعر بصعوبة بالغة في التحديق بعيني أبيه، لكنه عندما تمكن أخيراً من النظر، أدرك أن وجهه يكشف عن حزنه على فراقهما وعن حبه الدائم.

عانقه الأمير، وأعيد اتحادهما. وكان هذا هو المنظر الذي احتفظ به تيمرقان، حافظا وكل الوجهاء الآخرين في صلواتهم عبر سنوات عديدة.

استدار مراد بسرعة لتقديم رفاقه في السفر. "هذا أخي، أحمد من الكوبان". طأطأ أحمد برأسه احتراماً وصافح يد الأمير الممدودة باتجاهه.

"لقد سمعت عنك يا أحمد. وآمل في سماع المزيد. مرحباً بك في بلادنا".

قدَّم مراد العائلات حسب ما تمليه العادة: مدينا، تسيما، والأحفاد، تيمور وجعفر. شعرت النساء بالخجل وامتلأت نفوسهن بالرهبة فلم يتحدثن، مع أنهما تمرنتا على التحيات باللغة القباردية عدة مرات أثناء الرحلة.

قاد الأمير الموكب في طريق العودة، وقد أنشد القرويون هذه المرة أغنية ترحيب، بينما تجرأ الشباب على دعوة البنات للمشاركة

في رقصات مرتجلة على إيقاع طبلة وأنغام الـ"جيكابشنة". تحرك الناس قدماً بإيقاع بطيء وسط الرقصات التي حملتهم إلى ساحة القرية.

عند هذه النقطة، أحيطت تسيما ومدينا والأطفال بمجموعة من السيدات اللاتي كن يثرثرن ويحاولن اصطحابهن مبتعدات بهن نحو أجنحة الضيوف المنفصلة. ألقت تسيما بنظرة إلى الخلف باتجاه أحمد – كانت تعلم أن هذه هي العادة لدى شعب الأديغه، ولكن عندما حانت لحظة الافتراق شعرت بالأسى تجاهها. ألقت إلى زوجها بنظرة أخرى، نظرة استعطاف، مترددة في الرغبة بالافتراق عنه في مكان غريب عليها، بهذه السرعة. افترق أحمد بسرعة عن مجموعة الكبار وأسرع إلى جانبها "لن يطول الأمر أكثر من فترة قصيرة. لواجب تحية الكبار.. سوف أعود إليك بعد ذلك، فلا تقلقي.".

أدارت المرأتان ظهريهما وهما تشعران بحزن عميق، حتى مدينا كانت تبعث إلى مراد بتوسل صامت، بينما أمسكت تسيما بيد الصغير جعفر، وهي بذلك تعيد الطمأنينة إلى نفسها بقدر ما تطمئن الطفل.

لقد تمتعن بحرية كبيرة كنساء جبليات– فكيف سيكون الوضع هنا؟ رفعت تسيما من قامتها، وقد صممت أن تصبح سنداً لأحمد" اذهبي أنت أولاً يا مدينا... سوف أكون خلفك مباشرة..". فقد كانت تشعر بمجرد التعب: إذ لم تدرك كم ستكون مثل هذه الرحلة صعبة في حالتها.

بعد أن استحم المسافرون واستعدوا، دعاهم أمير الحابسا إلى وليمة ترحيب. بمجرد أن دخل أحمد إلى الصالون، أدرك بوضوح أكثر من أي وقت مضى كم ستكون الحياة الجديدة مختلفة. فقد وقف مراد هناك خلف مكان وقوف أبيه، كما يليق بقباردي نبيل شاب. وقف أخوه عمر إلى جانبه ولم يجلس سوى وجهاء وكبار أهل

القرية. أعطي أحمد مقعد الصدارة إلى يمين الأمير باعتباره "الحاشا"، أي ضيف الشرف. تنازعت أحمد مشاعر متضاربة حول العودة إلى حياة الرسميات التي يذكرها منذ أيام صباه. تبادل مع مراد نظرات جدية: هل سيتأقلمان؟ هل ارتكبا خطأً بعودتهما في نهاية المطاف؟ إلا أن ابتسامة مراد الواضحة، المستجيبة له بعثت في نفسه الطمأنينة، فقد قال له أن الأمر سيسير سيراً حسناً بمرور الوقت، وأنهما سينجحان.

بالإضافة إلى ذلك، وبعد معاناتهما الأخيرة في بلاد الشيشان، فأن فخامة ورخاء هذه الوليمة هي أكبر دليل مقنع على أنهما وصلا إلى ديار الوفرة – آمنين من أعمال السلب والنهب من جانب القوزاق، ومن صعوبات الزراعة التي تعيقها العمليات الحربية. لم يكن أحمد قد شاهد وليمة بهذه الفخامة وإثارة الشهية منذ أيام زفافه. لحم غنم وبقر مطيب بالبهارات، وفواكه الخريف، عصائر وحلويات وبزورات... وفرة موسمية... تبودلت أحاديث عامة ومؤدبة بينما كان أحمد يتحدث عن انطباعاته حول البلاد التي قطعها في طريقهم إلى التيريك. كما تحدث بعبارات مكثفة متواضعة عن تجارب رحلاته في الجبال وكيف أضاع طريقه وتاه بحيث وصل إلى منطقة الشيشان: وكيف أنقذه مراد من سوء الفهم الرهيب الذي حديث مع أهل الجبال. استنتج الكبار بشكل منطقي من هذه السيرة المختصرة أن احمد قد عانى الكثير: وأنه شجاع وذو تصميم – وأنه ومراد أعز الأصدقاء– بل هم أخوة متبنون.

أدار أمير الحابسا دفة الحديث إلى موضوع الخيول – وهي طريقة مؤكدة لإشعار كلاً من مراد وأحمد بأنهما في بيتهما فعلاً.

"يا تيمرقان، هناك ذلك المنزل القديم الذي يخص آل أبراق المحاذي للنهر. إنه يضم قطعة أرض جيدة ومستوية وبها ما يكفي من المساحة لأغراض تربية الخيول... ما رأيك؟ نحن لم نعد أحداً بها، أليس كذلك؟".

علم تيمرقان تمام العلم أن هذه الهدية قم تم التخطيط لها قبل عدة أسابيع، منذ اللحظة التي وصلت فيها أخبار صديق مراد إلى مسامع الأمير. فإن وجود مربي خيول شهير هو إضافة جيدة إلى تجارة بلاد الحابسا، خاصة وأن صاحبها هو من النبلاء ذوي النسب البارز.

"كلا يا أميري، إن الأرض غير مملوكة. يحتاج البيت إلى بعض الترميم ولكنه من الناحية الأخرى اختيار ممتاز لأخينا. كما أنه مجاور لحصة مراد."

بدا على مراد السرور، وهو ما كان الأمير يأمله.

"سنعمل جميعاً في المساعدة على ترميم البيت وجعله في حالة جيدة وسنبني زريبة إضافة لذلك". أجاب أحمد بصدق وأمانة "أشكرك يا أميري. أنت في غاية الكرم". لكنه شعر بالأسف على مغادرة مزرعته الصغيرة ذات المراعي الجبلية، فقد شكلت النقطة المضيئة بالفخار للوقت الذي قضاه في الجبال. تحدث الأمير مخاطباً أولاده الواقفين خلف مقعد أبيهم، بالإضافة إلى مخاطبته لأحمد.

"والآن، أخبرنا بشيء عن الكوبان. نحن نعلم بوجود قبارديي يعيشون في تلك المناطق ولكن الاتصال بيننا قليل جداً. قد لا يعرف بعض منكم أيها الصغار السن بأن أجدادنا كلهم قد جاءوا من منطقة الكوبان أصلاً. في ذلك الماضي السحيق، جاء أمير شديد البأس أسمه قباردا من الغرب واستقر في هذه الأراضي التي سميناها فيما بعد بأسمه. لقد كان في الواقع من "الأبزاخ"

استرخى أحمد في مجلسه وهو في حالة ذهول، وقد أرهقته المشاعر التي أثارتها هذه المناسبة أكثر من تعب الرحلة. لقد عاد إلى بني قومه، وفي وسط ثقافته، إلى لغته. لقد كان للقصص حول ماضي شعبه وقع الموسيقى في أذنيه.

أدرك عندما نظر إلى مراد الواقف منتصباً وقد عقد يديه فوق صدره، كم بدا صديقه نبيلاً وجدياً، وكم هم محظوظون شعب الحابسا بعودة هذا "الوَرْق" المتكامل الصفات إليهم.ما كانوا يعرفون شيئاً عن مخاطراته العديدة بحياته: والتي لم ينج من أهوال المعارك التي خاضها عشرات المقاتلين الآخرين.

أنهى الأمير مداخلته التاريخية.

شرح أحمد سيرته "هنالك مجرد قرى باقية قليلة تتحدث لهجة القباردي في منطقة الكوبان، إن عائلة أبي من "الوَرْق"، وكان عمي هو أمير قريتنا... وعندي أخت واحدة".

وهكذا روى أحمد قصة عائلته، وبقيت المجموعة ساهرة حتى وقت متأخر من الليل، وهم يتبادلون "الخواخوه"، الأنخاب الطويلة التي يشارك القباردي فيها في مثل هذه المناسبات.

عندما جاء الوقت اللائق للانصراف في نهاية الأمر، ذهب أحمد مباشرة إلى تسيما، زوجته وأخبرها كل ما تم إقراره حول البيوت ومزرعة الاستيلاد الخاصة به. كانت تسيما تشعر بالقلق: فقد سببت الرحلة لها العديد من الآلام.

"سيعطوننا قطعة جيدة من الأرض. وهي مرعى ممتاز لخيولي". أراد أحمد أن يبدو مشجعاً لعلمه بأن تسيما ستشعر بالقلق والحنين إلى موطنها.

"ثم فكري بالخضروات، والزراعة التي سيتمكن الإنسان من ممارستها في هذه الأرض الغنية".

"إنها منبسطة جداً. والجبال بعيدة عنا، وتحجبها الغيوم" كانت تسيما حزينة.

"تسيما، إن الجبال لا تبعد عنا مسيرة يوم واحد ركوباً. إنها ليست بعيدة بقدر ما تبدو. أعرف يا عزيزتي أنك تشتاقين إلى أبيك، وإلى الجبال أيضاً. لكن فكري بمستقبلنا، بالطفل. سيكون له بيت

آمن بحيث يمكنه أن ينشأ قوياً" ابتسم أحمد بلطف "يقولون أن البيت بحاجة فقط إلى بعض الترميمات حتى يكون صالحاً للسكن".

قال تسيما باختصار "حسناً، يستحسن أن تبدأ بالعمل، لأن هذا الطفل سيحتاج إلى بيت جديد قبل سقوط ثلوج الشتاء".

أخفى أحمد ابتسامته. فهذه تسيما تعود إلى طبيعتها القديمة: شجاعة، متحفظة، الأبنة الحقيقية للمّلا.

"سيكون لك سقفك الخاص بك فوق رأسك قبيل برد الشتاء يا عزيزتي. أنا أعدك بذلك".

لم تجب تسيما. ضمها أحمد قريباً إليه حتى شعر بجسمها يتراخي بين ذراعيه وينجرف إلى النوم. كانت هنالك أوقات كثيرة مثل هذه تحتفظ فيها برأيها. فقد كانت تسيما متآلفة مع الوحدة. إذ توفيت والدتها وهي ما تزال فتاة يافعة، وظل والدها، الملاّ، رجلاً غريباً عنها معظم حياتها: ثم قتل مؤخراً شقيقها الأعز والوحيد، وقد انتزعت نفسها وأعادت زراعتها كلياً في أرض غريبة بسبب حبها لزوجها. إنه يعرف المشاعر التي تسببها مغادرة أرض الوطن التراثية: وهي الآن تجربة ستشاركه فيها زوجته. أقسم أحمد ساعتها أن يجعل تضحيتها مجدية، بغض النظر عن صعوبة العمل الذي سيضطر إلى القيام به.

***

أصبح حلم أحمد حقيقة واقعة في تلك الأشهر الأولى. فقد قدم جميع قرويو بلاد الحابسا الوقت والجهد لمساعدته هو ومراد على تأسيس نفسيهما قبيل عواصف الشتاء. وقد تم تشييد مسكنيهما على نمط منازل "الوَرْق" النموذجية، بيوت من الطين والحجر من طابقين ذات سقوف من القش والأخشاب، وشرفة علوية أنيقة مع شرفة أخرى تحتها. الدرجات الأمامية تؤدي إلى حديقة خضار تسيما، والمراعي الخضراء المستوية تمتد إلى حافة الصخور المحاذية للنهر، وقد زرعت أجزاء من الحديقة بالمحاصيل الشتوية،

بينما أقيم سياج قوي لجعله ساحة ترويض لخيول أحمد. تقع بلدة ايكاتيرينوجراد، الحامية الروسية، عبر النهر إلى جهة الشمال: إلى الشرق منها بلدة مزدوك، حيث شيدت قلعة شهيرة لقوزاق الدون والفولغا- وقد تمت زيادة تحصينها حديثاً بعد هجوم الشيخ منصور الجريء على خط كيزليار المجاور. ومع ذلك، فقد استتب الأمن ضمن حدود قباردا الصغرى، وترك أهلها لشأنهم، على الرغم من كونهم محاصرين من كل الجهات بفئات متصارعة. سقطت الثلوج واستمرت سميكة طيلة الشتاء التالي، وأمضت العائلتان الجديدتان أمسيات طويلة معتمة بالمشاركة مع جيرانهم الجدد.

كانت تسيما زائرة في بيت مدينا، جالسة تثرثر عندما دهمتها الآلام. شهقت في البداية، ثم قالت وهي توازن نفسها بعد نهوضها" مدينا، أعتقد، أه يتوجب عليك أن تتمشي معي إلى البيت".

أمسكت مدينا بذراعها وقد أحست بالإثارة "آه، حسناً!"، وخرجتا من البيت. لم يكن الزوجان حاضرين، لكن هذا الواجب أمر تعرف نساء الشيشان كيف تتعاملن معه: مسيرة سريعة قصيرة فوق سجادة من الثلج، وصلتا بعدها إلى مسكنها، وأنجبت "تسيما" إبناً.

سمى أحمد طفله البكر كازبك، وهو اسم مفضل يعود في الأساطير القباردية إلى الزمن الذي كانت فيه جبال القفقاس نفسها متحركة، ذات أرواح حرة طليقة تتجول في أصقاع الدنيا وتخوض المعارك الملحمية: والآن، فقد أصبح هؤلاء الأبطال رجالاً مسنين متعبين، يغطي الشعر الأبيض رؤوسهم وتملأ وجوههم الحجرية الأخاديد العميقة. كان ثاني هؤلاء ارتفاعاً هو كازبك. وهو الجبل الذي يحمل ذلك الاسم، تغطي الثلوج قمته واعتاد أحمد على رؤيته في البعيد من مرجه الجبلي، الغارق في وسط أرض الشيشان.

يجيء الربيع هنا في بلاد الحابسا في وقت أبكر من مجيئه في الجبال. مما أبهج تسيما بحيث أخذت تخرج مرات عديدة برفقة

مدينا وابنها الطفل لجمع الأزاهير من المروج. وقد نمت زهور الأجراس والجنطيانا والمسك البري بقوة فوق هذه التربة الخصبة بحيث أن بعضها كان يصل إلى مستوى خصور النساء، وتحمل زهوراً تتمتع بالحيوية ويصل حجمها إلى عرض راحة اليد.

تنامت مزرعة خيول أحمد خلال السنين الأولى في حجمها وسمعتها. وكان كازبك الصغير يشاهد في أوقات عديدة بصحبة والده في الاسطبلات. اعتادت تسيما على القول بأن رحلة العربة إلى بيتهم الجديد أثناء حملها بكازبك قد أثرت في شخصيته بشكل واضح، لأنه حتى وهو ما زال طفلاً لا يكاد يمشي، كان يتجول حتى يصل ساحة الترويض، وهو يشعر بالراحة التامة بين الحيوانات ويلعب تحت أقدامها بدون أي شعور بالخوف.

طمأنها أحمد بقولـــه "لا تقلقي، فكما قال لي رجل حكيم من "البزادوغ" ذات مرة بأن البقرة لا يمكن أبداً أن تدوس عجلها – وكذلك الفرس لا يمكن أبداً أن تدوس فلوي، هل فهمت؟ إن الخيول حكيمة، وهي تعرف الطفل على حقيقته".

تبع كازبك بمرور الوقت شقيقان: أنور وعظمات. كان الفارق بين الأولاد حوالي سنتين، وكانت تسيما تسميهم "بالجيش الصغير" بفخر. تلقى كل منهم في صغره اللعب المعتادة وهي: القوس والسهام، السيف الخشبي، الأطواق، البلابل، الأدوات المخصصة للعب– وطبيعي، كما كان الوالدان الفخوران يرغبان، اختار الأولاد الصغار الأسلحة ليلعبوا بها. هناك فقط ثلاث صفات يريد الأب القباردي أن يراها وقد غرست في أطفاله، وبينما تحولت فصول الطفولة إلى سنوات، وجد أحمد كلمات أبيه يتردد صداها في أفكاره: "الشجاعة، الفصاحة، وكرم الضيافة". كثيراً ما كان أحمد يراقب الأولاد الثلاثة الصغار وهم يثرثرون عند أطراف ثوب أمهم أو وهم يتشاجرون عند طرف حظيرة تدريب الخيل، ويتساءل من منهم سيحمل أياً من هذه الصفات – ويدعو الله أن يطيل في عمره بما يكفي لأن يرى.

عندما بلغ كازبك السنة الخامسة من عمره، بدأ أحمد يفكر في تعليمه. تقضي العادة في القباردا، كما هي على ضفاف الكوبان، بأن يرسل أولاد النبلاء إلى "أتالق"، وهو مدرِّس ومعلِّم، وهو الذي يعلمهم كل ما هو ضروري من "الخابزه" و "النيمس".

أظهر كازبك جميع المؤشرات على أنه سيصبح شاب "وَرْق" قباردي مثالي. فقد كانت بنيته قوية، وورث عن أمه عينيها الرماديتين الجميلتين، وطبيعة لا تعرف الخوف، حتى لا يقال عنيدة. ولكن كلما تحدث أحمد عن عادة "الأتالق" إلى تسيما، فهي تهب فيه بدرجة من الحدة العاطفية لم يكن قد رآها فيها سابقاً – مع أنه رأى تلك الحدة في أبيها الملاّ عدة مرات.

أفصحت عن رأيها بقولها "ترهات! أنا أم شيشانية، فلا تنسى ذلك! لن أفترق عن أولادي، إنها عادة جديرة بالاحتقار! عادة "الأتالق" هذه!" وبعدها، حين ترى أحمد ينسحب ويحافظ على هدوئه، فقد كانت تندم على انفجار غضبها.

"يا زوجي، لقد تجاوزت حدودي بالكلام. ولكن ألا ترى، لقد تركت عائلتي وأصدقائي خلفي. فهل تريد لي أن أخسر أطفالي هنا، هل تريد ذلك؟".

"ولكن يا تسيما، لقد أرسل مراد ولديه تيمور وجعفر إلى "أتالق"، وقد تركتهما مدينا يذهبان بدون أن تثير مشكلة".

"آه ، نعم، أعرف أنها فعلت ذلك. لكن مراد هو الرجل الثاني في خلافة أبيه ليصبح أمير بلاد الحابسا، بعد عمر.. لذلك فمن اللائق أن يتبع أولاده التقاليد. أرجوك يا أحمد، لا تطلب مني أن أقوم بهذه التضحية. لقد تخليت فيما مضى عن الكثير..".

أي "وَرْق" قباردي آخر ربما كان قد تجاهل هذه التوسلات. لكن ليس أحمد. فقد كان يحب تسيما بتلك الطريقة الخاصة المنطوية على حرية الروح والتي لا يمكن لأحد أن يختبرها إلا في الجبال. لم يستطع أن يجد أعذاراً مقنعة مقابل توسلاتها، وهكذا استمر

كازبك وأنور وعظمات يلعبون حول ثوب أمهم ويتصيدون حول المروج على ضفاف نهر التيريك، يقتلون القوزاق الوهميين بأقواسهم وسهامهم المصغرة.

في أحد الأيام كان كازبك يشارك في مثل هذه الحملات مع أخيه الأصغر أنور، وهما يلعبان وسط القصيب الطويل على حافة النهر، إلى الغرب من القرية. جلس كازبك لوحده، وهو يشعر بالحرد، فقد رفض أن يلعب دور "الجاور" في هذه المرة: شعر بأن الدور على أنور وحصل بينهما شجار عنيف تبادلا فيه بعض الضربات. فالحقيقة هي أنه كان يشعر بشوق إلى الألعاب الأكثر جرأة التي لعبها مع تيمور وجعفر، قبل أن يتم إرسالهما بعيداً، ولم يفهم بالضبط لماذا يحصل كلاهما على المغامرة، وليس هو. وقد بدأ كازبك مؤخراً يجد صعوبة متزايدة في إشغال أيامه.

أقعى كازبك على عقبيه وهو ساهم، يراقب حشرات النوتية وهي تعبر بنفسها عبر بركة ساكنة من الماء على ضفة النهر – عندما شاهد في البعيد سحابة كبيرة من الغبار ترتفع، ومن خلالها، كان أحياناً يلمح وميض المعدن. في العادة كان كازبك سيهرب رأساً إلى بيته كما جرى تدريبه. لكن الحرارة ومزاجه السيء جعلاه في حالة سهوم، أقرب إلى الحلم، وبقي منزرعاً في البقعة التي تخفيها القصبات. مرَّ من أمامه منظر يملك كل العظمة والغرابة التي تحتوي عليها قصص ما قبل النوم التي ترويها له أمه: استعراض لشخصيات غنية ونادرة في ندرة كل ما سمعه في الروايات. كان هناك ستة رجال يرتدون العمامات، والأثواب الحريرية التي تلتمع بتطاريز من الذهب والفضة. بعضهم أطال سوالفه حول وجهه حتى تدلت وكأنها الأفاعي من جانبي شفاههم إلى مسافة طويلة تحت ذقونهم. كانوا يمتطون خيولاً قبارديه في مثل روعة الخيول الموجودة في حظائر والده. يحرس الفارس القائد رجل ببشرة سوداء إلى درجة أن كازبك اكتفى بالبحلقة: فهو

لم ير أبداً رجلاً بذلك اللون، بأسنان كبيرة براقة كأنها أسنان أسد جبلي.

وقد حمل الرجل الأسود لواءً هائل الحجم مزين بأذناب ستة خيول فوق رأس الفارس القائد، الذي يتحرك بخطى قيادية – وكل ما يحيط به يدندن ويصدر أصوات احتكاك، ويخلق موسيقى من وقع الخيول ذات طابع ملكي ثري. كانت دروع الزرد، الزخارف الفضية للسروج والمهاميز، والزينة المعدنية، ترسل أنغامها الإيقاعية أثناء تقدم المجموعة عبر سهل التيريك.

انتظر كازبك حتى عبر الاستعراض من أمامه ثم أقعى إلى الأرض وفرك عينيه بقوة.

نادى صائحاً: "أخرج يا أنورا" لكن الواضح أن أخاه كان منطقياً أكثر منه وتسلل عائداً إلى البيت. ركض كازبك عائداً في هذه اللحظة، وقد شعر بالخوف للمرة الأولى في حياته.

عندما وصل إلى البيت، اندفعت أمه نحوه من عتبة الباب واحتضنته بين ذراعيها. توقع أن توبخه، لكنها بدلاً من ذلك أمسكت به بقوة وكررت اسمه في صوت حزين.

"إنني بخير يا أماه. إنني ولد شقي".

"لا، لا. لا عليك. تعال واجلس إلى جانبي".

شعر كازبك بالغموض يكتنفه، لأن أمه في العادة حانية ولكنها حازمة ولهذا أحسّ بوجود أمر مختلف في طبعها.

أرسل إلى غرفته باكراً في تلك الليلة، وهو لا يعرف أن الخيالة الغرباء الذين كاد يعتقد أنه يراهم في الحلم، سيغيرون مسار حياته إلى الأبد.

لقد شاهد أحمد وفد السفارة وهو يعبر ماراً باتجاه قرية أمير الحابسا، وشعر بفضول طبيعي لمعرفة هؤلاء الأجانب الأثرياء. لقد

كان اللواء المقدس الذي يحملونه مشهوراً عبر آسيا كلها: فهو رمز للإمبراطورية المغولية العظيمة التي سيطرت على نصف الدنيا فيما مضى.

لقد تم أخضاع خانات شبه جزيرة القرم من قبل الجنرال بوتمكين التابع للإمبراطورة كاترينا، لكن العائلة الملكية احتفظت بمكانتها بأفضل ما يمكن من حيث المظاهر الاحتفالية إن لم يكن بالسمو السياسي.

علم أحمد أن وفد السفارة لا بد وأن يكون من مصدر ملكي. إذ سرعان ما أرسل الأمير دعوة إليه وإلى مراد لحضور "مجلس" في صالونه، لبحث المسألة.

شرح تيمرقان الموقف بقولـــه "يا أصدقائي، لقد حضر هؤلاء الزوار من قبل خانات القرم لتوجيه الطلب التقليدي إلى أمير الحابسا. لقد بلغ أصغر أبناء إحدى الأسر الحاكمة، الجيراي، واسمه أصلان، سن السادسة – وهو السن المحدد له حتى يبدأ تعليمه فنون القتال، وأخلاق الفروسية، وبشكل عام، أنه يتم تجهيزه لمرحلة الرجولة. لقد دأب خانات القرم على مدى قرون، على إرسال أنجالهم الأمراء إلى قباردا الصغرى من أجل البدء بهذا التعليم.

شرح مراد الأمر لأحمد "أنت تعلم أننا نحتفظ بالتقاليد في أنقى صورها أكثر من أي مكان آخر في بلاد القباردي".

استطرد تيمرقان في مخاطبته للكبار "ستكون هناك وليمة لضيوفنا هذه الليلة: غداً، عندما تكونون قد أخذتم كل الوقت المطلوب للتفكير، سوف نعيد جمع "المجلس"، ونختار أفضل "أتالق" للأمير القرمي الصغير".

استأنس الكبار في الانصراف، وركب أحمد ومراد سوية في طريق العودة إلى البيت.

"من المؤسف أن ولدي الاثنين قد تم إرسالهما للتعليم "قال مراد "سيكون الأمر الأكثر ملاءمة لأحدهما أن يتم تعليمه مع هذا الأمير الصغير". ألقى بنظرة ماكرة باتجاه أحمد "ألا تفترض أنه يمكن التأثير على تسيما لتسمح لكازبك أن يتم تدريبه إلى جانب أصلان هذا؟"

هز أحمد رأسه نفياً "إنها مصرة بشدة".

نفض مراد كتفيه "ذلك أمر مؤسف. سيكون شرفاً عظيماً لأي صبي أن يكون رفيقاً لطفل هو ابن بهادير جيراي العظيم".

ظهرت الدهشة على وجه أحمد. لأن بهادير جيراي هو أحد الأبناء المميزين لسلالة جيراي، خانات شبه جزيرة القرم على مدى قرون.

استطرد مراد بأسلوب مقنع "سيكون أمراً محظوظاً جداً إذا استمرينا في الإبقاء على "العصاباليك" وهي الرابطة الأخلاقية، قوية بيننا وبين خانات القرم، فمع أنهم خسروا السلطة، إلا أن لهم تأثير قوي... إن بهادير ليس صديقاً لروسيا وهو محترم إلى درجة كبيرة من قبل البلاط التركي، فمن يعلم، بالنسبة للمستقبل..".

عبس أحمد "لقد قلت ما فيه الكفاية، يا أخي الصادق. إنني أعرف واجبي. لكن هذا الأمر صعب حقاً".

"نعم، ولكن لدى تسيما إبنان آخران".

"ليس لديها أم، وما تزال حتى الآن تمارس الحداد على أخيها المتوفى".

"سامحني يا أحمد. ليس من حقي أن أتدخل في شؤونك العائلية، لكن لدى تسيما أكبر نعمة يمكن أن تطلبها أية امرأة".

ظهر الفضول على وجه أحمد "قل لي يا مراد، فأنت لن تغضبني".

"لديها زوج يصغي إلى أحاسيسها. يجب أن أعترف بأن مثل هذا الأمر غير شائع بين "الوَرْق" القباردين هنا".

بينما كانت الوليمة قائمة، ذهبت تسيما في ساعة متأخرة من الليل إلى المهجع حيث ينام أبناؤها، ونظرت إلى الوجه الشاحب الناعم لأكبر أبناءها. لقد صرح أحمد بقناعته، وعرفت أنه يتوجب عليها أن تطيع رغباته في هذه المرة. لقد كان هذا التنازل هو الأول من عدة تنازلات سيتوجب عليها أن تقدمها في هذه الآونة، على اعتبار أنها زوجة "وَرْق" قباردي. لقد حاول أحمد أن يجعل دخولها في أسلوب معيشة شعبه أسهل ما يمكنه – لكنها لم تعد امرأة جبلية حرة. إنها أم قباردية، وهذا هو المنطق الذي أقنعها أحمد بواسطته. لقد ظلت تسيما تؤدي واجباتها طيلة حياتها، وهذا مجرد شكل جديد من الطاعة يتطلبه منها زوجها وربها. صلّت من أجل كازبك، وهي تبكي طيلة الوقت، ولكن، مع اكتساب صلواتها المزيد من الثقة والإيمان، خف شعورها بالحزن قليلاً.

في اليوم التالي، تم اختيار "أتالق" بإجماع الأصوات في المجلس. وقع الاختيار على تميروق العجوز، أحد أكثر المقاتلين احتراماً في قباردا الصغرى.

عرض الأمير الهدايا القيّمة التي أرسلت من قبل الخان إلى الكبار، معلناً بذلك عن تقديره.

كان من بينها سيف من أروع أنواع الفولاذ المسقي: بمقبض من الذهب المزين على شكل حبيبات لارتدائه في الاحتفالات. وأكملت تقديم الهدايا عشرات الأقداح والصواني المصنوعة من الفضة المنقوشة.

سلّم الأمير السيف إلى أحمد، حتى يختبر توازنه.

وافق أحمد بقوله "إنه قطعة رائعة"، وأعاده إلى الأمير.

ابتسم أمير الحابسا قائلاً "يا أحمد، سيكون أمراً رائعاً إذا أصبح ابنك كازبك مقاتلاً ذائع الصيت إلى الدرجة التي يستحق فيها هذا السيف مني مقابل إنجازاته".

كانت تلك إشارة كافية "أوافق معك، يا أميري، يشرفني أنك تأمل خيراً في مستقبل ابني كما لو أنه أحد أحفادك".

"إنني أعتبرك من أقاربي. ولذلك أطلب منك الآن أن تسمح لكازبك أن يكون زميلاً لابن بهادير جيراي".

"إنني سعيد بأن أطيع، يا أميري".

وهكذا تخلى أحمد عن ابنه بهذه الكلمات البسيطة. بعد بضعة أيام، ظهر كازبك وقد ارتدى أجمل زي استطاعت أمه أن تجهزه له.

"أنت تفهم الآن الشرف الذي أسبغه الأمير على أسرتنا". قالت تسيما بلهجة رسمية، بينما تداعب أصابعها أزرار وحزام تشيركيسكا ابنها.

"نعم يا أمي".

"سيتوجب عليك أن تركب مع وفد السفارة، وتعود بصحبة ابن الخان، أصلان. بعد ذلك ستذهبان إلى تميروقا. لن تعود إليَّ هنا.

"نعم يا أمي". وابتدأت عينا كازبك تغرقان في الدموع.

"سوف يعطيك أبوك أجمل فرس صغيرة لديه لأجل الرحلة".

انفتحت عينا كازبك على اتساعهما من الدهشة. "هل تقصدين تلك التي لها غرة على جبينها؟" لم يعد كازبك قادراً على تقييم ترقيته المفاجئة هذه بالأهمية، الهدايا، الاهتمام الذي يتلقاه. والآن الفرس. ضحكن تسيما برقة "نعم، أنت يا كازبك ابن أبيك – يشعرك الجواد الطيب بالسعادة. رافقتك السلامة يا روحي. يرعاك الله". بهذا القدر القليل من الحنو، قبلته وغادرت الغرفة. لم يرها

بعد ذلك: فقد حضر خادم الوزير الأول تيمرقان بعد ذلك مباشرة ليأخذه وانضم كازبك إلى البعثة القباردية لإحضار الأمير الفتى أرسلان من قصر آل جيراي في باختجي سيراي بشبه جزيرة القرم. رفعه أبوه، أحمد إلى السرج، وكان كل ما قاله له: "يا كازبك، عد إلى أسرتك بالشرف". رغب في أن يحتضنه ويحنو عليه كما كان يفعل عندما كانوا يعيشون في بلاد الشيشان، لكنه لم يستطع أن يظهر مثل هذه المحبة بشكل علني. بدا على كازبك أنه يتفهم الوضع. أومأ برأسه إلى والده كإشارة على الوداع. ألقى ببصره عدة مرات إلى الخلف أثناء تحرك القافلة خارجة من القرية في محاولة لاستقراء التعبير المرتسم على وجه أبيه.

كان كازبك في سن تكاد تسمح له بفهم ما يحصل له، إلا أن الأمر لم يبد منطقياً له: إذ لم تكن لديه فكرة عن مضمون الزمن الطويل، كم يوماً تشكل السنة، وكيف أنه لن يعود إلى أمه في وقت قريب جداً. لكنه لم يستطع أن يغالب إحساسه بأنه قد خطا نحو حكاية، مثل أولئك الصبية الذين يهربون مع المغنين الجوالين والدببة الراقصة، أو يمخر عباب البحار مع القراصنة، أو يلقى القبض عليه ويشحن إلى تركيا مكبلاً بأصفاد العبيد.

كان يركب كل يوم، عشرة، خمسة عشر، وأحياناً عشرين ميلاً، عبر الممرات الجبلية وبمحاذاة أودية الأنهار التي كان جمالها يسبب لحواسه الاضطراب.بعد ذلك تم وضعه على سفينة: سببت له حركتها مرضاً شديداً بحيث رقد على سرير لعدة أيام على سطح السفينة، تحت النجوم. كانت الطيور البحرية الكبيرة تنزلق فوق رأسه في الليل، بطونها البيضاء تتوهج كأنها أشباح، نذر بالموت....

كانت البلاد التي وصلوا إليها غريبة وغير مريحة. فقد أصبح الطقس أشد حرارة، وامتلأ الجو بالحشرات الطنانة، وتضاريس الأرض أشد وعورة، جافة، وتبدو خلفها جبال لامعة بلون بنفسجي.

ظل كازبك يتأرجح من الإرهاق على ظهر فرسه القباردية، وحتى وصل وفد السفارة في نهاية الأمر إلى حافة تلة وأطل فجأة على الشارع الجاف الطويل الذي اصطفت على جانبيه المتاجر والذي يشكل مدينة باختجي سيراي الملكية، وهي البلدة التي يعني اسمها نفسه "القصر الموجود بداخل حديقة"، وهو ما كان كذلك حتماً.

كانت الشوارع ملأى على مراحل بالحدائق وأشجار والحور اللومباردي التي يطاول ارتفاعها السموات العلى بين الأبراج ومآذن المساجد.

تحرك القبارديون قدماً بخطى مهيبة، يتقدمهم مضيفوهم التتار، حتى وصلوا إلى قصر رائع حيث كانت الطبول تقرع والنوافير المزدانة بالأصداف يرتفع ماؤها في الحدائق العديدة المخفية. هنا كان يوجد المزيد من الرجال ذوي البشرات السوداء الذين أرعبوا كازبك بملابسهم الذهبية وسيوفهم المنحنية ذات الحد الواحد، ووجوههم الخالية من التعابير.

هنالك ترك لوحده في ساحة صغيرة تابعة لقصر آل جيراي ذي اللون الحائل والذي يشبه المتاهة، حتى يقابل أصلان.

كان الأمير الصغير في نفس سنه، ولكن ببنية أصغر قليلاً: جاف العود، قوي، ذو تصميم عالٍ، وبعيون سوداء ذكرت كازبك بشقيقه أنور وجعلته يشعر بالحنين الشديد إلى البيت.

بقيت مجموعة القبارديين التي يناهز عددها العشرين تحتفل وتحضر الولائم لمدة أسبوع حسب عادات التتار، تقارب كازبك وأصلان خلاله إلى حد الصداقة الممكنة، بدون وجود كلمة واحدة من اللغة المشتركة بينهما. فقد جمعتهما الوحدة وشعورهما بالتغيير القادم في حياتيهما وقربت أحدهما إلى الآخر.

بدت رحلة العودة أسرع، ولكن ربما كان ذلك لأنه أصبح لكازبك صديق من نفس عمره، شخص متوتر بقدر ما كان هو

متوتراً في رحلة الخروج، ومثله أيضاً لديه الكبرياء التي تمنعه من التعبير عن مشاعر الضعف فيه. لم يتكلما على امتداد ساعات، ومع ذلك فإن المشاركة في الرحلة كانت كافية حتى يشعر الولدان بوجود رابط بينهما.

***

كم مرة خضع ذلك الرابط للامتحان في السنوات التي بقي فيها كازبك مع تميروقا، الرجل المهيب ذو اللحية الطويلة البيضاء والعادات البسيطة. كان دائماً يرتدي ثوباً أبيض مزود بغطاء رأس، ويحمل بندقية قديمة ويمتطي مهراً قوي الشكيمة. يعيش في منزل صغير مع عائلته المباشرة وقلة من الخدم عند سفوح الجبال، وهو مكان بري مليء بأنواع الصيد والغزلان. لم يكن لدى كازبك أي إدراك عن المكان الذي هو فيه، ومع توارد الشهور إلى سنوات، أصبح اهتمامه بذلك الأمر يتضاءل . فقد كانت حياته مغلقة، ومخطط لها سلفاً، ذات إيقاع ونظام أصبح بالنسبة له طبيعة ثانية. تعلم هنا، في قلب بلاد الجلاخستني طريقة حياة بدائية بقدر ما هي قديمة، تشرَّب القوانين، العادات وآداب الجنس القباردي من خبير قديم. لم تكن لدى تميروقا أية معروفة متأنية عن دراسة الكتب، بل عن الحكمة، عن الفهم الذي يتأتى من العالم الذي حوله، السماء، الأرض، الحيوانات، حكمة مكتسبة عن طريق الملاحظة والاحترام العميق، وبذلك أصبح تميروقا الدليل الأفضل.

طبيعي أن يتعلم كازبك وأصلان جميع فنون القتال، فقد كان يتم تدريبهم يومياً على المبارزة بالسيف، القتال "بالقاما"، المصارعة، الفروسية، الرماية بالقوس والسهم، السباحة (وتعليم خيولهم على السباحة تحتهم في مجاري المياه السريعة) إطلاق النار، الصيد، وأسس البقاء على قيد الحياة في البراري. شرح لهم كيف يستخرجون السكر البري عن طريق عمل ثقب في لحاء شجرة الجوز، بجمع السائل وتركه حتى يتخثر: كيفية تصفية العسل بتبييضه تحت أشعة الشمس: وكيفية سلخ جلد الغزال عن طريق

فتحة واحدة في جلده، ثم سحب الجلد من الأقدام المعلقة في الكلابات نزولاً عبر الجسم حتى الرأس.

لكن الأهم من ذلك هو أن تميروقا علم الولدين جوهر تقاليد المقاتل "الأديغه". بسبب من تمسكه بالمعرفة التقليدية والقانون، فقد أصبح امتحانه لشخصيتي الولدين يزداد في التشدد تدريجياً. فالشجاعة لا تتحقق عن طريق المهارات الجسدية، ولا حتى عن القابلية للقتال: أن "النيمس" الحقيقي يتحقق من قوة داخلية، من نقاء الروح الذي لا يمكن الحصول عليه إلا بعد سلسلة من اختبارات الشخصية الصعبة.

تولى تميروقا قيادة تطور الولدين بدهاء كبير. إذ كان فهمه للشخصية البشرية مبنياً على سنواته الطويلة كمقاتل – فقد سافر كثيراً وبعيداً، وشارك في حملات جريئة في استراخان وتركيا وبلاد فارس وأفغانستان. لكن رحلاته في بعض الأحيان كانت بسبب نفس قلقه. فقد قابل متصوفين باطنيين من عدة مذاهب، مارس الصيام وعاش في فقر مدقع عند أقدام رجال دين لم يكونوا يملكون أكثر من خرقة يسترون بها عوراتهم. في مكان ما من إحدى رحلاته، التقى بسيده الحقيقي – رجل صوفي، أدخل تميروقا في تقليد شفوي سري يقال أن مصدره من أفغانستان قبل أن يوجد الإسلام أو توجد المسيحية. كان ذلك نظاماً مبنياً على تحليل الشخصية وتطويرها، وهو معروف فقط للمعلمين ذوي القداسة بالنجمة ذات الأضلاع التسعة أو التصميم "التسعي".

وقفت كل الحكمة العميقة التي اكتسبها تميروقا لمعرفة النفس خلف طريقة تعامل مع كازبك وأصلان. لم ينقل القواعد إلى الطلاب أبداً، وذلك في اتباع مطلق لتطبيق الممارسة: تم الكشف فقط عن الاختبارات وعواقبها. درس تميروقا الولدين بعناية لعدة أشهر بعد وصولهما إلى كنفه. لاحظ أن كازبك هو الأقوى جسدياً، وأنه يتمتع بقوة شخصية تبشر بالخير لمستقبله "كوَرْق" قباردي. كان أصلان أقل صلابة، في جسمه كما في عقله. لكنه كان يمتلك

عيني المخلص المتفرغ. إذ كان يميل إلى الأفكار: إلى القضايا: وكان أكبر خوف لديه هو أن يضطر إلى الكشف عن جبنه الكامن.

استمر تميروقا في مراقبة الولدين كل ليلة أثناء أدائهما الصلاة، كل إيماءة، كل تمتمة من شفتيهما تحدثت إليه بدون تحليل عن الدافع الداخلي لشخصيتهما. كان كازبك يقضي وقتاً طويلاً في الصلاة، وقد ارتسمت على وجهه تقطيبة كأنما ليس هنالك شيء يمكن أن يفعله ويكون مقبولاً لربه أو لمن هم أعلى منه مرتبة.

كان جسم أصلان ينطوي على نفسه، ويحدودب كتفاه وتتحرك شفتاه في ابتهال شرس. بينما كان الولدان يؤديان واجباتهما، كان تميروقا يرسم النجمة ذات الأضلاع التسعة داخل دائرة في الرمل ويجلس أمامها، متفكراً مطالباً المساعدة الآلهية في مهمته.

بدأ بأن يهمس الأقنعة " واحد، النسر، الكمالي: اثنان القندس، المساعد: ثلاثة الطاووس، الممثل: أربعة الحصان، الفنان: خمسة البوم والثعلب المراقبين: ستة الذئب، الغزال... المواليان عرف تميروقا أن كل إنسان، رغم أنه يولد في حالة من نقاء المعدن، إلا أنه يختار دافعاً إجبارياً كقالب مسيطر على حياته. إن الاختيار مسألة خاضعة للطبائع، ولكنها أيضاً مبنية على تجارب الطفل المبكرة، وهي دفاع غريزي ضد الألم. هذا النمط أو هذه المثالية تحدث أثناء الطفولة، ما بين سني الثالثة والسابعة، وهذا هو السبب الذي اضطر فيه "الأتالق" إلى بدء عملية التأديب قبل أن يصبح نمط الشخصية ثابتاً بشكل أقوى مما يمكن التأثير عليه، قناعاً يمكن الاختباء خلفه. يترتب على الشخصية المتكاملة، وهي التي يتحتم على المقاتل العظيم أن يمتلكها، أن ترتحل عن هذه النظرة "المثالية" للنفس خلال كل المظاهر الأخرى للنجمة ذات الأضلاع التسعة، مارة إلى الأمام وإلى الخلف عبر الدائرة، إلى أن تصبح النفس متكاملة. إذا لم يحدث ذلك، فإن هذا النموذج من النفس المثالية سيصبح كاريكاتوراً، تشويهاً محدوداً لقدراتها الكامنة. تلك هي العقيدة الصوفية المغرقة في القدم، وكانت غاية تميروقاً أن يكتشف

النمط الذي اختار كل صبي أن يكونه، وأن يعلمه كيف يصلح هذا الميل. سيرتحل الولدان بمصاحبة إرشاداته "بعكس السهام" التي تشكل النجمة، منتقين صفات كل رقم مقابل. هذه هي الرحلة الروحانية التي يقدمها "الأتالق"، الحركة "ضد السهمية". لم يكن تميروقا يعرف أصل هذه العبارة، لكنها كانت موصوفة بهذا الشكل منذ أزمان لا تعيها الذاكرة. تابعت عصا تميروقا الشكل النجمي المرسوم على الرمال، وقد ربط روحه بروحيهما، محاولاً أن يستكشف مكنونات قلبيهما، أدرك أن كازبك ينتمي إلى النقطة الأولى من النجمة: الرقم الواحد، الكمالي، الإصلاحي. ستكون حياته مدفوعة بالحاجة إلى العمل الصالح، أن يكون محقاً، وسيكون أكبر عيب في تكوينه، أي المؤشرات العكسية على نمطه، هو الغضب الذي لا يمكن السيطرة عليه.

لقد اختار القبارديون بحكمة عندما أرسلوا كازبك رفيقاً لأرسلان، لأن الأمير القرمي الصغير ينتمي بدون أدنى شك إلى الشخصية السادسة: الموالي. سيكون تفكيره المثالي بنفسه، المؤمن، مخلصاً إلى نقطة التعصب، باحثاً عن قضية على الدوام، لكنه ضعيف عندما يصل الأمر إلى حد التصرف. إذا تركت هذه الشخصية بدون إصلاح فإنها ستتحول إلى إرهابية إجرامية. ومع ذلك، فلأن كازبك يعيش في القوس الواقع بين الأرقام ثمانية –تسعة – واحد، الذي تحكمه الشجاعة، وسوف يعاني دائماً من صعوبة في إيصال مشاعره أو التواصل، فإن أفضل رفيق له سيكون أصلان، الذي يعارضه في القوس الواقع بين الأرقام خمسة – ستة – سبعة الذي يحكمه العقل: "الروح، الحياة، الأرض".

فكر تميروقا. "سيحتاج كازبك إلى أن يطوِّر الهدوء، وسيحتاج أصلان إلى الشجاعة. بإذن الله، أدعو أن يساعد أحدهما الآخر على الوصول إلى الكمال".

لم يكن تميروقا يكثر من التحدث إلى الولدين. أبقى موضوع النجمة سراً ولم يخبر الولدين بأرقامهما. كان هدفه أن يعلمهما أن

يعرفا نفسيهما من خلال الأفعال. أن يشاهد الارتباط الذي أقاماه مع نفسيهما المثاليتين، وأن يتعلما الانفصال الكلي عن كل شخص وكل شيء إلا الله سبحانه وتعالى. عندما يسألانه أن يفسر أوامره التي كثيراً ما تكون غريبة، كان يقول: "الكلمات هي أصل سوء التفاهم. لكنك ستجلس أقرب مني قليلاً، كل يوم". على الأغلب هو يعطي تعليمات، أو يطرح أسئلة بسيطة "كيف تشعر بالوحدة؟ ما الذي يخيب ظنك؟ ما الذي يجعلك تتردد؟ هل يمكنك أن تجلس بلا حراك؟".

كان كل شيء علمه تميروقا للولدين مشرباً بهدف معرفة النفس. حتى الإنجازات الأكثر نشاطاً ذات الصبغة العسكرية كانت تحوي في مركزها التعليم على تنوير النفس، إجادة الاستقلال عن النفس.

عندما بلغ كازبك وأصلان حوالي الثالثة عشرة، اصطحبهما تميروقا من الجبال إلى مستوطنة قوزاقية في سهل تيريك. لم يكن كازبك يعرف ذلك، ولكنه أصبح على بعد حوالي ساعتين ركوباً من قريته الحابسا. لم يجر أي اتصال مع عائلته طيلة كل السنوات التي قضاها مع الأتالق، ولا أتصل أصلان بعائلته جيراي شبه جزيرة القرم.

نما كازبك فجأة وأصبح فتى طويل القامة، صلب العود. كانت كتفاه عريضتين – ساقاه قويتين، ويديه ذات أصابع طويلة قوية، أما أصلان فقد ظل نحيلاً، لا يبلغ نفس طول كازبك، لكنه يمتلك طاقة عصبية تجعل ردود فعله جادة إلى درجة مذهلة. كان نداً لكازبك في أية منافسة.

عندما وصلوا إلى مقربة من المعسكر، أعطى تميروقا أوامره. قال "عند هبوط الليل يجب عليكما أن تدخلا إلى المستوطنة وتحضرا لي أثمن ما يمكنكم أن تعثروا عليه من أشياء". لم يقدم

لهما أية تكتيكات، ولا أية نصائح في هذه المرة: فقد أصبحا في سن تمكنهما من قبول التحدي بنفسهما.

انطلق الصبيان على جواديهما، وقلبيهما يخفقان. لقد أصبحا أخوين في كل شيء ما عدا الدم، لكن صداقتهما كانت مصطبغة باشرس أشكال المنافسة التي كانت أحياناً تهدد بالتسبب في فقدان الانسجام. أقسم كل منهما على أن ينجز أكثر من الآخر: أن لا يساعد أحدهما الآخر أكثر مما هو ضروري: وأن يكتسب نصيباً أكبر من المدائح من تميروقا.

اختبئآ بين الشجيرات حتى أصبح الظلام دامساً بما يكفي لتقدمها سيراً على الأقدام. كان القرويون يغطون في نوم آمن. أزعجت روائح العفن والقذارة في المستوطنة أنف كازبك: فقد أصبحت حواسه مرهفة، بسبب طبيعة حياته المتقشفة في الأحراش بحيث أصبحت رائحة الطعام المتعفن وروث الكلاب غريبة إلى درجة مغثة. أدرك بأنه أصبح بعيداً جداً عن متاعب الحياة بحيث أصبحت تفاصيلها مزعجة بالنسبة له. شعر بالفخر من انفصاله.

زحفاً تحت الجدار الخارجي. قص أصلان ثقباً لوضع قدمه بين الأوتاد الخشبية بسكينه.

قال أصلان "عندما نجتاز، سأذهب يساراً، وأنت تذهب يميناً".

اعترض كازبك" لا، سنتراهن على ذلك: الإنصاف هو الإنصاف".

ابتسم أصلان وألقى بالقاما في الهواء، سقطت على الأرض ومقبضها إلى الأعلى.

"كما قلت، سأذهب يساراً، وأنت تذهب يميناً". عاود أصلان الابتسام.

ابتسم له كازبك وتصافحا ليتمنيا الحظ الحسن لبعضهما. همس كازبك "كان الله معك".

ودفع بأصلان ليتسلق الجدار. بعدها انحنى أصلان وناوله ذراعه ليساعده على الصعود. افترقا. أصبحا متنافسين في اللحظة والتو.

تحركا بسرعة صغار الذئب. وجد كازبك زريبة مفتوحة، وحمل منها كيس ذرة إلى كتفيه. تعربش إلى ظهر عليّة، وبضربة حظ موفقة، عثر على بندقية إلى جانب فتحة إنارة، من الواضح أنها تستعمل لصيد الحمام.

كان أصلان أكثر اندفاعاً، تسلق إلى داخل بيت، مصمماً على العثور على المال، المجوهرات، وأن يقتل قوزاقياً أو أكثر إذا استطاع.

عثر على محفظة، إبريق شاي من الفضة، وغطاء من جلد الفهد. إنسل خارجاً من البيت وجرى مسرعاً إلى الجدار الخارجي للمستوطنة حيث أخفى الغنيمة في حفرة حفرها بسرعة في الأرض واستدار جاهزاً للعودة من أجل المزيد.

ركض مباشرة نحو ذراعي حارس قوزاقي.

تبخرت كل خططه لقتل "جاور". عرف أنه يجب إسكات هذا الرجل بسرعة وإلا فإن كازبك سيتعرض للخطر. ظهر تدريب تميروقا واضحاً في اتخاذه لهذا القرار، لأن المقاتل يجب أن يعتني برفاقه، ولا يخاطر بحياة رجل آخر في سبيل إنجاح مغامرته هو.

رفع أصلان ركبته بقوة بحيث أفلت من قبضة الرجل. فوجئ القوزاقي "ماذا بحق الـــ...." قفز أصلان صوب الرجل برفسة مصارعة، فقطع أنفاسه وألقى به إلى الأرض مثل شجرة اقتلعت بفأس. مزق قميصه وحشر شريطة منه داخل فم الرجل. بعد أن أوثقه جيداً، ضربه بمقبض القاما ضربة هائلة أفقدته الوعي، ثم سحب الجثة إلى عتمة ظل الحائط، وفتش جيوبه، قطع نقدية ذهبية، ساعة روسية!

سمع كازبك أصوات الشجار ولكنه عرف أن رغبة تميروقا ستكون في أن يهتم كل شاب بشأنه، إنسلَّ بهدوء في شارع جانبي وتوجه إلى بناية أخرى. إضافة إلى ذلك، فأن أصلان قوي، رغم كل شيء، وسوف يصفر بالإشارة الخاصة بينهما إذا شعر أنه في خطر حقيقي.

كان رجل قوزاقي يعتمر الطاقية الفرو المشعثة واللحية المشابهة نائماً نومة سكر الفودكا، وقد أفرد كتفيه فوق برميل، ساقاه مفتوحتان داخل بنطاله الواسع، ويرتدي حذاءً أسود بمقدمة فضية مكشطة. كان من السهل نزع سيفه، لكن كازبك حاول ما يقارب المستحيل بعد ذلك. تنفس الصعداء قائلاً "فعلتها"، وهو يعيد "القاما" إلى حزامه بقوة ويركض مثل ذئب باتجاه السياج، جمع غنائمه في حزامه، أمسكها بأسنانه، ربطها حول رقبته، ثم تسلق الجدار، وألقى بنفسه على الجهة الأخرى ثم تدحرج في التراب بهدوء. ركض إلى حيث اختبأ وانتظر حتى سمع صوت أصلان عائداً بنفس الاتجاه. لم يجرؤ الولدان على التحدث وهما يحملان مطيتيهما وينطلقان إلى مكان التقائهما بتميروقا – أخدود مغطى بصخرة ونتوء حيث يفترض أن يبيتوا ليلتهم على الأرض العارية.

كان تميروقا ملتفاً بالبوركا البيضاء، يدخن تشيبوكه بسلام وأمان، لم يشعل النار لأجل السلامة، وهو لم يكن يتأثر بالبرد على أية حال.

قال أصلان بفخر "لدي قطع نقدية من الذهب"، وهو يلقي بجائزته النقدية على الأرض حيث التمعت في ضوء القمر.

نافسه كازبك قائلاً: "أنا لدي بندقية!"

"فضة!"

"ذرة!"

"ساعة!"

قال كازبك "آه، نعم" وقد رفع يده فجأة بعظمة. "ولكن لدي أكثر الأشياء قيمة من هذه الغارة على الإطلاق!" مع كلمات النصر هذه سحب يده من جيبه وأخرج جائزة قوزاقية. وهي السوط القوزاقي سيء الذكر المسمى "ناجايكا"، والذي أخذه من حزام القوزاقي أثناء نومه.

لم يتمالك أصلان نفسه من الشعور بالحسد "هل قتلت من أجل الحصول عليه؟".

أقعى تميروقا على كعبيه وانتظر جواب كازبك.

"لا، أعترف أنني لم أفعل. لقد كان الرجل بحالة سكر شديدة، وكل ما علي فعله هو رفع ذراعه وتحرير السوط. لكن انظر: إن له سيراً جلدياً وخرزات من نوع ما داخلة فيه".

لم يكن "الناجايكا" ذا قيمة من الناحية المالية، ولكنه يعتبر إنجازاً مشرفاً لكازبك. لأن سوط الخيل هذا يرمز إلى الغرور والقوة القوزاقية: "فالجاور" المتواجدون على خط الجبهة يخرجون في غزواتهم وهم يلوحون بالـ "ناجايكا" عالياً ويصرخون "هويدا!" والتي تعني "لا رحمة!". لذلك فإن كازبك برهن عندما سرقه أنه لا يعرف الخوف، وأكثر من ذلك، فقد عرف قيمة اللفتة العظيمة.

انحنى تميروقا إلى الأمام وجمع كل المنهوبات في كومة عند قدميه "لقد كان إنجازكم متوسطاً بالنسبة لغارتكما الأولى. أنت يا أصلان، ما كان عليك أن تدخل إلى البيت. لأنك لم تمتلك التغطية الكافية لتحمي خروجك، لو صدر هنالك إنذار. لقد تصرفت بطيش من منطق خشيتك على أن لا تبدو شجاعاً بما يكفي. أنت بطبيعتك فطن: فلا تدفع بنفسك بأقسى مما يجب وإلا فسوف تتحطم في يوم ما، ابتعد واهرب عندما تشعر بأن عليك الصمود. لا يعتبر الذهب نقوداً هذه الأيام: إن حجر القدح القرمي الموثوق به هو الذهب الخالص هذه الأيام". ودفع بالقطع النقدية بعصاه في احتقار.

احنى اصلان رأسه بأسى.

"أنت يا كازبك لم تدخل البناء الخارجي الذي رقد فيه القوزاقي نائماً بما يكفي من الحيطة. لم يكن الرجل مخموراً: لقد كان لحسن حظك مضروباً لدرجة أنه غاب عن الوعي، وقد دفعتك رائحة الفودكا إلى الاستنتاج الخاطئ. لو أنك فكرت بخطتك المثالية أقل قليلاً ونظرت إلى الرجل بعناية أكثر، لكنت رأيت أنه مذهول. أمر جيد أن ترتكب الأخطاء. تعلم أن تتقبلها بنفسك. إن الله سبحانه وتعالى يتقبلها".

قال الولدان بذهول في نفس الوقت "هل كنت موجوداً هناك يا تميروقا؟"

لم يقدم تميروقا أي تفسير "يمكنك أن تحتفظ بالناجايكا يا كازبك، إنها أكثر الأغراض قيمة هنا لأنها تشهد على فهمك لما يعتز به المقاتل. ولكن:" ونظر إلى الولدين بقسوة "يحق لي "كأتالق" أن آخذ تسعة أعشار غنيمتكما. البقية تذهب إلى أسرتي".

لف تميروقان جسمة استعداداً للنوم، نظر كازبك وأصلان إلى بعضهما بعضاً في استغراب غبي وبعض الغضب. لكنهما بدآ يتفهمان الوضع وهما مستلقيان في حالة من النشوة بنجاتهما. إن المقاتل لا يحارب من أجل الكسب المادي، بل من أجل المجد. يجب أن تجلب شجاعته المنافع للآخرين، ولا تجعله إنساناً جشعاً. إن طريقة القتال هي في مثل أهمية النصر.

وهكذا، مع العديد من اختبارات المهارة، بعض مواقع الخطر الشديد، وبكميات ثابتة من التقريع والتأنيب، أصبح الولدان المقاتلين اللذين تحتاج أسرهما وعشيرتهما أن يكونا.

بعد مرور سنة، وفي ليلة خريفية مقدسة، التقى كازبك وأصلان مع "الأتالق" والعديد من المقاتلين الآخرين في دغل يعتبر مقدساً حسب العادات القديمة.

كان هذا الحدث السنوي أحد الشعائر التي تؤثر في الشباب باطراد مع كل سنة تمر. لم يشرح لهم أحد أصول العادة. ولكن مع

بلوغهم سن النضج، كذلك نضجت استجابتهم لعادات المساء. قال تميروقا: "إن الأوراق تتساقط... وهذه هي اللية التي نتذكر فيها مقاتلينا الذين سقطوا". وأشار إلى الـ "أشوق"، الشاعر المغني الجوال حتى يتقدم نحو قلب التجمع. في كل سنة يمر هذا الرجل بمقر تيمروقا الجبلي: في كل سنة، يستدعي تيمروقا أهل أسرته ورفاقه القدامى في السلاح، لاستذكار الإنجازات العظيمة لأصدقائهم الراحلين وحتى يخبرهم الشاعر عن غرباء آخرين أكثر شجاعة.

أنشد الشاعر الجوال واحدة من القصائد الرثائية الحزينة المفضلة لدى كازبك. لم يكن يعرف لماذا تؤثر فيه قصة الحب الحزينة إلى هذه الدرجة من العمق. فهي لا تذكره بأمه الجميلة تسيما: فقد كانت أغانٍ أخرى تجعله يحس برغبة في البكاء شوقاً إليها، مع أنه في هذا الوقت، أصبح يسيطر على مثل هذه العواطف. كان هنالك أمر يكاد يكون مألوفاً في الحكاية المؤثرة لأمير "الشابسوغ" الذي سقط مع عروسه وهما يقاتلان جنباً إلى جنب.....

"إنه لا يرقد وحيداً في فراشه الترابي البارد،
لأن من أحبها سقطت جثة هامدة إلى جانبه،
هناك يرقد الحب والشجاعة مع الأموات
وقد أصبح القبر المظلم الضيق بيتاً للعروس..."

ألقى تيمروقا بنظرة على الولدين، فانتبها إليه في توقع. لم تعد تمر نظرة أو إشارة من الأتالق بدون أن يلاحظاها. لأن الولدين أصبحا متناغمين كلياً مع أساليبه.

ذكرهما بالحكاية "هل تعرفان أسطورة ليلة القوة؟"

أومأ كازبك برأسه " لقد أخبرتنا بها يا "تحمادا"، إنها الليلة التي تنفتح فيها السماء ويمكنك أن تنال ثلاث أمنيات. يجب أن تكون اثنتان منها طيبتان والثالثة شريرة.

أضاف أصلان "يجب أن يتم طلب الثلاثة وتلبيتها" حتى لا يتفوق عليه صديقه.

استمر الرجال الأكبر سناً في الغناء. اقترب تيمروقا من الولدين، وهو يتكلم بهمس

"لو كان لك أن تطلب أمنية يا كازبك، فماذا ستطلب؟".

قال بدون تردد "سأتمنى الحرية لشعبي، سأتمنى أن أحيا حياة طويلة، حتى أتعلم أن أخدم شعبي بطريقة حسنة".

"هذا جيد. وأنت ، يا أصلان؟".

"سأتمنى أن أحظى بحلفاء جديرين بالثقة. الرجل بدون أصدقاء ليس رجلاً على الإطلاق. أيضاً سأتمنى الحرية.

"ذلك أمر جيد. لكن أحداً منكما لم يخبرني عن رغبته الشريرة".

أصبح لزاماً عليهما أن يفتحا قلبيهما كلياً. أحنى كازبك رأسه خجلاً. "سوف أتمنى أن يفني البلاء كل "الجاور". سأتمنى أن يثبت زيف إلههم".

"وأنت، يا أصلان؟"

"سأتمنى أن يموت كازبك، حتى أصبح أنا المقاتل الأفضل. إنه الأفضل. إنه الأفضل" انفجر أصلان بنبرات رنانة من الحزن.

خفق قلب كازبك من الهلع. لكن تيمروقا لم يتأثر، وبدا وكأنه قد عاد للإصغاء إلى الموسيقى.

جلس الولدين صامتين، لا يجرؤ أحدهما على النظر إلى الآخر.

شعر كازبك بامتعاض شديد من معرفته للأعماق السوداء لحسد أخيه له.

ظهر وجه تميروقا داكناً أمام الضوء المنعكس من النار.

"لقد أحسنت الكلام يا أصلان. لقد كانت صراحتك مكلفة لك. تذكر: لا تخف من الحرب أو المتاعب، لأن ذلك هو الموسم الذي يتم فيه جمع حصاد المنافقين. ليس هناك ما يخشاه أحدكما من الآخر، إذا بقي قلباكما مفتوحين دائماً كما هما الآن. أمسك بيده يا كازبك. اعترف بالحب الذي يعذب أصلان، إنه معجب بك أكثر من أي شخص آخر، وفي يوم ما، سوف تنشأ لك حاجة لأن تستمد القوة من إخلاصه لك".

تصافح الولدان، فقد أدركا أنه من الآن فصاعداً سيبدأ "الأتالق" بالتفكير في موعد إرسالهما إلى بيتيهما. سيذهب كل منهما في طريق منفصل. حدقا في بعضهما بعضاً لمدة طويلة حتى تنطبع ملامحهما القوية على ذاكرتيهما. أصبح كازبك على قناعة بأنه لم يحب أي رجل آخر بقدر ما أحب أصلان تلك الليلة، أو أنه سيعثر أبداً على تلك الدرجة من الشرف، الصدق والتحدي لروحه مثل هذه الأوقات التي قضاها مع الأتالق.

***

عاد كازبك في نهاية المطاف إلى بيته في الحابسا حينما بلغ السابعة عشرة من عمره. كانت هذه المدة طويلة بشكل غير عادي فيما يتعلق بتدريب "الأتالق". افترض الجميع أن السبب هو وجود أصلان، الأمير القرمي. ربما احتاج تميروقا إلى أن يجعل منه مقاتلاً لا يشق له غبار قبل أن يعيده إلى شعبه.

كان كازبك يميل أكثر إلى تسيما في ملامحه، بعينين جميلتين زرقاوين مائلتين إلى الرمادي وحاجبين مستقيمين، جبهة عالية عريضة أبرزت وضوح ملامحه، وخط فك ثابت متناسق مع الفم. كان يبدو تماماً كما يجب أن يبدو الابن البكر "للوَرْق" الأديغه – قائد بالسليقة.

أقيمت الاحتفالات اللائقة بعودته – الموسيقى والرقص، ثم الولائم للكبار. شعر بسرور غامر حين أدرك أن استقراره في حياته الجديدة لن يكون شديد الصعوبة. لقد أجاد تميروقا عمله: فقد أصبح كازبك قادراً على التأقلم، صبوراً، وفوق كل شيء آخر، يحترم أولئك الأكبر منه سناً. حافظ أبوه أحمد على لياقته وطاقاته كما في أي وقت مضى، مع أنه شعره بدأ يظهر فيه قليل من الشيب – أدرك كازبك بصدمة أن الرجل قد قارب سن الأربعين. عجوز! الشيب في صدغيه: لم تعد التجعيدات الكثيفة ذات اللون البني الفاتح التي ظل كازبك يذكرها في أحلامه على الدوام موجودة: كان رأس أحمد محنياً إلى الأمام وهو يربت على كتف جواد رائع، ويهدئه بصوته المطمئن الرخيم.

توسعت مزرعة استيلاد الخيل كثيراً، سافر أنور وعظمات بعيداً كل مع "الأتالق" الموكل به، لذلك انهمك كازبك على الفور في مساعدة أبيه في الأرض. حاول أن يرضيه بجهد قوي مع أنه لم يتوقع أية كلمة ثناء (ولم يحصل عليها).

لم تتغير أمه تسيما على الإطلاق. وذلك ما بعث السرور في قلبه. على الأقل لم يكن لديها أية شعرات رمادية، وظلت تحمل على وجهها نفس ذلك التعبير المفتوح، غير المتغضن بالتجاعيد، وظلت عيناها الصافيتان تلتمعان عند النظر في عينيه.

لكن كازبك يحبها اليوم بطريقة مختلفة. شعرت تسيما بالاستياء في أول الأمر: فهو لم يقبلها، أو يحضر إلى غرفتها ليجلس معها وتعانقه.

سألت أحمد عن السبب "أليس سعيداً بكونه يقيم معنا؟ هل تغلبت عليه صفة المقاتل إلى درجة أنه لا يمكنه أن يهتم بي؟"

عانى أحمد وهو يحاول أن يشرح "إن مشاعره دفيئة بعمق. إن الحياة مع الأتالق قاسية". أضاف ذلك بقدر ما استطاع من عدم الاهتمام.

ردت تسيما بسرعة "لقد أخبرتني مدينا. إن لديهم اختبارات، أليس كذلك؟".

أومأ أحمد برأسه. "نعم. إن "النيمس" لدينا يقضي بأن يسيطر الرجل على عواطفه. سوف يستغرق الأمر كازبك بعض الوقت – أو ربما إلى الأبد– حتى يغامر بإظهار تعبير عن الحب. لقد أصبح صلباً يا تسيما. يجب أن تقبلي، فهذه هي طريقة الحياة".

أحنت تسيما رأسها حتى تخفي دموعها.

لكن أحمد لم يكن مصيباً كلياً في حكمه على ابنه البكر. لأن حياة كازبك مع تميروقا قد أحدثت تغييراً داخلياً لم يشاهده في البداية أحمد ولا تسيما. صحيح أن كازبك مقاتل، وهو في ذلك لا يعرف الخوف. لكن تميروقا كان قد فتح قلب كازبك على القانون الروحي للنبلاء القبارديين. فقد كان يحن إلى حياة التقشف، إلى نقاء حياته في الجبال. لقد حصنته صلواته عندما كان يشعر بالوحدة، والآن عندما أصبح بين عائلته وأصدقائه، فقد أحسّ بأن شيئاً ما ينقصه. الصمت، فترات التأمل المفروضة التي غذّت روحه في الغابات، ولذلك أحسّ بأن هذا السلام الداخلي يتم التطاول عليه بشكل مؤلم من قبل التزاماته الجديدة.

كان يتوقع منه الآن أن يفكر بالعثور على عروس. لكن كازبك كان حالماً إلى درجة أنه لم يجد واحدة تعجبه وتسرّه. كثيراً ما كان يحن إلى دفء الرفقة الأنثوية أثناء عزلته، ومع ذلك، فالحقيقة أن الفتيات الخجولات اللاتي كن يتضاحكن عندما يتجمعن قرب البئر، أو وهن جالسات في مجموعات عند حوض الغسيل سببن له خيبة أمل صريحة. فقد تأصلت الرومانسية في كازبك، كأنه من فرسان القرون الوسطى.

أدرك أحمد ذلك تدريجياً وببطء. مما جعله يبتسم وهو يستذكر بدايته البطيئة في مثل هذه الأمور. تذكر نفس العزلة الثقيلة بالضبط التي اختبرها أثناء رحلته من الكوبان إلى بلاد الشيشان.

لكنه على ثقة من أن امرأة ما، من أرقى النوعيات سوف تفتح مغاليق الحنان الكامنة بعمق في قلب كازبك بوضوح.

بدت الحياة في قرية الحابساي وكأنها محمية بالرقى. فقد كان أمير الحابسا يحكم رعيته بحكمة، ويظل على اطلاع بالشؤون الروسية. غادر بوتمكين القفقاس وتوفي بينما كان يتفاوض على السلام بين روسيا وتركيا، عام 1791. لم تستمر القيصرة كاترينا في الحياة بدونه مدة طويلة، فقد قتلها الحرمان من دعمه. تلاها قيصران جديدان في تتابع سريع، هما بول والكسندر، إبنا كاترين. كانت تلك فترة سلام نسبي: جاء إلى القفقاس قادة مختلفون، لكن أحداً منهم لم يكن في مثل رهبة بوتمكين. فقد جاء تستسيانوف، وهو مرتد جورجي لكنه إداري كفؤ: جلازيناب، نائبه الذي تولى القيادة بعده لكنه أدنى منه معدناً: جودوفيتش، وهو طاغية، أصبح كثير النزوات في أواخر حياته: وأخيراً رتيتشيف، رجل منصف تعوزه الطاقة ويبدو عليه أنه لا يشكل نداً للجبليين. ثار القبارديون أثناء حكم تستسيانوف كنتيجة لقراراته غير المنصفة، وأحرقت عدة قرى قباردية نتيجة لذلك. لكن السلام عاد إلى بلاد القباردي عام 1811 عندما ذهب وفد إلى سانت بطرسبرج، وأعاد القيصر التأكيد على الامتيازات القباردية المعطاة لهم سابقاً عام 1771 من قبل كاثرين الثانية.

نجحت الدبلوماسية القباردية وعاد الهدوء إلى المملكة وإلى بلاد الحابسا.

تسربت أنباء إلى أمراء القباردي بأنه ظهر في أوروبا جنرال قوي، اسمه نابليون، واستلم السلطة بعد موت الملوك، وأنه يبقي الجيش في حالة انشغال في الغرب. كان هناك توقف مرحلي للقتال في هذه الآونة، وشعر القبارديون بشيء من الانفراج. دام الأمر حتى ذلك اليوم في ربيع عام 1811 حين بدأت إصابات الحمى.

كان أبناء أحمد في عشرينات أعمارهم، وقد أصبح جعفر ابن مراد ليصبح رجلاً متزوجاً لديه مسؤولياته الخاصة به.

***

أول من وقع ضحية للمرض هو كازبك.

كان يقوم بمساعدة أحمد وأنور في الإسطبلات أحد الأيام حين أحسّ بدوخة واضطر إلى الجلوس على بالة من التبن.

سأله أبوه بضيق "ما هي مشكلتك؟" فقد كان هناك الكثير مما ينبغي عمله، لأن الشتاء المنصرم كان قاسياً بشكل استثنائي: مما أوصل مخزوناتهم من الأعلاف إلى حد قريب من النفاذ.

"أشعر أنني لست بحالة جيدة".

لم يكن من شيم كازبك أن يتمارض: نظر إليه أحمد بحدة. "دعني ألقي عليك نظرة". مسح حبات العرق عن جبينه بظاهر ذراعه، ثم تحسس خدي الشاب. كان كازبك متعرقاً محمر الوجه من العمل، لكن كانت هناك ارتعاشة دبقة!

"الأفضل أن آخذك إلى فراشك في البيت. بإمكان أمك أن تحضر لك دواءً ما".

امتطى أحمد فرسه، واتكأ كازبك على ظهره. ركب الطريق إلى بيته ببطء وقد تملكه إحساس رهيب بالرعب. قبل بضعة شهور، حضر رجل تاجر خيول لمعاينة أمهار أحمد ذات أعمار السنة. هو إيميريتي يعمل بين قرى حوض التيريك وأهله يسكنون أعالي الجبال إلى الغرب من بلاد الشيشان. ظهر أنه زار كيزليار قبل بضعة أسابيع لشراء الذرة. ما كان يحب الذهاب إلى هناك، لكن جميع قرى الجبال تعاني من نقص في مخزون الذرة وليس لديهم أي فائض يستغنون عنه.

أخبر أحمد بالأحوال السائدة. ازدهرت البلدة الحصن التي تم زيادة تحصيناتها بعد هجمات الشيخ منصور، وتزايدت أعداد السكان فيها بشكل ملحوظ. فقد قرر الجنرال الروسي في تسعينات القرن الثامن عشر أن يجري ترفيع جميع الحصون على خطر الجبهة إلى مستوى البلدات، ومن بينها كيزليار، موزدوك وايكاتيرينوجراد. تم استحضار المستوطنين القوزاق إلى المنطقة بأعداد أكبر: سرعان ما ظهرت الفنادق - المؤسسات التجارية، البقالات والخدمات الأخرى داخل جدران البلدة. أصبحت هذه المعاقل القوزاقية بحلول القرن التاسع عشر أكثر مدنية وازدهرت اقتصادياً، بحيث أشعره السكان الأصليين أن الروس ليسوا زائرين ولا حتى قوة احتلال، بل هم أحد مظاهر القفقاس الدائمة.

استطرد الأيميريتي بقوله "قررت، من باب الفضول المهني، أن ألقي نظرة على أحد مزادات الخيول، ولكن بينما أنا أعبر الميدان الرئيس، شاهدت أمراً خاطئاً جداً، فقد كان الحراس الخافرين يقومون بطرد رجل تبدو عليه علائم المرض عند مدخل الحامية. كان الجندي القوزاقي يدفع الفلاح بعقب بندقيته. كان الرجل يحمل كيساً من البصل، فتبعثر البصل على التراب. لم تكن حبات البصل مثيرة للشهية، فقد رأيت ذلك - ربما هي من بواقي مخزون الرجل الشتوية - لكن ذلك ليس سبباً لضرب الرجل!".

وافقه أحمد الرأي، مع أنه لم يكن سلوكاً غير عادي لجندي تابع لخط الجبهة حسب رأيه. لكن كان لدى التاجر المزيد ليقوله.

"وقع يتخبط في التراب لجمع البصلات، لكنه كان أضعف من أن يحسن العمل. الأمر الذي استغربته هو أن أحداً لم يقترب منه لمساعدته".

فوجئ أحمد "ماذا تعني؟ هل كان الناس خائفين؟"

"أقول لك، أن الأمر جعلني أشعر بعصبية. كل أولئك الناس الذين يتحركون جيئة وذهاباً حوله، وهذا الشيطان التعيس يبكي

بمرارة ويتخبط في التراب بحثاً عن بصلاته. ثم رأيت يديه وذراعيه، وعرفت السبب" توقف الإيميريتي عن الحديث ليزيد الإثارة الدرامية.

طرح أحمد السؤال من باب الأدب أكثر من أية رغبة حقيقية في القيل والقال "ماذا كانت مشكلته؟"

"إنه مرض! لقد كانت لديه تلك البثور السوداء الرهيبة على ذراعيه – وكان فمه ممتلئاً بالدم الجاف. منظر رهيب، ثم سمعت الناس يغمغمون وانتابني الخوف. تقول الإشاعة أن هناك الكثير من الناس مصابين بهذا البلاء. وهو ينتشر امتداداً من استراخان إلى الحاميات الموجودة على خط الجبهة. لا قدر الله أن ينتشر أبعد من ذلك – لا يهمني كم من القوزاق يموتون من جرائه، ولا يهمني مطلقاً لو تحولت كيزليار إلى مستودع لحفظ الجثث لكنني حتماً آمل أن يبقى البلاء على الجهة الأخرى من النهر!".

أمسك بذراع أحمد بقوة، ووجد أحمد نفسه برغم كل أخلاقه الحميدة الطبيعية، ينفر من اللمسة مبتعداً – فقد كان خوفه من المرض القابل للانتشار كبيراً جداً. طاعون. لقد سمع أثناء طفولته في الكوبان، الناس يتحدثون عن مرض ينتشر مثل النار في الهشيم ويقضي على قرى بكاملها في المناطق القريبة من المستنقعات التي ينشأ فيها ضباب التعفن.

"أنت بارع في تعاملك مع الحيوانات وتعرف الأعشاب والأدوية. فماذا تعتقد يا أحمد الكوباني؟ هل يمكنك أن تصف لي دواءً يمنع حصول المرض؟ إنني مضطر للاعتناء بتجارتي، ولا أستطيع أن أمتنع عن التنقل".

"انتبه إلى ما تأكله وتشربه، عندما تكون وسط حشد من الناس، استخدم قطعة قماش منقوعة في الخل واحتفظ بها قريبة من فمك. سوف تمنع الغبار من الدخول في خياشيمك – ومعه أي بلاء. هذا كل ما يمكنني أن أقترحه...".

"أشكرك، يا أحمد الكوباني، أنا ممتن لنصيحتك، وأصلي لأن يذهب كل هذا عنا سريعاً...".

افترقا عند ذلك الحد، لكن كلمات الإيميريتي استقرت في ذهن أحمد.

والآن، اليوم، بعد مضي بضعة أشهر، أحسَّ هو الآخر بخوف شديد وهو ينقل كازبك إلى أمه لتمريضه والعناية به.

لقد حققوا الاكتفاء الذاتي لسنوات عديدة: ربما مرت سنوات طويلة بدون أية مآسي. مؤخراً، حصل المزيد من الغارات على المناطق الروسية، فقد استغل الناس المواقف الأقل عدائية من جانب قيادة "الجاور" – ليس على الحصون نفسها، ولكن على الأمكنة الواقعة بينها، لإضعاف الروس بحركة كماشة بين المتطوعين من الشيشان والقباردي، بينما وافق الأوسيتيون أن يوقفوا تقدم الجنود الروس العائدين من جورجيا، كانت خطة جيدة: لم يكن هناك أي من معارك الالتحام الفورية الهائلة التي عرفها في عشرينات عمره. وأي وباء خطير سيؤثر سلباً على هذا الجهد المنسق.

ألقت الصراعات القديمة بظلالها على أحمد في هذه اللحظات. لقد عانوا بما فيه الكفاية حتماً..... لكن أحمد كان لديه من الفلسفة ما يكفي ليعرف أنه ليس مخولاً بالحكم على الحد. فكل رجل يعطى ما يجب عليه تحمله من أعباء. لا أكثر، ولا أقل.

وهكذا صار يتمتم أمنية في سره: "إذا كان الأمر سيسوء أكثر، فلأكن أنا الذي يتلقى المرض، وليس أولادي". كانت لديه رغبة أكثر سواداً بكثير ولا يستطيع الإفصاح عنها. لم يكن يستطيع أن يتجنب الأمل بأن الذين سيموتون بأعداد كبيرة هم الروس، وليس الأديغه: لقد كان الإيميريتي محقاً في نهاية المطاف، فالذين يصابون بالمرض هم الفلاحون الذين يحتكون بالروس. لم يكن هناك أي خبر عن أي بلاء عند سفوح التلال أو في الأودية.

لم يستطع أحمد أن يقرر، ما إذا كان يتوجب عليه أن يكلم أي أحد آخر عن هذه المحادثة. فقد كان لدى تسيما ما يكفيها من التعامل مع خدمها والعناية بحدائق خضارها لأجل التسويق، إلى جانب زوجها وأولادها. لقد عاد جميع أولادها إلى البيت – كلهم إلى جانبها، لأنه طالما أن كازبك لم يتزوج، فإن الأولاد الأصغر لا يمكنهم اختيار زوجات لهم. كانت تسيما تحب أولادها بشغف هائل، وما كان أحمد ليعمل أي شيء يزعج ذلك الفرح لديها. ربما يتوجب عليه أن يكلم مراد – لكنه أب هو الآخر، ولم يشأ أحمد أن يجلب المخاوف إليه بدون سبب يستحق ذلك.

أرقد كازبك في فراشه بمجهود كبير: فقد شعر أحمد، وهو في خمسينات عمره الآن بصرير مؤكد في ظهره أثنار عودته إلى وضعية الوقوف فوق شكل ابنه المرتعش المنبطح. آلمه أن يرى جسم ابنه القوي، المتناسق الجميل على هذه الدرجة من الوهن والسكون.

ذهب إلى جناح النساء "أعتقد أن كازبك مصاب بضربة شمس خفيفة" قال بغير اكتراث "إما أن يكون ذلك أو أنه أكثر من الأكل وقت الظهر. إنني أقول لهؤلاء الصغار أن عادتنا هي عدم الإكثار من الطعام. إنهم يتحولون إلى الترف، يا تسيما!" حاول أن يخفف من حالة كازبك، وقرص خد زوجته.

لم ينبس ببنت شَفة طوال عدة أيام، لكنه استمر في تفقد أوضاع كازبك ومراقبة أية مؤشرات زائدة. تدهورت حالة كازبك. انتفخت كتل من الورم بحجم البيض تحت إبطيه وأصيب بالهذيان: أوصله الألم المتواصل في ظهره وأطرافه إلى حافة الجنون. كان يعاني كلما دخل أي شخص إلى غرفته وأدخل معه الضوء، فقد كان تأثيره مثل طعن الخناجر في عينيه. عمل أحمد ما كان يعتقده الأفضل ضمن الظروف المتاحة: قام بثقب البثور ووضع عليها المراهم، ثم وضع الكاسات الساخنة على ظهر كازبك حتى يخفف من حرارة دمه. لكن الصبي استمر في الهذيان.

في البداية، تجمعت النسوة الخادمات مع تسيما حول سرير كازبك، وغنين وصفقن له بأيديهن لإبعاد الأرواح الشريرة عنه. لكن ضجيج أغنياتهن بدا وكأنه يغضب كازبك. فقد صار يمسك برأسه ويئن صوت عالٍ. أخرج أحمد الجميع خارج الغرفة. بكت تسيما لأن النساء القباردیات مؤمنات بحدة أن الأرواح الشريرة ستدخل الغرفة لو ترك كازبك لوحده.

اضطر أحمد إلى القول "هذا العمل يزيد حالته سوءاً. ربما يكون من الأفضل أن يترك في سلام حتى يسترد قواه". فقد كان يؤمن في سره أنه كلما قل عدد الناس الذين يقضون الوقت مع كازبك، كلما كان أفضل له، لكنه لم يشأ أن يثير الذعر. وربما لم يكن هناك موجب للقلق. فأن البقع السوداء لم تظهر، ولم يهاجم المرض أحداً آخر في القرية.

حضر مراد لتسقط الأخبار "ما السبب يا أحمد؟ هل هو شيء من الطعام تناوله كازبك؟"

تردد أحمد "هذا شيء لم أره من قبل. أقول لك يا مراد، إنني خائف".

ظهر الوجوم على مراد "إذن فقد أخبروك أنت أيضاً. عن كيزليار".

"هل أنت تعرف!"

"نعم. لقد ضرب المرض العديد من "ستانيتزات" القوزاق بقسوة. إن الوباء يتفشى منذ أشهر".

"ربما يكون الأمر انتقاماً. إنهم يقولون أن نيزكاً شوهد وهو يمر فوق نهر التيريك. إذا كنت تعطي هذه الأقاويل أية مصداقية...."

"لا أستطيع أن أجزم. لكن المرض لا يعرف الحلفاء من الأعداء، أو الأغنياء من الفقراء. يبدو أنه لا يهم إذا كان الرجل يتغذى جيداً أم صغيراً أو عنده لياقة عالية. هكذا قيل لي".

"ثرثرة، إشاعات، أراء! كل ما يمكننا عمله هو أن ننتظر ونرى".

فوجئ مراد "ألا تستطيع أن تفكر بأية علاجات؟"

"لا شيء مما أفعله يؤدي إلى أي فرق في حالة كازبك. إنه فعلاً خاضع لعلة تفوق معرفتي".

"سأعود راكباً للزيارة غداً".

هزَّ أحمد رأسه نفياً "أعتقد أن من الأفضل أن لا تحضر".

لم يقل مراد أي شيء، مقدراً أن صديقه يفكر في سلامته. عاد إلى بيته حزيناً لأنه لم يستطع أن يفعل أكثر من البقاء بعيداً.

بعد عشرة أيام، توقفت حالة كازبك عن التدهور فجأة، لكنه لم يتحسَّن أيضاً. ظل حائماً بين الحياة والموت طيلة ليلة كاملة. لم تكن تسيما بحاجة إلى أن يخبرها أحد بأن هذا كان وقت الأزمة التي يكسب فيها الجسم المعركة أو يخسرها. جلست مع ابنها طيلة الليل، لكن أحمد استسلم للنوم لأنه كان يبذل جهداً مضاعفاً في الحقول لعدم وجود كازبك إلى جانبه.

أيقظته تسيما عند الفجر. وقد انسدل شعرها الذي كان في الماضي ناعماً، حول وجهها الممتقع، ويلامس خد أحمد عندما قبلته. "إن كازبك مستقيظ!" همست في أذنه "لقد تعرف عليَّ – أعتقد أنه قد تجاوز الأسوأ!".

احتضنها أحمد وبلع ريقه بقوة حتى لا يستسلم للدموع. ثم اندفع إلى جانب سرير ابنه. كان كازبك شاحباً بقدر شحوب الفجر،

وواهناً، عليه سيماء رجل قطع رحلة طويلة ويعود إلى بيته بمنظور جديد.

قال أحمد وهو ممسكك بيده بقوة "لقد سببت لنا الرعب جميعاً".

قال كازبك وهو يرمش بعينيه "يا لها من أحلام" وكأن الأحلام ما زالت تضايق عينيه. "يا لها من رؤى مرعبة... مخلوقات وحشية تحوم فوق رأسي، تطير خلال شلالات من الدماء... أشياء مرعبة لا يصح التحدث فيها".

"إنها حمى في الدماغ. لقد زالت، فلا تفكر فيها ولا تهتم لها".

استخف أحمد بهذه الرؤى، لكنه سيتذكر في قادم الأيام أن كازبك قد تنبأ مسبقاً بما تحقق لاحقاً.

لم يقاطع عملهم أي عارض لمدة طويلة. استمر أحمد وولديه الآخرين في عملية الحصاد بلا انقطاع. بدأ كازبك يستعيد قوته تدريجياً ويساعد في أعمال الساحة الداخلية. ولكن فجأة، ضربتهم قوى الشر. بدأت الإشاعات تطن في القرية خلال أسبوع مثل الجنادب ذات الأجنحة. وقضت القصص على راحة البال بشراسة تعادل تجريد الجراد للشجرة من أوراقها.

فقد سمعوا أن العدوى بدأت تصيب القرى الأخرى. وبدأ الطاعون يهاجم الناس عشوائياً: الصغير والمسن، عائلات بكاملها أو مجرد فرد من الأسرة. أحياناً كان الناس يصابون بالمرض تدريجياً، بظهور التورمات المؤشرة على المرض في مناطق ما بين الفخذين أو تحت الإبط. أصيب هؤلاء الناس بالهذيان، وعانوا من أوجاع رهيبة في أبدانهم، وأحياناً تظهر لديهم البقع السوداء الرهيبة التي يخشاها كل الناس.... وكان الاعتقاد السائد أن من يلمس شخصاً لديه أحداها سينتقل المرض إليه بالتأكيد. لكن الوباء أعلن عن نفسه بأشكال أخرى تجلب العذاب: انتفخت حلوق بعض الناس بحيث ماتوا اختناقاً.

تحدثت بعض القصص الأخرى الأشد هولاً عن ضحايا لم تظهر عليهم أية علائم على الإطلاق، بل انهاروا وسقطوا ميتين أثناء سيرهم. في أي مكان: ماتت الأمهات وهن جالسات، وهن يرضعن أطفالهن، أو أثناء جلوسهن إلى جانب قريب مريض. سقط الرجال في الحقول، أو أثناء خروجهم إلى السوق لجلب الطعام. ومات البعض بالطريقة الأكثر رحمة، أثناء نومهم.

التقى مراد وهو يحمل بؤساً كبيراً بأحمد في الحقول:

"إن هذه الجائحة أشد هولاً شمولياً من أي غزو روسي. الناس يفقدون أية إرادة في البقاء على قيد الحياة".

وافقه أحمد "إنه يسبب الخوف والشك، إننس أسمع أن الناس في كيزليار ينهبون بيوت المتوفي. ولكنهم يموتون بدورهم بسبب ملامستهم البضائع المسروقة، لأنها تحمل الوباء".

"لقد أصدر الأمير أمراً بإبقاء أي غريب يحضر إلى القرية بعيداً على مسافة حتى يتم التأكد من أنه لم يجيء من مكان مصاب بالعدوى".

أومأ أحمد برأسه "ذلك قرار حكيم، لكنني خشى أن الأمر مجرد مسألة وقت. إن ابني عظمات يقوم بزيارة "للأتالق" العجوز الذي علمه. إنني لأعجب إن كان يتوجب علي أن آمره بالعودة إلى البيت...."

"إبعث بمرسال. فذلك أمر ينطوي على الحكمة. نحن محظوظون هنا: إن بيوتنا واسعة والمساحات بين الجيران كبيرة. إنني سعيد لمرة لأننا نعيش هنا قريباً من النهر، وليس في داخل القرية".

تصرف أحمد بموجب نصيحة صديقه، لكنه شاهد قرابة نهاية اليوم التالي فارسين يعدوان بسرعة باتجاه مستوطنته. استطاع أن يميز الشكل الأصغر حجماً، وهو يفتح الستائر التي تشكلها أغصان

الحور أثناء عدوه: إنه عظمات. فقد اعترض المرسال أثناء ذهابه، وأعاده إلى البيت.

قفز ابنه الثالث عن فرسه وهرول نحوه راكضاً: "أبتاه!" ارتعش أحمد على الرغم من إرادته. تكلم عظمات وقد دفن وجهه في كتف أبيه العريضة. "لقد أعادوني إلى البيت! إنهم مرضى – لقد كان الأمر مرعباً يا أبتِ! إن القرية خائفة. إنها حفرة مليئة بالجثث... آه، لا أستطيع أن أخبرك!".

احتضنه أحمد حتى أصبح أكثر هدوءاً. ليس من "أتالق" يفعل هذا، إلا إذا أحاق به خطر داهم. إن الضيف، التلميذ السابق، لا يمكن أن يرد إلى بيته، حتى في زمن الحرب. فهو سيقاتل إلى جانب وصيِّه ويتقبل المخاطر. لقد دمرت هذه الجائحة كل التقاليد.

ضم أحمد ابنه تحت ذراعه "بسرعة، ادخل إلى البيت. يجب أن لا يراك أو يتحدث إليك أحد هنا. يجب أن نكون حذرين".

أدرك عظمات الموقف بعمق "إنني سالم، يا أبتِ، لست مثل الآخرين..." خنق الدموع "إن نصف سكان قرية "الأتالق" الذي علمني مرضى ويموتون".

تكلم أحمد بغضب "يجب أن نحصل على مساعدة! لا بد وأن هناك شيء يمكننا أن نفعله!".

أدخل عظمات إلى البيت بسرعة ونادى على تسيما. احتضنت أصغر أولادها في عناق لم يمنعه حتى تهديد الموت. عندما سمعت قصته، فكرت بعناية "أعتقد أنه لا بأس عليك من البقاء مع كازبك، لأنكما اقتربتما من المرض ونجوتما منه. لكن أنور – ماذا سنفعل؟ لست أهتم لنفسي، لكن الخطر محيق بأنور.... يجب أن يغادر. قبل أن يصل المرض إلينا".

قال أحمد "المرض يأتي من الضفة الأخرى لنهر التيريك: يبدو أن الوضع أسوأ في المناطق المنخفضة، يجب أن يذهب أنور إلى

الجبال، إلى جده الملاّ، إنه يحب أقرباءه الشيشان. سيكون سعيداً هناك" وهكذا جاء قراره.

تم إبعاد أنور في وقت لاحق من تلك الليلة. لم يظهر أية عاطفة أثناء توديع عائلته لأن أمراً كهذا ليس من "الخابزه" عند الأديغه.

"أنتم ترسلونني إلى بلاد الشيشان لأنكم تريدون العناية بي. لا يفترض فيَّ أن أكون حزيناً، لكنني كذلك".

قبَّل أنور أمه وحيَّا أباه بإيمائة من رأسه، وهو يرفض أن يصدق أنها يمكن أن تكون المرة الأخيرة التي يشاهد فيها أبويه. كان صاحب الشعر الأكثر سواداً من الأولاد الثلاثة، متحفظاً وعميق التفكير، وهو الذي يحافظ على العلاقات الطيبة بين أخويه وباقي شباب قرية الحابسا. لم يستطع أحد أن يفكر بمقدار الفراغ الذي سيتركه.

ولكن، العديد من الناس سيتركون فراغاً.

حدث الأمر المحتوم أثناء غيابه. فقد استشرى المرض إلى قباردا الصغرى، وأخيراً وصل إلى قرى الحابسا. تنامت الإشاعات لتصبح أكثر مدعاة للرعب. حتى قيل أنه في إحدى المستوطنات لم يبق هناك شخص واحد قادر على دفن الموتى أو العناية بالمصابين بالهذيان. ظلت الجثث ملقاة بلا رعاية. في مكان آخر، أصيب السكان بمسٍّ من الجنون فتجاوزوا كل الحدود: ثملوا ومارسوا الدعارة، وتقاتلوا فيما بينهم حتى ارتكبت جرائم قتل بحق الذين تجاوزهم المرض.

قام رجال الدين في بعض الأمكنة بإلقاء المواعظ القائلة بأن البلاء عقاب من الله تعالى وأن أولئك الذين يعاقبون أنفسهم ربما ينجون. حدثت حالات عربدة من جلد الذات في إحدى القرى، لكنها لم تتمكن من إيقاف تزايد عدد الضحايا. أصبح أمراً شائعاً أن ترى الناس يفقدون إدراكهم ويثرثرون بأصغر الخطايا إلى أي شخص

يرغب في الاستماع، على أمل تجنب الموت. ومع ذلك فقد كان الموت يجيئ في معظم الأحوال.

استنتج الناس مما كان يشاع ويسمع، أن "ستانيتزات" القوزاق والمقاطعات العسكرية الروسية ضربها البلاء بمثل حدة شعب القباردا. لم يكن لأحد يستطيع أن يتأكد، ولكن قيل أن ربع سكان القفقاس الأوسط قد أصيبوا.

ركب أحمد إلى القرية ليستطلع أحوال جيرانه. لم يكن البلاء قد أصاب مراد وأولاده حتى ذلك الحين، لكن كلاً من أمير الحابسا والوزير الأول تميرقان كانا مريضين بالحمى. أصيب بلقاري آخر في القرية بنوع أشد خطورة من ذلك البلاء وانطرح أرضاً وهو يعاني من الهذيان ومن احتقان في الصدر يتزايد بسرعة.

بينما كان أحمد يتفقد عدة عائلات ويقدم واجبات العزاء – شاهد غريباً يدخل الساحة راكباً: رجل طويل القامة وقد لف وجهه بقطعة سميكة من الكتان، بينما تغطي شكله العام بوركا سوداء هائلة الحجم. ظهر وكأنه شبح الموت.

سدد أحمد مسدساً باتجاه الرجل "توقف! لا تقترب! يوجد مرض هنا!"

جذب الرجل عنان فرسه ليواجه أحمد، ثم رفع يديه في وضعية دفاع عن النفس. وصرخ: "أنا رهينتك!" فقد كان ذلك هو الكونت باسل فاسيلييفيتش، يتكلم اللغة الشيشانية بطلاقة تامة.

صرخ فيه أحمد، ثم هجم عليه "ماذا تفعل هنا بحق الجحيم! ليس الأمر متعلقاً بأنور، آه يا إلهي، قل لي أن هذا البلاء اللعين لم يصل إلى بلاد الشيشان!".

قبض باسل بقوة على يد أحمد الممدودة باتجاهه "لا تجلب الحزن على نفسك. إن أنور بخير، الجبال خالية من المرض. لقد كنت أبحث عنك. لقد جئت لتقديم المساعدة".

حوّلت السنين باسل من سحلية صالونات منهكة الأعصاب إلى مخلوق آخر مختلف كلياً. فقد بدا أطول قامة، لأن جسمه أصبح أكثر نحولاً وصلابة: أصبح أكثر حيوية، لأن وجهه كان متنبها إن لم يكن قاسي التعابير.

لكن الصفة الغالبة التي ميزت تحوله أكثر من أية صفة أخرى كانت النار الداخلية: فهو يحب حياته في الجبال وليست لديه آية أحاسيس بالندم.

كان باسل أكبر سناً من أحمد بعدة سنوات لكن ملامحه الارستقراطية الروسية تحسنت بشكل ملحوظ نتيجة حياته الخشنة وبدا عليه أنه أصغر في السن. كانت عيناه تلتمعان واكتسبت بشرته الصافية تلويحاً صحياً. أعلن أحمد "أنت مجنون بقدومك إلى هنا!".

قال باسل بغير اكتراث "كلا على الإطلاق، لا بد وأن يكون العمل مثيراً للاهتمام".

ضحك أحمد، ورنت الضحكة في أذنيه، فقد مر وقت طويل لم يضحك فيه بصوت عالٍ "ويقولون إننا نحن القدريون!".

قال باسل "أستطيع أن أرى ذلك، لقد شاهدت قرى كاملة أثناء مروري، وقد أصبحت مراتع للأشباح. لا أحد يعمل في الحقول، الجثث ملقاة بغير اعتناء. الحيوانات تتجول شاردة".

"يعتقد كثير من الأديغه أن هذا من عمل الله. وأنه لا يمكن عمل أي شيء إلا قبول اللعنة".

قال باسل بعصبية "هذا هراء! إذا كانت لدينا أدمغة، يفترض فينا أن نستعملها! لقد قرأت عن الطاعون بالطبع. إن الإنسان يصادفه في كتب التاريخ، ولا مفر من ذلك، في الواقع هناك إحدى التفاصيل المثيرة التي تقفز إلى ذهني تتعلق بجيش من الكيبشاك، في القرن الرابع عشر، على ما أعتقد، أصاب موقعاً تجارياً جنوباً في شبه جزيرة القرم بالعدوى بأن قذف عليهم جثثاً لمصابين

بالطاعون إلى داخل البلدة بالمجانيق. ليس أمراً سيئاً، ألا تعتقد ذلك؟".

كان أحمد قد نسي مقدار سعة ثقافة باسل. بات الاستماع إلى رجل يتحدث بتلك السهولة عن الأحداث الماضية في حين أن الحاضر مثقل بالقسوة، والأزمة مستفحلة إلى هذه الدرجة. كل في قباردا الصغرى يعيش حياته من يوم إلى الآخر فقط. سأل أحمد متشككاً "هل تعني أن هنالك علاج شافي؟".

"لا، بكل أسف، لا أعتقد ذلك. لكن بإمكانك أن تفعل شيئاً لتعطي لنفسك الفرصة حتى تنجو من الوباء. ستفعل كل ما أقوله، أليس كذلك يا أحمد؟ – في نهاية الأمر، ماذا لديك لتخسره؟".

"لا شيء، تعال لتقابل تسيما".

"بكل سرور. إنني أحمل إليها هدايا من والدها الملاً".

في وقت لاحق من ذلك المساء، ذهب مراد إليهم راكباً وتناول الرجال الثلاثة الطعام سوية. جلست تسيما قريبة منهم، تصغي بتركيز. ظلت نظرات باسل تتحول إليها بين كل هنيهة وأخرى، وقد امتلأ وجهه بذلك الإعجاب المستمر بها. تأثرت تسيما من إمكانية وجود شخص مميز إلى تلك الدرجة يجدها جميلة حتى الآن وقد أصبحت سيدة مسنة. لم يزعجها أن تكن عاطفة ما لباسل، الروسي. لأن باسل شخص متفرد.

"عندما أخبرنا أنور بما يجري. قررت أنه يحب أن أحضر. لقد أسكنَّا أنور في مستوطنتك القديمة مع مؤونة جيدة من الطعام، وتركناه لشأنه لمدة أسبوعين، فلم تظهر عليه أية إمارة مرض. ولذلك فهو الآن يسكن مع أسرة الملا".

"على هذا الأساس، فإننا جميعاً بأمان هنا، إذن" قال أحمد "على الرغم من مرض كازبك، لم يصب أحد بالمرض منذ عدة أسابيع. لكن الأمير مريض".

"نعم، أنتم هنا في أمان لفترة قادمة. لكن ما ينبغي عليكم عمله هو. أن تغلقوا الأبواب على أنفسكم في بيوتكم. أدخلوا تموينا من الطعام. لا تسمحوا لأحد بزيارتكم –وأنا أعني لا أحد. يجب على خدمكم أن يطيعوا القواعد نفسها. لا فائدة ترجى من قيام العائلة بعزل نفسها إذا ظل الخدم يتمتعون بحرية الاختلاط بكل من يرغبون فيه".

"ولكن إذا مرض شخص أو احتاج إلى الرعاية؟".

"يجب عليكم أن تتحدثوا إلى أميركم وتحصلوا منه على إذن لإقامة مستوصف. يجب نقل كل الأشخاص الذين يشعرون بأقل قدر من المرض إليه. سوف أكون مسؤولاً عنه، وأي شخص يرغب في التطوع للمساعدة سيكون محل ترحيب. الأمر هو هكذا: لا أحد يعرف السبب، لكن بعض الناس يظلون أصحاء والآخرون يصابون بالطاعون. لكن عزل المرضى يبدو أمراً ينطوي على الحكمة. أعرف هذا القدر من تواريخ المرض المكتوبة في أوروبا"

سألت تسيما، وهي متشوقة لتفهم الأمر "ماذا فعل الأوروبيون؟".

"عندما يصاب شخص ما بالمرض، فإن العائلة بأسرها يقفل الباب عليها. ويوضع عند الباب حارس. كثيراً ما كان رب العائلة يقوم بقتل الحارس في الليل، فيهرب الناس غير المصابين ويتخلون عن أقاربهم المرضى، غير مدركين أنهم يحملون العدوى، وهكذا ينشرونها في طول البلاد وعرضها أثناء هروبهم".

أصيبت تسيما بصدمة "ما من أحد يفعل ذلك هنا".

هزّ باسل رأسه في أسىً إن الطاعون يشبه النار. الناس تتصرف حياله بطرق مختلفة. أنا أيضاً أعرف أنه وجد رجال ونساء مخلصون اعتنوا بالمرضى الذين كانوا يعانون لشهور، ولم يصبهم المرض ليوم واحد".

"إذن، أنت تعتقد أن الأفضل هو إبقاء الأصحاء والمرضى منفصلين منذ اللحظة الأولى" فهم مراد المنطق في هذا الإجراء.

"نعم، هذا كل ما أستطيع أن أقترحه لخفض نسبة انتقال المرض. سيظهر أن الطاعون يتخذ أشكالاً متعددة – إذا كانت لديك تورمات من الممكن تفجيرها، فهناك إمكانية للشفاء. إذا حصل للمريض أنواع من التعفن التي تسد رئتيه، فإن لديه العدوى التي تنتقل بسرعة إلى الآخرين. إذا أصابك الطاعون الذي ينتشر في الداخل ولا تنتج عنه كتل ورم أو إفرازات من الرئة، فليس لديك فرصة للنجاة بحياتك. لا أحد يعرف أنك مصاب – لكن هذا سريع جداً. ربما تموت خلال يوم واحد. حتى خلال ساعات قليلة".

ران على الجميع الصمت، وهم يعملون على هضم هذه المعلومات.

أغمضت تسيما عينيها في صلاة عرفان صامتة على أن إصابة كازبك كانت خفيفة إلى تلك الدرجة، وعلى أن أحمد قد طبق المعالجة الصحيحة بشكل غريزي.

سألته "لماذا لم ينتقل المرض إلى أحمد؟".

"لا أستطيع القول، ربما لأنه يعالج الحيوانات والناس، فهو محصن بطريقة تختلف عن غيره من الناس. آمل أن ينطبق نفس الكلام علي أنا" ابتسم بثقة "وإلا لما كنت جالساً هنا. إضافة إلى ذلك، أنا أريد أن أراقب. من المهم جداً أن أحتفظ بسجل يوميات عن الأحداث لمساعدة الآخرين...".

"أنت تعرف أنني أستعمل الخل لأغسل يديّ وذراعيّ" تدخل أحمد. "إنه يزيل رائحة الحيوانات، ولكن ربما توجد فيه خصائص أخرى. لقد استعملته أمي قبلي وعلمتني عدة معالجات عشبية".

"قد يساعد ذلك. إن للخل خاصية منشطة وقوية. هنالك أمر آخر". أصبح صوت باسل خفيفاً. انتبه الرجال بحدة

"يجب أن تؤسسوا نظاماً للحراسة لمنع ضحايا الطاعون من التجول إلى داخل القرية. كذلك لتفتيش كل عائلة والتأكد من قيامهم بتسليم مرضاهم".

قاطعه مراد "لن يكون ذلك ضرورياً. إن "الخابزه" عندنا تمنع أي شخص من عصيان كلمات الكبار، وأنا واثق من أنهم سيسمعون كلامك يا باسل. سآخذك لمقابلة والدي، الأمير".

"كلا، أنت تنسى. لا زيارات. فقد تعرض نفسك للخطر. سوف أعتني بأبيك، يجب نقله إلى مستوصف حالاً".

غطى مراد وجهه بيديه. فقد انجلى له التأثير الكلي لقرارات باسل. إن أمير الحابسا رجل ضعيف، في ثمانينات عمره. إن مقاومته متدنية لأي مرض كان. وإن فرصه في الحياة قليلة.

استطرد باسل ببرود أعصاب "يجب أن يكون الحراس متطوعين جديرين بالثقة، إذا عرضوا المساعدة فسوف يترتب عليهم أن يعيشوا منعزلين عن عائلاتهم إلى أن ينقضي وقت الخطر. ويجب عليهم أن يساعدوا أولاً في حفر حفرة. كم هو عددكم في هذه القرية؟".

أجابه مراد بطريقة آلية "حوالي أربعمئة".

يجب إذن أن تكون الحفرة كبيرة بما يكفي لتتسع لثمانين جثة".

تبادل أحمد ومراد نظرة سريعة "حسناً"

قال مراد "أنا أتطوع".

قال أحمد "وأنا كذلك" لكن كلماته غرقت في الصرخة الهائلة التي صدرت عن تسيما "أوه، لا!، لا!" فقد بدا لها وكأن أحمد يوقع على صك يتنازل بموجبه عن حياته إلى موت محقق. لقد راقبته وهو يخرج راكباً إلى الحرب مرات عديدة، لكن هذه التضحية جاءت من طراز مختلف.

احتضنها أحمد بين ذراعيه "أشش! يا زوجتي! اتركينا الآن، اذهبي وتكلمي مع مدينا للمرة الأخيرة وأخبريها بما يتوجب علينا عمله. بهذه الطريقة سينجو واحد منا على الأقل. هيا اذهبي!".

أمسك باسل بيديها بين يديه "لا تذهبي إلى مدينا. بل اذهبي إلى فراشك. لا أستطيع أن أجزم كم سيستمر هذا الوضع" قال لها بمنتهى الصدق. "لقد استغرقت أنواع الطاعون عدة شهور -ستة، سبعة، ثمانية حتى ينتهي أجلها. لقد سحرني هذا الموضوع طيلة عمري، حتى وأنا صبي، كنت أقرأ كل ما يمكنني قراءته عنه. أنا أؤمن أن ما أقوله لك هو أفضل أمل لنجاة عائلتك، يا سيدتي العزيزة".

هدأت تسيما قليلاً "إذا كان أحمد يرغب في مساعدة القرية، كذلك أرغب أنا. هل تذكر كيف خدمت المرضى معك مرة في الماضي، يا "تاديوش البولندي"؟ لقد أنقذت حياة العديد من شعبي الشيشاني. لقد رزقت بعدة أطفال: سأفعل أي شيء لرؤيتهم ينجون من هذا الوباء. سوف أساعدك في التمريض، عندما يحين الوقت".

أعجب الرجال الثلاثة بعرض تسيما. لقد كان لها قلب المقاتل وروح المرأة الجبلية: أفضل ما لدى أبيها وأخيها مضافاً إلى الصفات الأنثوية من الذكاء الإيحائي والاهتمام. قد يضحي الرجال بأنفسهم في المعركة، لكن النساء كن يضحين بحياتهن بطرق أخرى.

حيّتهم تسيما تحية المساء، وافترق الرجال الثلاثة بعد أن بحثوا الترتيبات بتفصيل دقيق، وهم في حالة نفسية سيئة.

اجتاح الطاعون قباردا الصغرى وقضى على عدد من الأنفس أكثر مما فعل أي جيش غازي. كان مميتاً أكثر من فظائع الجحافل الذهبية، وهم التتار الذين اجتاحوا الهضاب قادمين من آسيا في القرن الثالث عشر الميلادي، أو حتى العدو الحالي، جيش الإمبراطورية الروسية العظيمة. أبيدت قرى بكاملها، ونجت قرى

أخرى بشكل شبه كامل. دفن الآلاف من الضحايا من القوزاق، الشراكسة وحتى الروس في قبور من الحفر الجماعية.

على مدى شهور عديدة، قام باسل وجيشه من المتطوعين بتلبية احتياجات شعب الحابسا. في أحد الأيام الحزينة، قام بدفن الأمير العجوز. والد مراد. برغم اعتراضات مراد، كانت الجنازة فاترة: لم يحضر أحد من رجال الدين للصلاة، ولم يحضر أي أمير أو نبيل لتقديم واجبات التعزية. رحل الرجل العظيم ببساطة، مثل أي رجل من العامة، وأصبح ابنه الأكبر، عمر، أميراً بدون احتفال.

قال أحمد مواسياً مراد "هو على الأقل قام بمصالحة عائلته، وعرف أحفاده. سوف يستمر نسله".

"يجب أن نصلي حتى يستمر". أجابه مراد بنبرة قبول، ثم كرَّس نفسه لخدمة المرضى بطاقة متجددة. فذلك كل ما يمكنه عمله حتى يخفف من حزنه.

احتفظ باسل ببرميل من الخل في خيمة المستوصف، حيث تم عزل المرضى. كان يغسل يديه وذراعيه بانتظام، ويستخدمه في تبريد الأجسام المحمومة. كان في الليل ينام تحت الشادر مع مراد وأحمد. بقيت تسيما والأولاد مقفلاً عليهم مع الخدم، الذين كانوا يخرجون فقط للإشراف على حيواناتهم ولا يغادرون ساحتهم على الإطلاق.

أصبح الجو في القرية غريباً: ففي بعض الأحيان كانت الحركة تنعدم بحيث تبدو الظهيرة صامتة مثل منتصف الليل.

قال أحمد، وهو يحضر ضحية أخرى فوق حمالة مصنوعة على عجل "عدني بشيء واحد يا باسل، عدني بأن لا تسمح لتسيما بأن تساعدك. سأعمل ليلاً ونهاراً تحت أمرك، ولكن يجب أن لا يسمح لها بأن تقوم بهذه المخاطرة".

تجنب باسل عيني أحمد "لنأمل أن لا يكون ذلك الأمر ضرورياً. ما زلت أستطيع أن أتدبر أمري لفترة قادمة".

بات أحمد يتساءل إن كان مخزون الأغذية سيكفي. كان القرويون يعيشون على الخبز اليابس، الخضار المخللة من مخازنهم، وانطلق المرض فيها بلا ضوابط. استنبط القبارديون كلمة خاصة لتوصيف الطاعون. فقد انضمت كلمة "يامينا" وحليب البقر. كان وضع العائلات التي تمتلك الماعز أفضل من الآخرين الذين لا يمتلكونها- لم يأخذ أحد طعاماً ما من أسرة أخرى، خوفاً من أن يكون ملوثاً.

انتشرت أخبار أساليب باسل: كان يجري إعادة القبارديين الذين يحضرون للزيارة من حيث أتوا، فيعودون إما متشككين أو متأثرين إيجاباً. قامت بعض المستوطنات بإتباع أسلوبه بنجاح مماثل أو بدرجة أقل: في بعض الحالات كان الطاعون قد استفحل بشدة وتمركز، ولم يعد هناك كثير أمل في إيقاف انتشاره. في بعض الأماكن كانت البيوت متقاربة من بعضها البعض بشكل إنها لم تمنع الاتصال إلى كلمة "لعنة" في مفردات الأديغه. وأصبحت الشتيمة الأشد "فلتأخذك اليامينا".

بذل باسل أقصى جهوده لتدوين مشاهداته. مما أثبت نظرياته وطابقها: وحدهم الذين يعانون من حالة الأورام هم الذين يشفون. أما الأشكال الأخرى من الطاعون فهي قاتلة. مرت شهور عديدة قبل أن يبدأ عدد الذين يموتون بالتناقص. بعد خمسة شهور، انخفضت أعداد المرضى الجدد من عشرة في اليوم إلى ثلاثة أو أربعة في الأسبوع.

نجت عائلة أحمد، وكذلك عائلة مراد. أخيراً حل اليوم الذي لم تحدث فيه أية وفيات جديدة.

قال باسل "أعتقد أن الطاعون قد استكمل مسيرته، فقد انقضت ثلاثة أسابيع نظيفة"

قال أحمد بحزن "إن تقدير الكبار هو أن نصف شعبنا القباردي قد قضى نحبه في هذه "اليامينا"".

أعتقد باسل أن الرقم ربما يكون متفائلاً. فقد قرأ في بعض كتب تاريخ الطب عن الطاعون حيث توفي ثلثا مجتمعات كاملة بسببه.

احتوت الحفرة الواقعة خلف القرية رفات اثنين وأربعين شخصاً. كانت تلك معجزة بالمقارنة مع باقي أنحاء قباردا الصغرى.

بعد إحراق خيمة المستوصف وكل الفراش الموجود فيه، جلس باسل يدخن تشيبوكاً عند ضفة النهر. كان الوقت خريفاً، أجمل الفصول في إقليم التيريك. وقد استطالت نباتات جريس كانتربري حتى وصلت إلى الخصر: والسوسن مثل الرماح، وشقائق النعمان كأنها أعلام مضمخة بالدماء. والأرض ساكنة كأنها رجع الصدى. فإن ذلك القدر من العنف والحزن يترك علاماته الفارقة على المناظر الطبيعية. كان باستطاعته أن يشاهد، عبر نهر التيريك وخلال سديم حرارة ما بعد الظهيرة، خطوط نقاط استطلاع القوزاق وصفاً منتظماً من تشكيل من الخيّالة الروس متجهين نحو مناورة في مكان ما. لا بد وأن الطاعون كان جهنمياً داخل المجال المحصور في المهاجع النتنة الرائحة. على الأقل فإن الهواء في بلاد القباردا لطيف.

لكن باسل كان يحب فكرة الله فقط عندما يكون في الجبال. أما تحت هنا، فإن التواصل مع البشر يبدو وكأنه يشبه السماء بما يكفي.....

لقد جعله الاقتراب من بني جنسه يشعر بالحنين إلى الوطن.

إضافة إلى ذلك، فقد عاد أحمد إلى بيته في الليلة الماضية ونام هو وتسيما سوية بسلام للمرة الأولى منذ شهور. شعر باسل بأنه عجوز، منهك، وشديد الوحدة. لقد حان وقت العودة إلى الوطن، البيت. لقد أعطى أفضل شيء في حياته لهؤلاء الناس، الشيشان والأديغه. لقد أدّى لنفسه خدمة، ودرس اللغة والطب بأكثر قدرٍ من الفائدة. ومع أن روحه "الدوشا" كانت عامرة، إلاّ أن قلبه قد بدأ يشعر بالفراغ.

الفصل الثاني

1812

وصل جوليوس فون كلابروث إلى قصر فاسيلييفيتش في سانت بطرسبرج في موعد دقيق، الساعة السادسة مساءً. لاحظ أن الوضع في هذه المدينة متعب، إذ لم يفتح الباب خادم عند سماع وقع خطاه: ومع أن الوقت لا يزال في شهر أيار، إلا أن الحرارة أصبحت خانقة بشكل غير اعتيادي وصار الخدم في كل البيوت يتحركون ببطء. أضاف هذا الإزعاج الضرورة الملحة إلى رغبة فون كلابروث في مغادرة العاصمة مثل كل شخص آخر، ولكن خلافاً للآخرين، لأن يتجه إلى الجنوب.

حرّك فون كلابروث قبعته أمام وجهه مثل المروحة وقرع الجرس، مصغياً بنفاذ صبر إلى صداه الرنان داخل ممر رخامي طويل. عبث بياقة قميصه العالية، وهو يعجب مما إذا كان سماحه لسائق سيارة الأجرة بالانصراف حكيماً. بدأت حبيبات العرق تتشكل تحت شعره المتساقط بحيث ألهته عن وضعه. قرع كلابروث الجرس مرة ثانية وهو يمسد حاجبيه ويحاول أن لا يستسلم للمزاج السيء. لقد كان مجرد إزعاج نفسه بالقدوم أمراً يدعو إلى العجب.

لقد حصل على كفايته من خبراء القفقاس القدامى الذين ظلوا يصلحون له معلوماته حول الحياة في الجبال وهذه حتماً هي زيارته الأخيرة – وحده التأدب أجبره على الحضور.

يمتلك العميد الجنرال كوماروف علاقات جيدة في البلاط، وهو صاحب حظوة بسبب ميول القيصر الكسندر التوسعية، ومن غير المناسب لفون كلابروث أن يستهل مهمته بالتسبب في أية إساءة.

إن فون كلابروث مثابر في عمله بما يكفي لأن لا يترك حجراً إلا ويقلبه، حتى ولو كان هذا النشاط الاجتماعي أحد مظاهره الأكثر إزعاجاً له.

إن القيصر الكسندر إمبراطور مغامر، خلافاً لسلفه بول، الذي كان جباناً يعاني من العصاب وأقبح رجل في روسيا، عامل جنوده كأنهم دمى من الرصاص وأعادهم إلى ارتداء شعرهم على شكل ذنبي خنزير، والطماقات فوق أحذيتهم، والطواقي الثلاثية الزوايا إضافة إلى أشرطة الزينة والتخريم. لقد تخلى بول عن جميع المكاسب التي حققتها أمه كاترين في الجنوب وقضى أغلبية زمن حكمه القصير مختبئاً في قصر ميخائيلوفسكي وهو يعجب، محقاً، كم سيطول حكمه.

لقد سمع كلابروث ما يروى عن احتمال قيام انقلاب في القصر بقيادة، رئيس الوزراء الكونت باهلين الذي نظم عملية اغتياله في غرفة نومه الخاصة. ظهر القيصر الكسندر كمنقذ بالمقارنة مع أخيه وكان محبوباً من قبل الشعب والجيش على حد سواء. فقد كانت انتصاراته على الطاغية نابليون بداية مجيدة لحكمه. خلق لنفسه شعبية بإعادة الاعتبار إلى جميع رجالات كاترين – بما فيهم بطل اوسترليتز العظيم، العقيد الكيسي بيتروفيتش ييرمولوف.

لقد كان الفضل بعود جزئياً إلى ييرمولوف، في أنه، جوليوس فون كلابروث، قد حصل في هذا الوقت على التكليف الملكي بإجراء البحث في شعوب القفقاس. كان ييرمولوف يحب الألمان وكثيراً ما صرح علناً بأنه يأسف لكونه لم يولد ألمانياً. حارب مع النمساويين ضد الفرنسيين وقابل عدداً من حلفائهم ذوي المناصب الرفيعة، مما غذى إعجابه بالعرق التيوتوني. لقد تمنى كلابروث بدوره منذ زمن طويل أن يزور روسيا، وتمكن من أن يرتب لنفسه دعوة إلى حفل استقبال يعقد على شرف ييرمولوف في برلين حتى يروج لخطته. ليس هناك أية منفعة يمكن أن ترجى من أية دراسات

إذا لم تزين بختم موافقه القيصر الكسندر: كان يشاع عن سمعته بحمل أفكار ليبرالية وأنه منفتح الذهن على السياسات الجديدة.

بدا إصطياد أحد ضباط القيصر المفضلين كطريقة حسنة مثل أية طريقة غيرها في البحث عن الرعاية الملكية. لقد أخضعت المنطقة التي كان يرغب في زيارتها أكثر من غيرها إلى حملات عسكرية متواصلة، لذلك كان هذا أسلوباً منطقياً.

استطاع ييرمولوف وفون كلابروث، وهما في سن متقاربة، أن يتعرف كل منهما على صفات الآخر، وأهم ما فيها لدى كليهما الطموح. طبعاً من الناحية البدنية، ما كان لهما أن يختلفا أكثر من ذلك. فقد كان ييرمولوف عملاق الجسم، فوقه رأس كرأس الأسد، إضافة إلى صوت جهوري رنان، لكنه كان شديد الدهاء وأدرك أن فون كلابروث بدوره بعيد كل البعد عن الغباء. هو طويل القامة، نحيف الجسم، يحمل ندوباً عجيبة على خديه من الصراعات أيام الجامعة، كان هذا البروفيسور يحمل صوتاً جافاً مع ذلك المزيج الألماني الغريب من الموضوعية والالتزام العاطفي لأية غاية. في هذه الحالة، كانت الغاية زيارة القبائل المقاتلة في القفقاس، لدراسة آدابهم ولغاتهم. لقد استمر فون كلابروث في الثرثرة عن احتواء الجبال لعناصر من كل لغة متمدنة معروفة. يشاع أن المستحاثات الأثرية الموجودة هي عبارة عن أربعين، خمسين وربما أكثر من اللغات المنفصلة لثقافات بادت منذ زمن سحيق. لقد كانت فردوساً لغوياً.....

أثناء إصغائه، شكل ييرمولوف خطة حذرة. تبع ذلك العديد من الرسائل، وفي نهاية المطاف تمت دعوة فون كلابروث إلى البلاط الروسي للقيصر الكسندر الأول. كانت فكرة ييرمولوف التي تقضي بأن يقوم القيصر بإرسال خبير من طرفه إلى المنطقة، وليس الاكتفاء ببساطة بتلقي النصيحة من أكاديمية العلوم في سانت بطرسبرج أو الكلية الحربية – وهي الوزارة التي تحكم العسكر.

غني عن القول، أنه بمجرد أن أعطى فون كلابروث منحة مالية من القيصر، أصبح مديناً لبيرمولوف بحظه السعيد. وهكذا يقف فون كلابروث اليوم وهو يتعرف على هذه العتبة المسقوفة يحمل كتب تقديم بنفسه في جيبه، ويتمنى لو تنتهي كل المقدمات والأعمال التحضيرية. تأكد منذ قدومه إلى سانت بطرسبرج بأن بيرمولوف يحمل أفكاراً قوية حول الحملة العسكرية في الجنوب. في الواقع، فقد عرض عليه بيرمولوف مكافآت مجزية إذا عاد بمعلومات استخبارية يمكن أن تساعده في خططه الخاصة به.

كان بيرمولوف غاضباً لكون القيصر قد وقع اتفاقية مع تركيا، تنازل بموجبها تقريباً عن كل ما كان بوتمكين قد افتتحه للقيصرة كاترين في القفقاس، فقد كانت مجرد مسألة وقت قبل أن يبدأ بيرمولوف في الرغبة بالتوسع وتأمين حدود روسيا الجنوبية الكبرى مرة أخرى.

أن منصباً قيادياً في داخل الامبراطورية سيمنح بيرمولوف قوة حقيقية: لكنه يتعين عليه أن ينتصر على عصابة ارستقراطية في البلاط حتى يكسب قيادة القفقاس، ناهيك عن أن تكون لديه اليد الطليقة في شن حرب شاملة هناك. إذا نجح، فسوف تكون حملة صغيرة جميلة خاصة، خاتمة مناسبة لسيرته العسكرية، تبقيه منشغلاً بعد معاركه في أوروبا.

على أية حال، ففي هذا الوقت، فإن الجيش الروسي بأكمله مشغول طيلة الوقت في إيقاف تقدم الطاغية الفرنسي. إن هنا الصيف لعام 1812، وقت ملائم جداً لزيارة القفقاس حسب وجهة نظر فون كلابروث. لأن الأنشطة العسكرية هناك تكاد تغط في سبات عميق، فقد تم سحب الغالبية العظمى من الجند من المنطقة لتركيز جهودهم ضد فرنسا. وحده الجنرال صغير الشأن سيورط نفسه في القفقاس، بينما كل المجد الذي يمكن اكتسابه موجود في الغرب. يبدو أن القائد العام الحالي، رتيتشيف، كان متسامحاً وذا طبيعة إنسانية – بكلمات أخرى، ميئوس من أمره. حملته الحالية

متواضعة إلى درجة مزعجة، تتخللها أنشطة الثوار - لا يعني ذلك أن فون كلابروث خائف من الأخطار البدنية بأي شكل. ربما يحمل درجة الأستاذية في اللغات لكنه أيضاً ارستقراطي ألماني، مما يعني أنه كان يمكن أن يكون ضابطاً ممتازاً في الجيش لولا قصر نظره غير الطبيعي.

أخيراً انفتح الباب واستقبلته الأميرة صونيا نفسها بترحاب، وهي واقفة إلى جانب البواب وتبتسم ابتسامة عريضة. فوجئ بهذا التصرف الاجتماعي غير العادي.

"أهلاً بك، أيها الكونت فون كلابروث. لقد أردت أن أؤخرك قليلاً قبل أن تقابل الكونت والجنرال".

همست له وهي تأخذه من ذراعه بأسلوب مصادرة واضح "لقد سمعت أنك ذاهب إلى الكافكاز، وأنك جئت إلى هنا لتستمع إلى آرائنا".

غمغم فون كلابروث بدون فعالية بأنه لم يصبح باروناً إلا بعد وفاة والده: وقد ملأته فكرة الاستماع إلى أفكار امرأة بالرعب. فهو في نهاية المطاف عالم من أفضل جامعات وطنه، توبينجن وهايدلبرغ. لم تكن عقول النساء موضوعاً مطروحاً للبحث في كل السنوات الثلاثين من دراساته للغات، والعلوم السياسية والتنظيم الاجتماعي.

قال الأميرة صونيا وهي تقوده بمهارة إلى غرفة صغيرة في مقدمة البيت "لابد من تحذيرك، إذا تكلم ابن عمي الكونت فاسيليفيتش عن مرافقتك، بأنه يفترض فيك أن لا تشجعه بأي شكل من الأشكال".

كانت الأميرة أطول من فون كلابروث قامة بقليل خاصة وهي تنتعل حذاءها المخملي ذا الكعب العالي، ولكن حتى لو كانت أقصر منه بحوالي القدم، فإنه كان سيشعر بمحاولتها للسيطرة عليه. اكتفى

بأن رفع من قامته قليلاً وأصدر إشارة موافقة بجزء يسير من إيماءة، ولم يقل شيئاً.

انعدام الاستجابة هذا لم يعجب الأميرة، فأضافت بجزم قائلة "إنه ليس رجلاً صحيح الجسم، إنه ليس بوضع طبيعي منذ عودته وأنا متأكدة من أنك لن ترغب في طرح احتمالات، هي بصراحة، مغرية لكنها سيئة بالنسبة إليه".

"لقد فهمت أن زوجك، الجنرال، هو الذي سيستقبلني" قال فون كلابروث، عابساً وناظراً إلى ملاحظاته ومبدياً عدم اهتمام متعالياً "ألم يكن ضابطاً في منصب قيادي في المنطقة؟".

ابتسمت الأميرة صونيا "ذلك صحيح كلياً. لكن ابن عمي الكونت عاش بين الجبليين لسنوات عديدة وقد عاد إلينا قبل مجرد بضعة أشهر".

كان هذا أمراً يشكل أخباراً بالنسبة لكلابروث "حقاً؟ هل كان أسيراً؟ لقد كان محظوظاً إذ تمكن من الهروب"

"كلا، لقد اختار أن يعيش هناك. لقد قام بدراسة للجهتين القباردية والشيشانية وانسجم مع السكان المحليين وعقد معهم صداقات".

تجمّل فون كلابروث بالصبر عن تصويب "صاحبة السمو" لاستعمالها كلمة "لهجات" في مكان "اللغات". وهذا مؤشر على أن الكونت لم يتعمق في دراسته لأي من اللغتين الوطنيتين. فاللغتان القباردية والشيشانية ليست بينهما أية علاقة مطلقاً.

"سيكون من دواعي سروري أن أقابله وأؤكد لك، أن تمويلي محدود جداً ولذلك فإن أي توسيع لرفقتي سيكون مرفوضاً".

أدخلت الأميرة صوفيا جوليوس فون كلابروث إلى صالون قصر ابن عمها وهي تشعر بالانفراج، وإن لم تشعر بالإعجاب.

عرف فون كلابروث على الفور السبب في ابتسامتها المقتضبة. لا بد وأن الكونت باسل فاسيليفيتش كان رجلاً وسيماً فيما مضى. ما زال قوامه بحالة جيدة، فهو متناسق الجسم، غير منحني القامة كما يحل بالعديد من الرجال الأكبر سناً الذين لا يمتلكون خلفية عسكرية، مع أنه ناحل إلى درجة مفزعة. بشرته غير عادية: فهي محفرة بعمق من جراء النوبات المتعددة من الجدري والحمى، ومجعدة كأنها التفاح البري الحامض الطعم. عيناه تشعان من خلال هذا الوجه الذي لوحته عوامل الطقس حتى غيرت ملامحه بكثافة مذهلة. بدا الجنرال كوماروف إلى جانبه طيباً، أبيض الشعر بديناً بالمقارنة، مع أن المعلومات التي قدمت لكلابروث جعلته يقتنع بأنه كان قائد حملات صلب وقاسياً مع الرجال الذين قادهم في أوج حياته.

قال الكونت باسل بلهجة رسمية "أهلاً بك، أيها البارون فون كلابروث، تفضل بالجلوس".

كان اهتمام كوماروف أكثر دفئاً "إذن، أنت تغادر خلال بضعة أسابيع" صوته ما زال عميقاً وثابتاً.

سأل باسل بدون مقدمات "ما هي غايتك؟"

"لقد شرحت في رسالتي،..."

انحنى كوماروف إلى الأمام قائلاً "نحن نعرف ما تقوله رسالتك، أيها الرجل العزيز، إن ابن عمي يريد ببساطة أن يعرف ماذا يمكن أن تكون غايتك الحقيقية في الذهاب إلى ذلك الإقليم".

عرف كلابروث الغاية التي يلمحون إليها، ووقع في معضلة من نوع ما. فهو مضطر إلى تجميع معلومات استخبارية من نوع معين، وإلا فلن يسمح له بالدخول إلى مناطق أو الوصول إلى أناس ذوي أهمية حيوية بالنسبة له.

لم يكن مؤهلاً ولا علاقة له بمعارضة النوايا الروسية في الإقليم – فهو رجل أكاديمي. لكنه يعرف أن بيرمولوف سيكون

قادراً على استخدام المعلومات التي سيعود بها على وجه مفيد. وقد ورد اقتراح، في كتاب التكليف الصادر عن القيصر، بأنه ربما "يصادف" بمعنى أن يعثر على أمراء وزعماء محليين ويوصي بهم ممن يمكن لممثلي القيصر "التعامل" معهم في المستقبل.

اختار فون كلابروث كلماته بحذر "أرغب في دراسة لغات وعادات الإقليم. يبدو لي أن هناك قدر هائل من الضرر يتم التسبب به باسم "التقدم" من قبل أولئك الذين لا يفهمون عادات الناس الذين يرغبون في إيصالهم إلى المدنية".

سأل باسل "تمدينهم؟ هل تعني بذلك استعمارهم؟".

"سيدي، أنا رجل ألماني – أستاذ في اللغات، ولست عميلاً عسكرياً".

"إن المنطقة موبوءة بالأمراض. لا يحتاج الأمر إلا إلى رجل واحد يحمل مرضاً جديداً حتى يدمر منطقة بكاملها. لقد رأيت الأمر يحدث".

أصيب كلابروث بالحيرة من هذا الجواب. إذ لم تكن له علاقة باللغويات. "إذن أنت كنت هناك في العام الماضي؟ أثناء الوباء؟".

"نعم، لقد توفي ما نسبته عشرون بالمئة من سكان قباردا الصغرى. لكنني لا أتكلم بالتحديد – عندما أتكلم عن نشر الطاعون يا سيدي".

فضل فون كلابروث أن يدعي عدم الإدراك، وجلس يتفحص أطراف أصابعه، توتر الجو من جراء الشكوك غير المصرح بها.

تدخل كوماروف مرة أخرى "إن لدى ابن عمي اتصالات في الإقليم، وسيكون سعيداً جداً لأن يعطيك كتب توصية بشرط أن–" توقف. غير قادر، وأيضاً غير بارع في انتقاء الكلمات الملائمة، ثم زمجر "لعنة الله على الموضوع كله يا باسل، إلى أي جانب تقف أنت؟" بعد أن استدار بشكل مفاجئ من مواجهة الألماني إلى ابن

عمه "لقد فقدت كل فرصة في الترقية عندما ماتت القيصرة. كانت هنالك إمكانية صغيرة جداً في أن يعهد إليَّ بقيادة جديدة بمجرد أن يؤمن الكسندر الوصول إلى العرش، لكنك نسفت أية احتمالية لذلك بأحاديثك المناصرة للمحليين يا ابن العم العزيز!".

حان الآن دور الأميرة صونيا في المقاطعة، فقالت بهدوء "بإمكانك أن تدخن، يا بروفسور كلابروث، يجب أن تعذر زوجي. من الصعب جداً على جندي في مثل تميز زوجي عندما يغض النظر عنه بطريقة غير منصفة، بعد أن يصاب بجرح ما زال يسبب له الألم حتى الآن".

رفض كوماروف اعتذارها بقوله "مجرد سوء هضم، لا شيء أكثر من ذلك. إن الحرب في أوروبا يستعر اوارها يا كلابروث، برغم التزامات صاحب الجلالة الأمبراطورية في الجنوب. إن قصد القيصر الكسندر، وأنا اتفق معه، هو تأمين الحدود الجنوبية المحاذية لتركيا وإيران على المدى البعيد. أنت شجاع، إن لم تكن متهوراً، حتى تسافر في هذه الأوقات المضطربة".

أصبح بمقدور فون كلابروث أن يفهم بأن الكونت باسل فاسيليفيتش ما زال غير مقتنع بنزاهة كلابروث، لكنه لم يعرف إن كان الكونت يستحق الاسترضاء. فقال بطريقة مؤدبة "لقد قيل لي أنك عشت في القفقاس لبعض الوقت، فهل تعلمت أن تتكلم أياً من لغات الجبليين؟"

نظرت إليه عينا باسل الباردتان من فوق إلى تحت بأكثر طريقة كسولة ممكنة "التتارية، القباردية، الشيشانية، ومعرفة محدودة بالمفردات الأوسيثية، البلقارية والسوانتية. إنني أقوم بترميز معلوماتي.

عاد فون كلابروث إلى دراسة أنامله مرة أخرى، لكن إحراجه في هذه المرحلة كان حقيقياً. ماذا لو افترض أن عمله قد أستكمل؟

"لقد عشت في بلاد الشيشان قرابة عشرين عاماً كطبيب وصديق للشعب. وقد عشت في قباردا لبضعة أشهر بعد ذلك، قبل أن أعود إلى سانت بطرسبرج. سوف أنشر مذكراتي في يوم ما، ولكن لا تثريب عليك أيها "البروفسور العزيز" (بالفرنسية)، فأن المعرفة التي أمتلكها لن تستخدم في تسهيل أهداف صاحب الجلالة الإمبراطورية..." انحنى باسل إلى الأمام "انظر إلي، أنا أعتقد أن الحملة القفقاسية هي مثل القرح أو الورم الخبيث، إنها دفينة في جانب العقيدة السياسية لأمنا روسيا، وهي تتقرح. كل محاولة لاجتثاثها تؤدي إلى رد فعل أكثر قوة، إلى عودة لنمو الورم. تلك هي طريقة الطبيعة. إنه موقف ميئوس منه، لأن الورم يتغذى على الجسم نفسه. لا يستطيع أن يحيا بدونه. بدون التموين عن طريق الدم – ولكن، في نهاية الأمر، أنا رجل طب – وأجرؤ على القول أن مقارنتي تسبب لك القرف – بدلاً من أن تلقي الضوء على الموقف".

نهض كوماروف واقفاً وقدم سيجاراً لفون كلابروث. "يجب أن تعرف، أيها البارون، أن آراء باسل متطرفة وليس لها شعبية. أنا شخصياً أعتقد أنه يجب علينا أن نخضع الكافكاز. أنا لا أؤمن أنها مثل طائر القطرس، غير مفيدة – من الناحية العسكرية، فإن احتلال الإقليم أمر حيوي، لكنني لا أستطيع أن أفهم تماماً لماذا يثبت أنها عصية على الحل إلى هذه الدرجة. فالله يعلم، أنه وجد العدد الكافي من الجنرالات".

"ولكن لم يكن هناك أحد مثل "باتيوشكا". لفظ باسل الكلمة الدالة على "الأب الصغير" بسخرية.

"إن جنود بيرمولوف يعبدونه. وتلك هي مشكلة. إنه مدعوم بشكل واسع في موسكو، لكن الحرس القديم المحيط بالقيصر هنا في بطرسبرج أقل حماساً. هل يمكنك أن ترى أين سيكون موقعك، أيها البارون؟"

أومأ فون كلابروث برأسه بشيء من الأسف "أرى ذلك حقاً. ولكن –" كيف يمكنه أن يشرح بأن دوافعه نقية بالكامل؟ إنه فقط يسعى إلى استغلال المصالح السياسية لخدمة غاياته...

ضحك باسل "لكنك تريد أن تذهب بكل الأحوال. أنت مفتون! يا فون كلابروث، هذا مجرد طعم أولي. إن الجبليين أناس ذوي ثقافة بالغة التعقيد، إنه مجتمع مغلق – ليس من السهل اختراقه".

"ولكن لا بد أن لديك أصدقاء". على الرغم من كل كبريائه، فإن فون كلابروث كان أكاديمياً خالصاً إلى درجة أن يطلب. يتذلل، إذا دعت الحاجة، للحصول على بعض الاتصالات الجيدة.

نهض باسل واقفاً وتمشى في أنحاء الغرفة بتململ ظاهر. كل هذا الحديث عن القفقاس يجعله يفكر في الأيام الماضية المليئة بالحيوية: بعضها قاس، وبعضها الآخر رومانسي حالم. جلس إلى مكتب وبدأ يكتب في ذلك المكان وتلك اللحظة قائلاً "سأعطيك رسالة تقديم".

بدا كوماروف مسروراً. فقد جعلته بادرة باسل يشعر بطريقة غير مباشرة بالتواصل مع الجبال التي أحب.

"أقول لك أيها البارون. إنني أحسدك. إنها منطقة لا تشبه غيرها. مناظر مذهلة، رفقة رائعة، حياة بسيطة وغير مقيدة. إن الجبليين أناس شيطانيون، لكنني أيضاً معجب بهم. سأعطيك مثالاً...

بينما كوماروف يمج الأنفاس من سيجاره، شعر كلابروث بالذبول. فها هي ذكريات حصان حربي آخر. لقد سمع الكثير في الأسابيع القليلة الماضية.

"كنت على خط الجبهة عام أربعة وثمانين. في معسكر للقوزاق – كانت في الواقع مهمة سرية إلى حد ما – عندما هاجمنا هذا القطيع من الشيشان ونثر المكان إلى قطع. إن الضجة التي

يصدرونها تجمد الدم في العروق – مثل عواء الذئب. سرقوا كل الجياد، أصابوا أكثر من خمسين رجل وطعنوني في معدتي. لولا باسل لربما قضيت نحبي من الجرح. إنهم شجعان! إنهم مجانين! لقد كنا نفوقهم في العدد ثلاث مرات على الأقل – عشرين منهم لمئة من رجالنا! اللعنة، لن أنسى وجه ذلك الرجل الفظ. إنه أحد أكثر الرجال وسامة ممن وقعت عليهم عيناي على الإطلاق".

استمر ينفث دخانه بكثافة "وهذا هو المؤسف في الأمر".

قدم باسل وثيقة تحمل ختمه إلى فون كلابروث. "خذ هذه الوثيقة إلى أمير شعب الحابسا. سيتم استقبالك بشكل حسن".

قفز كوماروف واقفاً على رجليه "شمبانيا!" ما زال قوياً على الرغم من البطالة المفروضة عليه" نخب مغامرة ناجحة، أيها البارون".

انضمت الأميرة صونيا إلى الحلقة. "أرجو أن تقدم تحياتنا إلى الجنرال رتيتشيف. إنني أعرف زوجته حق المعرفة".

رفع باسل كأسه وقال بابتسامة ماكرة "لا تفكر في التفاوض حول أي شيء مع الحابسا، لن تحصل على أي تعاون مطلقاً إذا فعلت ذلك".

أحمر وجه كلابروث وقال متلعثماً "ما كنت لأحلم بذلك".

"سوف تحلم بأشياء عديدة في الكافكاز... إن نساء "الشركس" استثنائيات...." كانت نبرة صوت باسل إيحائية.

أضافت الأميرة صونيا ببرود "سوف يتوفر لك صيد رائع أيضاً... لقد استمتعت أنا بالصيد، إلى أن جرح الجنرال". أخرست هذه الملاحظة زوجها. لم يكن يجب أن يذكره أحد بمجده الغابر واختفاء آماله. هو يعيش الآن في قصر ابن عمه، وهو قريب فقير يمتلك تاريخاً جديراً بالاهتمام بدون أية فرصة للتميز مستقبلاً. كان وضعاً صعباً.

"ليلة سعيدة، أيها البروفسور. أتمنى لك رحلة موفقة." نهض الكونت واقفاً: فقد انتهت المقابلة.

قال باسل "يجب التعامل مع مسألة القفقاس بكل الحذر الممكن – إن الإقامة هناك ستغير حياتك، كما غيرت حياة كثيرين غيرك. والآن، إذا سمحتم لي..." أنزل كأس الشمبانيا من يده وانصرف إلى جناحه الخاص الذي يضم مكتبته المحبوبة.

شعر فون كلابروث بخيبة أمل لأن الكونت فاسيلييفيتش لم يقدم له نصيحة أو معلومات أكثر تفصيلاً... في الواقع شعر بالإهانة لأنه لم يؤخذ على محمل الجد.

أسرّت إليه الأميرة صونيا أثناء توديعها له قائلة "إنه يعمل على مجموعة من القصص الشيشانية، إنها مثيرة إلى درجة مخيفة. إنني أحاول أن أقنعه بأن يعمل على نشرها. بشكل خاص، طبعاً. لكنه يرفض رفضاً قاطعاً. على أية حال، أتوقع أن أتمكن من تغيير رأيه".

ابتسمت لفون كلابروث بأناقة، الذي لم يستطع بدوره أن ينطق بعبارة استئذان لائقة لشدة غضبه. لديه خبير منافس في القفقاس: سوف يضطر إلى الاعتماد على نفسه ويتأكد من أن يطبع تجاربه أولاً: رسمياً، من خلال أكاديمية الآداب والفنون، في سانت بطرسبرج. بعد أن يكون قد أنجز أعماله، لن يعير أحد الكونت فاسيلييفيتش أي اهتمام، لا أكاديمياً ولا سياسياً.

***

أخرج كازبك جواده من الحظيرة، وأضاف "البشه" العجوز، حَشِرْ، اللمسات الأخيرة من الزينة إلى لجامه، "إنه يبدو بحالة رائعة اليوم، يا كازبك" قال ذلك وهو يمرر يده فوق رقبة الحصان الفحل.

"حظاً طيباً"، صفع حَشِرْ الحصان على قفاه وانطلق كازبك يعدو مبتعداً للانضمام إلى الآخرين في الميدان. أرخى كازبك

العنان لجواده: فقد كان بحاجة إلى الإحماء قبيل المناسبة الكبيرة. ركض خبباً على ضفة النهر، وهو يستمتع بشم روائح النهار الصيفي الكامل الجميل. لقد وصلت عائلته في المقام الأول إلى قرية الحابسا عبر هذا الممر – وجاء الروسي العجوز باسل من هذا الممر أيضاً وساعد على إنقاذهم من الوباء. لقد شاهدت القرية تغييرات عظيمة منذ رحيله. فقد عمل الجميع بكد وجهد لإحداث الانتعاش من الكارثة: استمرت مزرعة أبيه لتربية الخيل في النمو بقوة، وأعطت حقولهم أول محاصيلها الوفيرة. توسعت القرية كثيراً: فقد انتقلت بعد الطاعون عدة عائلات من مجتمعات الحابسا الأخرى الأكثر تضرراً لتعيش تحت حماية أمير الحابسا الجديد، عمر، شقيق مراد الأكبر. إن المزيد من العائلات يعني المزيد من البيوت، والمزيد من فدادين الأرض المزروعة.

هذا هو الحشد الذي استطاع كازبك أن يشاهده على البعد فوق مروج نهر التيريك: الناس وقد ارتدوا أفخر الملابس في يوم الجمعة، ينتظرون بداية السباق العظيم. أضاف المجاورون والأقارب إلى العدد حتى أصبح عدة مئات. لقد كان أمراً جديراً بالاحتفال، وجود جمع من هذا الحجم يستطيع أن يتحرك بحرية بدون الخشية من العدوى. لقد مرت عليهم سنة كاملة منذ أن غادرهم الطاعون. إن أخطر منافس لكازبك في السباق لهذا اليوم هو جعفر ابن الأخ المفضل لدى الأمير. الذي يكبر كازبك بخمس سنوات، رجل وسيم في أوائل ثلاثينات عمره، إنه الخيال الوحيد بين الحابسا الذي يستطيع أن يقاربه في مهارات الفروسية. لكن لدى كازبك الجواد الأفضل من إسطبل أبيه.

غطى كازبك عينيه من وهج الشمس ورأى أن الأمير، ومراد، ووالده أحمد قد اتخذوا أماكنهم مع "الورق" القبارديين الآخرين فوق المنصة إلى جانب ضيف الشرف. رفرفت أعلام الزينة المثلثة عند طرف الظلة فوق رؤوسهم، وزهت الوسائد الحريرية بألوانها المتألقة تحت الشمس. لقد بذلت جميع الجهود لخلق مناسبة فخمة.

كان الفرسان الآخرون قد تجمعوا في الميدان أمام المنصة مباشرة وبدأوا يأخذون أماكنهم عند الخط الذي سيشكل بداية السباق ونهايته.

سيقطع المتسابقون دورة واحدة للميدان – قاطعين مسافة فيرستين ونصف – أي حوالي ثلاثة أميال وربع الميل.

عدا كازبك بجواده خبباً عبر الميدان وأحنى رأسه احتراماً للكبار. لاحظ أحمد برضى كيف يجلس كازبك بطريقة صحيحة، كما لاحظ درجة تجهيز حصانه المفضل: منظر رائع بالنسبة للزوار.

ألقى كازبك نظرة جانبية على الروس. جلس في وسط المجموعة ثلاثة رجال، أحدهم في زي باللونين الأزرق والأخضر، يُلتمع بالأنواط والأشرطة الذهبية المجدولة، والاثنين الآخرين يرتديان تلك القبعات العالية المضحكة والسراويل الضيقة التي يفضلها "الجاور".

بصق كازبك بغير اكتراث في العشب وهو يصفّ حصانه على خط البداية.

قال جعفر "صباح الخير يا كازبك، أرى أنك في مزاج طيب اليوم".

"وفر كلماتك، سوف أقوم بجلدك" قال كازبك بمرح. أشار برأسه قليلاً نحو الأجانب "هؤلاء هم الذي يسببون المرارة في فمي".

"أنا كذلك أيضاً" اتخذ اعتراض جعفر شكل شتيمة شركسية تخثر الدم في العروق، بحيث ضحك جميع الفرسان الشباب الأصغر سناً.

كره كازبك وجود "الجاور" ولم يفهم لماذا يضطر الكبار إلى اللجوء لهذه التصرفات المهينة للحفاظ على السلام.

"بالنسبة لسوالف الأجانب – وتلك السيقان النحيلة الرمادية: يا لهم من مسوخ".

وافقه جعفر "أمر غير لائق، سيقان بهذا الطول أيضاً".

قرر كازبك وجعفر. اللذين يعتبران نفسيهما عينتين مثاليتين عن الرجولة القباردية (وكل واحد يظن في قرارة نفسه أنه أكثر وسامة من الآخر) أن يقدموا للأجانب عرضاً في الفروسية لا ينسوه أبداً.

راقب أحمد ابنه وهو يدور بنفاذ صبر ويحاول أن يدخل مطيته في الصف مع الآخرين. عصبي: هو مؤشر جيد. إن لدى كازبك فرصة ممتازة اليوم ضد ميدان صعب.

كان الألماني يتحادث بود مع عمر، أمير الحابسا، والأمير سعيد برؤية شعبه مجتمعاً مع بعضه في سلام، وتمنى فقط لو أن أباه قد عاش ليشاهد هذه السعادة: شعبه بأمان.

سأل الأجنبي "ما هي أنواع الخيول الموجودة لدينا فوق الميدان اليوم؟ إنها تبدو لي أصغر حجماً وأخف عظاماً من الفئات الألمانية المألوفة بالنسبة إلي".

كانت معرفة فون كلابروث باللغة الروسية متوسطة. ولغة الأمير عمر الروسية جيدة، ولو أنها بلكنة واضحة: كانت سهولته في التحدث بتلك اللغة إرثاً من حياة باسل مع شعب الحابسا. تلك إحدى المفاجآت التي لم يحضر باسل فون كلابروث لها، وعرف أن إخفاءها كانت متعمداً.

"معظم الخيول التي لدينا هنا هي قباردية. هذه سلالتنا الخاصة في القباردي. يسميها الشراكسة "اديغاش" والتي تعني "حصان الشراكسة".

انتفض أنف الألماني: وهو كذلك كلما التقط حقيقة جديرة بالمعرفة. نظر أحمد إلى مراد. لم يكن أياً منهما سعيداً بحضور

الأجنبي بينهم، وقد أوضح خطاب باسل بجلاء تام أنه جاسوس لدى القيصر.

شاهد أمير الحابسا النظرة وعبس في وجه أخيه سراً. لقد تم اتخاذ القرار: الأفضل هو التصرف على أساس مضيف لفون كلابروث وعرض ما يريدونه أن يراه عليه، من أن يتركوه حتى يتجول بعيداً بنفسه.

بدأ السباق. تحول اهتمام أحمد بالكامل إلى مراقبة كازبك. اتخذ الفلو خطوة خاطئة من شدة انفعاله وانطلق في بداية سيئة.

ضحك مراد "إن جعفر بحاجة إلى هذه السانحة! أقول بصدق، أن ابنك يمتطي حيواناً ممتلئاً بالحيوية – انظر كيف ينطلق الآن!".

تأخر كازبك مسافة طويلة، لكنه بدأ يقترب من بقية الجياد في الميدان.

نهق الألماني، وهو غير منسجم ولا حتى من بعيد مع الإثارة القائمة " يا له من أمر مثير للاهتمام! هل القباردي فرع من الأنواع الروسية؟ أعني – ما هي سلالته...؟".

أجاب الأمير "كلا"، وقد استطاع أن يبقي على تأدبه بدون أن يحول عينيه عن السباق. رفع يده ليسكت فون كلابروث: فقد هتف الجمهور، لقد سقط فارس! أمسك مراد بذراع أحمد بقوة، لكنه لم يكن جعفر ولا كازبك، أسرع الصبي الذي وقع، كائناً من كان إلى العودة لامتطاء جواده وانطلق مطارداً الخيالة، رغم أنه أصبح عملياً خارج السباق.

ضحك أحمد في وجه مراد: "أنهما في وضعية رقبة إلى جانب رقبة!" فقد كان تنافس ولديهما مصدراً دائماً لمتعة الصديقين القديمين. هز مراد رأسه "ليست هناك إمكانية هذا اليوم"...

وفي هنيهة مدَّ فلو كازبك رأسه إلى الأمام وانطلق متقدماً، أول من يعبر الخط. انفجر الجمهور بالهتاف.

"آه" تنهد الأمير في اقتناع "سباق جيد". التفت نحو ضيفه مرة أخرى، وهو الدبلوماسي على الدوام "على أية حال، لدينا هنا شخص يعرف عن الجواد القباردي أكثر مني".

أشار إلى أحمد لينضم إلى المحادثة. ثم قال له بالشركسية "كن عاقلاً يا أحمد. أحسن ضيافته".

عرض أحمد "سأكون سعيداً بأن أريك مزرعتي".

"هائل، هائل!" أظهر كلابروث قدراً كبيراً من الاهتمام، لأنه أدرك أن الخيل مسألة مركزية في الثقافة الشركسية، وستكون هذه أفضل وسيلة لتمهيد الطريق أمامه... بحيث لا ينخدع أحد...

"إنني شديد الاهتمام بأن أعرف عن هذا القباردي، من أين تألف... سلالته.... ذلك النوع من المعلومات..."

صدق أحمد كلامه وانطلق في محاضرة طويلة بلغة روسية بطيئة ولكنها خالية من الأخطاء. أخفى مراد ابتسامته وذهب ليهنئ الخيالة.

"إن حصاننا هو "الأديغاش" وهو هجين قديم بين جياد المغول والجواد العربي. أعتقد أنه ربما يكون قد خالطته دماء أخرى في سلالته لكن هذين الخطين هما الأهم".

"آه، المهر المغولي... ذلك مثير للاهتمام" جاهد فون كلابروث حتى ينطق بالشيء الملائم فغامر بقوله: "لكنها أمهار صغيرة الحجم، أليست كذلك؟".

"نعم، هي صغيرة، على أية حال، فقد استخدم الجواد العربي على شكل تطعيم متكرر مع القباردي لإعطائه الجمال وقوة الرئتين، خاصة السلالة التي نسميها "الشولوخ". ما يبقى من المهر المغولي هو الأرداف وعظمة الأنف المقوسة. هذه هي خصائص السلالة الشائعة الأخرى التي نسميها "الألب". لقد أصبح جوادنا متميزاً بقدرته على تسلق الجبال وبأطرافه الصلبة".

كان فون كلابروث يكتب بسرعة في دفتر ملاحظاته بينما أضاء جبينه عند حد نمو الشعر من لسعة الشمس. زج العقيد الروسي المرافق له بكلمة اهتمام من طرفه: لقد خدم تحت قيادة الجنرال تستسيانوف في جورجيا أوائل القرن التاسع عشر وكان خبيراً في الجبال "إنني أتساءل كيف وصل الجواد ذو الدم العربي إلى هنا" سأل بلكنة ثقة في كلماته.

استطرد أحمد قائلاً "لا بد وأنه جاء من بلاد فارس، فقد سمعت ما قيل عن أن ملوك فارس، كانوا مغرمين على الدوام بالجواد العربي، وكانوا يربونه باستمرار. من الجائز بسهولة إنها جاءت من خلال الداغستان.... لقد كان لدي حصان من تلك الإسطبلات حتى وقت قريب. وقد استعملته للاستيلاد مع أفراس قباردية وكانت النتائج مجزية".

لم يستطع فون كلابروث بالطبع أن يدرك الإهانة المشفرة لهذه المحادثة. لقد تسببت الداغستان بمتاعب جمة لجيش الجنوب. فهي منطقة جبلية جرداء إلى الشرق من قباردا، وسكانها أكثر صعوبة في التفاهم من سكان سلسلة جبال القفقاس الرئيسة. كان العقيد الروسي يفكر في كلمات أحمد ويعجب إن كان يقصد بها أي شيء...

قرر الأمير أن الوقت قد حان لإيقاف أحمد قبل أن يتورط في الكلام. "أيها البروفيسور كلابروث – سوف ترى الآن مدى روعة خيولنا القباردية. إنهم على وشك البدء بالألعاب".

لكن أحمد كان مستمتعاً. في الوقت الذي كان فيه كازبك وجعفر وباقي الفرسان يغيرون على هذه الجهة وتلك وهم يؤدون حركات غاية في الإثارة لخطورتها – الركوب بدون سرج، التقاط الزهور الحريرية بأسنانهم أثناء ركوبهم بسرعة الطراد، تبديل الخيالة، إطلاق النار على الأهداف أثناء الإغارة بالسرعة القصوى- بينما كان شباب قباردا الصغرى يظهرون مهارات

تسبب الخزي لأية أكاديمية خيالة في سانت بطرسبرج، استمر أحمد في حواره المنفرد. أصبح العقيد الروسي في حالة توتر عصبي شديد، لكن لم يكن هناك أي كلام مكشوف يمكنه أن ينتقده.

استمر فون كلابروث في الثرثرة كأنه بريء "ماذا أيضاً بإمكانك أن تخبرني عن هذا الجواد؟ إنه يبدو ذكياً حتى يتعلم مثل هذه الحركات! كيف يختلف عن السلالات الأخرى؟".

اتقدت عينا أحمد "أستطيع من واقع خبرتي المحدودة أن أقول بأن ما يجعل الجواد القباردي مختلفاً هو أولاً وقبل كل شيء أنه حصان جبال. فهو لذلك واثق الخطوة. وكذلك لديه قوة احتمال ممتازة للعمل لمسافات طويلة. لقد ورث هذه الصفة عن الجواد العربي. إنه أكثر ذكاء من السلالات الروسية التي نعرفها. إنه سريع التعلم....".

أضاف الأمير: "نحن نقدر جوادنا بسبب إخلاصه. وهذا يجعله جواد حرب جيد".

"نعم، إن الجواد القباردي الأصيل قلما يتخلى عن سيده الجريح. لقد حمل الكثير منهم خيالتهم من المعركة إلى بيوتهم بهذه الطريقة، عدة مرات".

"أنتم الشراكسة تعلقون عليه قيمة عظيمة. فهل امتلاكه مكلف؟ أعني، للناس العاديين؟".

استمر فون كلابروث في تدوين الملاحظات. لكنه ابتدأ يدرك ما يدور.

حان الآن دور أمير الحابسا في تكريم أسلوب أحمد الهادئ في المقاومة، فقال بافتخار "كلا، على الإطلاق، إذ لا يخلو بيت "شركسي" من جواد. طبيعي، الممتازون منهم يتم تقييمهم عالياً كما يقدر الشخص السيف النادر الوجود!".

أغلق كلابروث دفتر ملاحظاته بطريقة مسموعة. "أنني أنتظر بشوق زيارة مزرعتك يا سيدي. أنني مهتم أشد الاهتمام بكل هذه المعلومات من أجل أكاديميتي في سانت بطرسبرج".

***

بعد بضعة أيام، تقابل أحمد ومراد لبحث جدول أعمال الأسبوع، كما فعلا بانتظام طيلة السنوات السبع والعشرين الماضية، منذ أن وصلا إلى قباردا الصغرى. كانت حقولهما تمتد جنباً إلى جنب حتى ضفاف نهر التيريك: كثيراً ما كان لديهما أمور البذار أو الحصاد أو بناء الأسيجة للبحث فيها، ولكن في هذه المرة، كانت هناك مسائل أكثر جدية تهيمن على عقلي كلا الرجلين.

وقف أنور وعظمات متأهبين خلف والدهما كما تقضي العادة: صب عظمات كأسين من "الباخسما"، وأحضر أحمد الجبنة والجوز للمازه. كان غياب كازبك ملحوظاً وكان هذا سبباً جزئياً لسرور أحمد بصحبة مراد. فقد كان بحاجة لوضع الخطط لأولاده.

كان أنور يجيد التعامل مع الخيول، وهو الأقرب إلى أمه: لذلك سيرث مزرعة تربية الخيول يوماً ما. لكن أنور بحاجة إلى زوجة حتى يؤسس أسرة. كان كازبك قد تجاوز السن الملائمة للزواج بسنوات كثيرة، وكما تقضي العادة، لا يستطيع أي من ولدي أحمد الأصغر أن يتزوج قبل أن يستقر كازبك.

لم تنل أي من بنات "الجلاخستني" إعجابه حتى الآن. لذلك بات أحمد يفكر في بحث موضوع مرشحات أخريات مع مراد. كانت بعض الزيجات القباردية مرتبة، لكن أحمد كان يؤمن بقوة في العادة التي تقضي بترك الشباب يختارون لأنفسهم كما فعل هو. على أية حال كانت هناك الرغبة الأبوية الطبيعية في رؤية حصول شراكة معقولة وقليل من "التدبير" لمناسبات اجتماعية حيث يمكن للشباب المناسبين أن يلتقوا ببعضهم البعض مما لا يضر على الإطلاق. إضافة إلى ذلك، كانت هناك قواعد غير محكية تتعلق

بالطبقة والسلم الاجتماعي يفترض في كل شخص أن يحترمها. عرف أنه يتصرف مثل امرأة عجوز، لكن أولاده كانوا أعزاء على قلبه، وازداد تعلقاً بهم بشكل خاص بعد نجاتهم من الوباء الذي قتل أجيالاً كاملة في عائلات أخرى.

بالنسبة لعظمات، أصغر أبنائه وفي بعض النواحي، الأعز إلى قلبه: فقد كان مستقبله هو الأصعب على التفكير.

سأل: "لماذا لم يرزق أحدنا بالبنات، يا مراد؟ كان ذلك سيكون ملائماً جداً".

ضحك مراد "أنت تعرف جيداً أنه بسبب قوة صداقتنا، فإن أية علاقة ابن – بنت بين أسرتينا كانت ستكون كارثية منذ البداية، إضافة إلى اعتبارها غير لائقة بين العائلات المرتبطة بأخوة الدم. تنطوي القواعد القديمة على الكثير من الحكمة. في الوضع الحالي، يتقاتل الأولاد طيلة الوقت". ألقى بنظرة باتجاه أنور وعظمات اللذين أحمر وجهيهما خجلاً من التفكير بالمبارزات الودية التي لا تنتهي مع جعفر وتيمور.

في هذه اللحظة بالذات، لم يكن جعفر يكلم أياً منهما لأن كازبك كان قد هزمه في سباقات الخيل.

وصل كازبك متأخراً وفي حالة زرية بعض الشيء. أبقى رأسه خفيضاً حتى يعتذر.

أغاظه مراد بالقول "تكلم عن الشيطان... لست مندهشاً لأنك بقيت بعيداً".

قال أحمد موجهاً نظرة خارقة إلى وجه ابنه البكر "لم أشاهدك منذ السباقات، أين كنت طيلة هذا الوقت؟"

قال كازبك بدون اكتراث "لقد كنت في الصيد".

عرف مراد ما الذي يدور، لكنه اتخذ موقف كازبك لمجرد الدعابة "حسناً! هل اصطدت شيئاً جيداً؟".

رفع كازبك من قامته "لقد جلبت إلى البيت وعلاً كبير الحجم. يجري سلخة الآن. ربما تطبخ لنا نساء البيت وجبة خاصة هذه الليلة!".

كان مراد وأحمد معجبين إلى درجة كبيرة. بطباع كازبك السيادية. لن تحتمل زوجتيهما الشيشانيتين مثل هذا التكبر. إن كازبك بحاجة ماسة إلى زوجة.

"لقد غبت مدة تكفي لإحضار عشرة وعول إلى البيت".

تجاهل كازبك هذه الملاحظة وغض طرفه باحترام. كاد أنور، وهو المستفيد الأول من زواج كازبك – بمعنى أن زواجه هو ربما يكون التالي – كاد أن يثرثر بالسر الذي يعرفه الجميع عدا أحمد. لكن نظرة شرسة من كازبك جعلته يعيد التفكير.

"عندما يبتعد الرجل عن بيته ليومين وليلتين، فإما أن يكون قد ضاع أو غائباً متعمداً. أيهما كانت الحالة بالنسبة لك؟" سأل احمد.

لم يحر كازبك جواباً، من باب الاحترام.

تدخل مراد "أعتقد أن كازبك لديه العديد من الأصدقاء في القباردا.... يحتمل أنه يذهب لزيارتهم. هل الأمر هكذا، يا كازبك؟".

مع هذا التشجيع، قدم كازبك تلميحاً "نعم، يا مراد، لدي أصدقاء. لقد كنت في تشيجيم".

يقع وادي تشيجيم في قباردا الكبرى، على بعد ركوب يوم كامل على الأقل، لكن أحمد بدا غير راضي. لقد كانت آماله عريضة في ابنه كازبك – زواج ملائم لنسل من "الوَرْق"، ابنة رجل نبيل، تلك كانت خطته. لقد عمل بجد طيلة حياته لتأسيس هذا

الفرع من عائلته في حوض التيريك، وأراد أن يرى أحفاده يكبرون قريباً من بيته، يولدون أصحاء من نسل صحيح ويترعرعون تحت رقابة نظره. لقد هدفت كل صراعاته إلى تحقيق هذا الحلم. لذلك لن يسمح لكازبك أن يتجول مبتعداً وقد غلبه الهوى إلى أحضان خادمة غير متميزة أو ما هو أسوأ، في قرية بعيدة ما.

استطاع مراد أن يقرأ كل هذه الأفكار في وجه أحمد الهادئ الرافض. غريب كيف رجع أحمد إلى عاداته القباردية: إنه يمكن أن يكون انتقادياً وغير متسامح، ووحده هو، مراد الذي عرف أعمال أحمد المندفعة المحمومة العاطفة في شبابه.

قال أحمد بسخرية "في هذه الحالة، فقد توقفت كثيراً في إيجاد الوقت الكافي للصيد، حتى ولو كان وعلاً واحداً فقط! لكن عندي مسائل أخرى أكثر أهمية للبحث في هذا الصباح، إذا أعرتموني انتباهكم".

عاد الجميع إلى الجدية والاحتشام.

"كما تعلمون، غادرت بيتي في الكوبان عندما كنت في قرابة سن عظمات. وهو ما زال يذكرني بأنه يتوجب علي إعادة التواصل وإشعار أعمامي بوجودنا".

فوجئ مراد. إذن، صديقه الصلب القديم يفكر فعلاً بالقضايا غير المنتهية!

استمر أحمد في الكلام "أريد من أحدكم أيها الشباب أن يقوم بالرحلة، ستكون سفرة طويلة وصعبة، وربما حتى تكون خطرة".

كان قلب أحمد يخفق بسرعة. عرف الجواب الذي يرغب فيه، لكنه أراد أن يتأكد.... "من منكم سأرسل ذلك هو ما أنا بحاجة إلى بحثه. من منكم قد يرغب في القيام بهذه الرحلة، ماذا ترى يا مراد؟".

عرف مراد مقدار تأثير هذا الكلام في أحمد. أن يرسل ابناً له في تلك الرحلة.... الرحلة التي عانى منها وتحملها هو نفسه، لم يكن أمراً سهلاً. إرسال عظمات سيكون عذاباً.

جاء صوت مراد عذباً وخفيضاً. "أعرف جيداً أن الإنسان لا بد وأن يعثر على جذوره، مهما طال الزمان أو قصر. لكن هذه مهمة للشباب فقط. نحن نعلم أن عظمات متشوق، لكنه صغير جداً على القيام بها".

تمسّك عظمات برأيه. هو أكثرهم شبهاً بأحمد في الملامح: نحيل، أجعد الشعر بعيون غائرة براقة. لم يكن يمتلك صلابة كازبك المتوهجة، ولا طبيعة أنور المعقدة الأكثر غموضاً. بل يمتلك كل الخصائص التي تجعل الابن الأصغر الأقرب إلى القلب: سحر كامن، حيوية، إحساس هائل بروح النكتة، ومزاج ميال إلى المرح. هو في الثانية والعشرين من عمره، لكن جو البراءة الذي يحيط به جعله يبدو أصغر من ذلك. لم يكن يعرف، لأن أحمد لم يظهر ذلك، لكنه كان قرة عين أبيه.

"إذا سمحت لي بالتحدث، يا أبي. إنني متشوق ولست صغيراً إلى ذلك الحد. أستطيع أن أفعل أي شيء يقدر عليه أخواي – وربما أفضل في بعض الأمور".

تبادل كازبك وأنور ابتسامة متشككة، كأنما يقولان "استمع إلى أخينا الصغير".

تنحنح أحمد "ليس عندي شك في أنك تستطيع أن تفعل أشياء عديدة أفضل من هذين الاثنين".

قال هذا مع نظرة تحذير إلى الأخوين "لن تسامحني أمك مطلقاً لو حدث لك أي مكروه. أنت ما تزال طفلاً في نظرها".

تجنب مراد نظرات صديقه. فقد كانت هذه ممارسة مؤلمة لأحمد، أن يختبر مدى جاهزية أولاده على الافتراق.

كان عظمات يكاد يقفز على رؤوس أصابعه من شدة السخط. لكنه سيطر على عواطفه واختار كلماته بحرص، مثل أي "أديغه" أصيل.

"لكن يا أبي – حقيقة، إن كازبك هو أكبرنا سناً، ويجب أن يبقى هنا. أنور هو أفضل مدرب ومربي خيول في الإقليم. وبذلك لا يبقى غيري. أنا الذي اقترحت الموضوع في المقام الأول. أرجوك أن تفكر في هذا يا أبي".

ابتسم مراد "إن لدى "طفلك" حججاً مقنعة وصحيحة".

أضاف كازبك "يا أبي، ما عليك إلا أن تأمر، وسيذهب أي واحد منا" لكن الجميع نظر إلى وجهه المحزون وعرفوا أنه يفضل الموت على أن يرتحل في هذا الوقت بالذات.

قال أحمد، وهو يدرس التعبير المرتسم على وجه كازبك "حسناً". فقد حان الوقت ليعرف المزيد عن هذا العبث "حسناً".

تدخل مراد مقاطعاً "إذا سمحتم لي بالمتابعة...."

"آه، نعم، بالنسبة لكلابروث هذا. إنه قادم لمشاهدة خيولنا، لكن لدى مراد أمر يود أن يخبرنا به حول هذا الموضوع".

أصغى الأبناء الثلاثة بانتباه. أبقى مراد صوته خفيضاً

"أنتم تعلمون أنه جاء حاملاً رسائل من صديقنا القديم الكونت فاسيلييفيتش. لقد أرسل لي باسل تحذيراً: هذا الرجل ليس موفداً في مهمة رسمية لقيصر روسيا، لكنه أمر شبه مؤكد أن لديه عمل استقصائي من نوع ما ليؤديه. يجب أن نكون حذرين بشكل خاص على عدم إعطائه أية معلومات عن علاقتنا بالشيشان المحاربين. هل تفهمون ما أرمي إليه....؟".

نظر الجميع باتجاه أنور. فقد ظل منذ طفولته الأشرس انتماءً وحماساً لقضية الحرب من أجل الحرية. وكلهم يعرفون من الذي يغذي حماسه: أمه تسيما.

عقد أنور ذراعيه على صدره قائلاً "سأعمل على التأكد من أن لا يجيء الشيشان لزياتنا طالما هو هنا". لم يطلب منه أحد أن يشرح: في مثل هذه الأوقات، كانت هناك مسائل تترك بدون تصريح.

أجاب كازبك عن البقية "سوف أخبر الخدم وعمال المزرعة. هل هو جاسوس؟".

هز أحمد رأسه نفياً "بوسع العدو أن يستفيد من أكثر المعلومات براءة. لا تخبروه أي شيء عن أي موضوع خارج تربية الخيول واستيلادها واللغة القباردية".

ضحك الشباب واستأذنوا بالانصراف.

أمسك مراد بيد أحمد "أعرف إلى أي حد يحزنك هذا الأمر – لكن يجب على عظمات أن يذهب. أن تحمي سلالتك بإرسال أحد أبنائك إلى الميدان أمر صحيح ولائق. هذه طريقتنا في الحياة، أن يكون لدينا جوالين".

وافق أحمد كارهاً ومتردداً.

صفعه مراد على ظهره. "هيا! ابتهج! كلما أسرعنا في معرفة الاتجاه الذي ارتبطت به عواطف كازبك، كلما كان ذلك أفضل لنا جميعاً. وعلى الأخص ابني تيمور... فكل البنات يرغبن في كازبك، وما دام حراً، فلن يرضين بأي شاب آخر!".

***

الفصل الثالث

ركب فون كلابروث والضابطين الروسيين المعارين إليه من قبل الجنرال رتيتشيف من جناح ضيافة أمير الحابسا إلى اسطبلات أحمد. حاول الضابط الأعلى رتبة أثناء الطريق أن يفهم الغاية التي يرمي إليها هذا الأكاديمي الألماني من وجوده في الإقليم. فقد جاء إلى هنا يحمل أفضل كتب التقديم.

قال النقيب تورجينوف بمرح "أنت محظوظ لتلقيك الدعوة، يا سيدي، فقد علمت أن هذا الرجل أحمد يربي أفضل الخيول في قباردا الصغرى".

"هل يشتري الجيش منه؟"

ضحك تورجينوف "أحياناً. باسم الدبلوماسية الإيجابية. كذلك، فإن القبارديين قادرون على تدريب الخيل بحرية أكثر من القوزاق المحشورين في مواقعهم الدفاعية، كلا، ما عنيته بكلامي هو أنك محظوظ من ناحية أخرى".

"كيف ذلك؟"

"الحابسا لا يسببون المتاعب. إنهم يهتمون بشؤونهم ولا يختلطون بغيرهم وليس لدينا إلا القدر القليل من الاختلاط بهم. إنني أتساءل.... ذلك جل ما في الأمر. فقد قيل لي أن هناك ارتباطات بين هؤلاء الناس وبين الشيشان".

"معظم القبائل تتزواج فيما بينها. في الواقع أن كثيراً منها يمنع الزواج من داخل القبيلة: إن الزواج الأباعدي ينشئ تحالفات سياسية وينتج عنه أبناء أفضل صحة" قال فون كلابروث.

أبدى وجه النقيب تورجينوف إمتعاضاً "لا أعرف شيئاً عن الزواج "الأباعدي"، لكنني أعرف أن الشيشان عصابة مثيرة للمتاعب. إنهم يغيرون باستمرار على عربات الجيش التي تعبر خلال مضيق داريل، ينهبون تموينات الجيش. إذا كان أي من الشعب القباردي يزودهم بالسلاح أو الخيول، يجب إيقافه". لم تكن لدى كلابروث أية رغبة في الانخراط بقضايا السياسة المحلية لذلك بقي على صمته باحترام.

وصل الثلاثي إلى مزرعة أحمد ووجدوا مضيفهم مع اثنين من أبنائه ينتظرونهم إلى جانب إحدى الحظائر. وقف مراد إلى جانب أحمد. انشغل أحد الأبناء بتدريب حصان رائع داخل السياج.

ترجل فون كلابروث بطريقة لائقة وصافح الرجال "صباح الخير، على ما أرى، لا بد وأن هذا هو الفحل العربي القادم من الداغستان..."

"كلا، لقد مات ذلك الفحل. لكن هذا هو ابنه. لقد كان موجد هذا الحصان هدية من رجل دين" قال أحمد، مشيراً بصراحة آسرة إلى الصلة الحساسة سياسياً "هو زعيم شيشاني في الجبال. قيل لنا وقتها أن الحصان أتى من اسطبلات شاه بلاد فارس".

أجابه فون كلابروث "كم هذا مثير للاهتمام، وعلى ما أعتقد، أنت تزوجت ابنة الملا، أليس كذلك؟".

بدت الدهشة على جميع الرجال. كيف استطاع فون كلابروث أن يتوصل إلى هذه المعلومة؟ لم يقترح باسل في رسالته التقديمية أنه أخبر الألماني بهذا القدر من تاريخ العائلة. استمر البروفيسور في إبداء إعجابه بالحصان وقد رسم على وجهه ابتسامة محببة، كأنما هو يستمتع بدردشته.

سايره أحمد "نعم! ولكن ليس لأنه أعطاني حصاناً!"

"همم.... إنني شديد الاهتمام بالشيشان. إنهم جنس غريب.... وكما فهمت فهم شعب شجاع. إنني أعجب مما إذا كان ممكناً أن أزور الجبال وأقابلهم. ألقى نظرة مباشرة. ماذا تعتقد يا مراد؟"

أسرع مراد بالإجابة "يا صاحب الفضيلة، ما كنت لأعتقد أن ذلك أمر ينطوي على الحكمة. إن روسيا في حالة حرب مع الشيشان. لا بد وأنك تعرف ذلك – ذلك صحيح، أليس كذلك، أيها النقيب تورجينوف؟"

أومأ تورجينوف برأسه موافقاً، وقد أجفله أن يخاطب بلغة روسية لا تشوبها شائبة.

علّق مراد بما يمكن تفسيره فقط على أنه أسلوب مقتضب قائلاً "لن يفهموا السبب في زيارتك، خلافاً لشعبنا القباردي".

التمعت عينا كلابروث "مؤكد أنهم سيعرفون أنني لست روسياً، إنني بروفيسور ألماني صاحب اهتمامات أكاديمية بحتة".

قاطعه أحمد بحزم "نعم، ولكننا نعرف أنك تقوم بمهمة بأمر من القيصر، وهذا يمنحك منزلة دبلوماسية لدى أميرنا. سوف يكتشف الشيشان أمر هذه المهمة ولن يكون موقفهم منك ودياً".

سعل النقيب محذراً وطرق على حذائه بعصاه. لم يعرف ما إذا كان يفترض فيه أن يعجب أو يشعر بالإهانة من هؤلاء القبارديين الذين يتكلمون بسلاسة. كانت هذه الأخلاق المشحونة بالكبرياء من قبل القفقاسيين "المخضعين" تترك لديه انطباعاً بأنها غير ملائمة.

لكن فون كلابروث أصر "أيها النقيب، ربما يجب أن نجري بعض الاستعلامات من خلال القائد العسكري في موزدوك، إذا كان السفر إلى بلاد الشيشان ممكناً أم لا. خاصة، إذا كنا معززين بكتب تقديم من هؤلاء الناس الطيبين!".

ابتسم النقيب تورجينوف ابتسامة عريضة من هذه الحركة المعاكسة.

"نعم، سأقوم بذلك بالطبع. سنكون قريبين جداً بمجرد وصولنا إلى فلاديكا فكاز في الأسبوع القادم".

استدار أحمد نحو جياده، وهو يشعر بالقرف لكون فون كلابروث قد احتال عليهم. تحدث إلى أنور بسرعة باللغة الشركسية: "أعد الفحل إلى مكانه. لا أعتقد أنهم مهتمين كثيراً بالجياد بعد الآن...".

استمر مراد في الحفاظ على الجو الودي "قبل أن تغادر، يا بروفيسور فون كلابروث، سيقام هنا احتفال عما قليل ربما ترغب في مشاهدته. أحد أولادنا عائد إلى البيت لتوه بعد قضائه الوقت اللازم مع "الأتالق".

"آه نعم" بدا على فون كلابروث السرور لإظهاره الفهم لهذه العادة. "إنها نوع من الرعاية أو الأبوة بالتبني، والتي يفترض أن تكسب أولادكم الاستقلالية".

"ذلك صحيح. وهي كذلك تحرر الأب عاطفياً من القلق على صغاره في زمن الحرب".

"كم يجب أن يكون عمر الصبي حتى يعود إلى بيته؟"

""الأتالق" هو الذي يقرر. في هذه الحالة، فإن الصبي في الرابعة عشرة من عمره ولكنه قد تعلم كيف يتصرف كرجل – يصطاد، يقاتل بالسيف – كل ما هو متوقع من الرجل "الشركسي"!".

حدّق فون كلابروث في أولاد أحمد الثلاثة بتعبير ينم عن التحليل "هؤلاء الشباب.... هل ذهبوا للتدريب لدى "الأتالق"؟".

أشار أحمد إلى كازبك "نعم، حقاً، إنه قباردي حقيقي في كل ذرة من كيانه. حتى ولو أنه يحلق لحيته!".

تعجب أحمد في سره مما يفكر فيه فون كلابروث بالنسبة لقناعاتهم. هل سيقول أنهم متعاطفون مع الثوار الشيشان؟ سعداء بإعادة توطينهم مع الحابسا؟ هل سيكون فون كلابروث مدفوعاً إلى أن يكتشف وجود عائلته البعيدة عنه منذ زمن طويل على نهر الكوبان؟ تمنى أحمد أنه لا يضطر إلى ترك هذا الأجنبي صاحب الدوافع المشكوك فيها يتفحص خيوط حياته بهذا القدر من التدقيق.

قال لكازبك باقتضاب "كانت أمك تسأل عنك، بإمكانك أن تذهب الآن". لم يثق في أن يبقى كازبك على تأدبه في حال سأله فون كلابروث عن تجاربه مع "الأتالق" تميروقا.

"نعم يا أبي" استدار كازبك مبتعداً، منزعجاً من البرود الظاهر في صوت أبيه، وغير قادر على معرفة مشاعره المتداخلة.

حين دخل كازبك الغرفة، كانت تسيما منشغلة بغزل الصوف.

قال لها "هل أردتني في أمر ما يا أماه؟"

نهضت تسيما مسرعة، بقوامها الغض، القوي، احتوت ولدها البكر بين ذراعيها. عبثت بشعره ضاحكة وهي تردد "كازبك، كازبك".

كان كازبك يحب أمه وبعزها كثيراً لكنه لم يرد على إظهارها المكشوف لمحبتها. أبعد ذراعي تسيما عن رقبته ووقف مبتعداً إلى الخلف، لكن لم يستطع أن يتمالك نفسه من النظر إليها بحنان. انحنى ليلتقط كرة الصوف المنفلتة ويعيدها إليها. لاحظت تسيما انشغال أفكاره.

وبخته قائلة "أوه، أنك تسبب لي الكثير من القلق. لقد غبت ليلتين متتاليتين – وكاد أبوك أن يتميز من الغيظ!"

جلس كازبك إلى جانبها "هل تعنين أنه غاضب علي"

"كلا، لست أقول ذلك. إنه قلق، قلق عليك فعلاً". عضت تسيما على شفتها بانعدام صبر وهزت يدي كازبك اللتين أمسكت بهما في حجرها بقوة. "لا أستطيع أن أفهم هذا التقليد الشركسي المجنون الذي يمنع الأب والابن من إظهار الاهتمام أو المحبة لبعضهما بعضاً! بعد كل هذا الذي عانيناه!".

حرر كازبك يديه من أصابعها المحبِّة. تململ، نهض واقفاً وأدار لها ظهره، محدقاً خارج الشباك بشرود.

"أنت تقولين ذلك لمجرد طمأنتي. إنني أعرف الـ"تحمادا". إنه ليس من النوع الذي يقلق".

أدركت تسيما أنها لا تحرز تقدماً واكتفت بأن هزت رأسها بقوة.

أصبح بإمكان كازبك أن يسمع صوت سنارتيها حيث استأنفت عملها. كان يحبها أكثر من أن يسمح لسوء تفاهم أن يخرب على وقتهما القصير سوية.

قال لها "لقد أحضرت لك جلداً طيباً من رحلة الصيد"، في محاولة لطمأنتها "بإمكانك أن تعملي لأبي زوج أحذية "لاخستان".

"ما نوع الحيوان؟".

"غزال بلون العسل. لا يزال الجلد يحتفظ ببعض من فراء الشتاء عليه. إنه يصلح لعمل زوج أحذية ناعم ممتاز له".

رفعت تسيما نظرها إلى جبينه المنحوت حد الكمال وإلى عينيه برموشها الكثيفة. إنه أشد وسامة حتى من أحمد. لكنه عندما يبدو منشغل البال، كما هو الآن، فهو يذكرها بالضبط كيف كان أحمد يبدو في أول وصوله إلى قرية الشيشان... حساس، كتوم، يحاول أن يؤدي أفضل ما لديه. لكن كازبك الآن أكبر من أن يحمل متاعبه

لوحده. حتى لو أنه لم يعثر على حبه المثالي، فإن واجبه هو أن يتزوج، أن يفسح الطريق لأخويه.

قالت بصوت لطيف "ذلك أمر لطيف يا ولدي، سوف أصنع لك زوجاً أنت الآخر. لكنني أريد أن أعرف.... ما الذي يضايقك، يا كازبك؟ إلى أين تذهب في رحلات الصيد هذه؟ يمكنك أن تخبرني.... هل هي فتاة؟" سألت وهي تأمل.

عبس كازبك "ماذا قال لك أنور؟ سأقتله!".

"لا عليك، لا عليك، استمع إليَّ. لم يكن أنور مضطراً لأن يخبرني بشيء. ربما يفاجئك هذا لكن أباك وأنا كنا صغيرين فيما مضى وكنا عاشقين. أنك تتصرف بغرابة مؤخراً – أي شخص بإمكانه أن يعرف أنها قصة حب. يجب أن تكون سعيداً، وليس غاضباً".

خرجت من صدر كازبك تنهيدة طويلة "آه.... يا أمي!" كان سعيداً لكونها أدركت وأنها ليست غاضبة بقدر غضب أبيه. "لكنك لا تعرفين عن المشاكل التي أقاسي منها!".

قالت تسيما "حسناً، الأفضل أن تخبرني عنها". راقبت غرزها بينما فتح كازبك قلبه وصارحها بكل المتاعب التي أعتقد أنها فريدة من نوعها، والتي عرفت تسيما أنها كانت قصة الرجل والمرأة منذ بدايات الزمن. كان مستهجناً أن يتكلم كازبك بكل هذه النبرات الانفعالية. فهو في العادة يحتفظ بآرائه وأفكاره لنفسه.

"إنها من عائلة أنزور في تشيجيم. اسمها نورسان، وهي فتاة جميلة يا أمي، وهي ممتلئة بالحيوية لدرجة أنك ستحبين لها أن تكون "نيسا" لك، إنني متأكد من ذلك".

بمجرد أن انطلق، أفرج كازبك عن كل مكنونات قلبه، وهو سعيد لأن يأتمنها على سره، وتسيما بدورها سعيدة لأنه صارحها،

ومع ذلك أيضاً أنه سرعان ما سيكون رجل امرأة أخرى، ولن يعود لأن يقترب منها إلى هذه الدرجة مرة أخرى.

"لقد أعطى والدها كلمة بشأنها إلى "وَرْق" آخر من "التشيجيم". إنها الابنة الوحيدة، أصغر مني قليلاً، ولن يسمح أبواها بزواجها من خارج القرية..."

"اترك هذا الأمر لي، يا كازبك. كن صبوراً. هذه الأمور تستغرق وقتاً طويلاً".

"إنني سعيد لأنني اعترفت لك". احتضنها كازبك، بدون أن يشعر بالخجل من مشاعره في هذه اللحظة، واستأذنها في المغادرة.

***

كان أمراً مقبولاً بشكل واسع أن وادي تشيجيم هو الأجمل من بين جميع روافد نهر التيريك. لأن جدرانه الصخرية أقل حدة من جدران نهر تشيريك، وقد أصبحت تصدعاته أجمل من أي واد آخر بسبب كثرة الشلالات فيها، وحقوله أكثر وفرة من حقول نهر المالكا. لذلك فمن الطبيعي أن يفتخر قبارديو التشيجيم بسمعة وطنهم بحث سعوا إلى إثبات ما تقوله الأسطورة، من أن القبارديين قادرون على جعل مرتفعات القفقاس "ترقص بالذرة".

كانت المنحدرات الواقعة إلى جنوب الجبال جرداء: وهو مظهر جعل "الأديغه" الذين كانوا يعرفون "بالكفار" سعداء بأنهم متفوقين على المسيحيين الجورجيين الذين يفترض أنهم متمدنين.

أمتد هذا الفخر بتضاريس بلادهم أحياناً إلى قليل من الغرور بمظاهرهم البدنية. لذلك عندما لاحظ شباب التشيجيم أن النبيل الحابسي متوجه إلى موعد آخر مع فتاة من قريتهم، شعروا بالنقمة.

غمغم جانخوت قائلاً "أحمق كبير مدلــّه من العشق!". كان هو ورفيقه حطوط قد خرجا للصيد، مرتدين الملابس الملائمة من "التشيركيسكا" الراقية والقبعات المزدانة حوافها بالفراء. وقد حمل كلاهما البنادق وكنانة الأسهم على ظهريهما.

"لقد شاهده جانبولات سابقاً مرة أخرى، أليس لديهم بنات في حوض التيريك؟ أم أنهن جميعاً قبيحات مثله".

سأل صديقه الأصغر سناً، حطوط "كيف تعرف أنه قبيح؟" كان من السهل عليهما ملاحظة غزلان "التوري" بجلودها الصيفية المائلة إلى الحمرة، لكنهما لم يكونا محظوظين حتى تلك اللحظة. فقد أصبح تصيد كازبك إلهاء مبهجاً لهما.

مسح جانخوت جانب التل الأخضر بعينيه "أنا لم أره فعلياً بنفسي، أنا فقط افترض بأنه متوحش. ألا يقال بأن جميع "الجلاخستني" يعانون من إنمساح الأقدام؟".

رفع حطوط يده فجأة وأشار. ظهر كازبك فجأة على ظهر سلسلة في البعيد وكان ينظر إلى الأسفل باتجاه القرية.

قال جانخوت بتشوق "هيا بنا، دعنا نسلم رسالة الأنزور!".

أدار الفارسان جواديهما واتجها صوب المسيل الضيق للوادي صاعدين. خفف العشب الصيفي صوت حوافر خيلهما: اقتربا أكثر خلف كازبك قبل أن تكون لديه أية فكرة عن حضورهما. كان يجلس فوق صخرة مستغرقاً في أفكاره. لم يكن في أفضل حالات يقظته بسبب انشغال أفكاره بموضوع حبه، لكن عندما صدر صوت احتكاك المعدن في لجام فرس حطوط، قفز كازبك رغم انشغاله واقفاً وأمسك "بالقاما".

أصيب جانخوت بالرهبة من هذا الجسم القوي. إن كازبك رجل بالغ النمو، وهو نفسه لم يكد ينهي مرحلة المراهقة. لكنه لم يشأ أن يشعر بالخزي أمام حطوط. قال وهو يضع يديه على ردفيه للتأكيد على رغبته في أن يلقن كازبك درساً "اسمع أيها المدلّه الأحمق! نحن لم نأت إلى هنا لنقاتلك. على الأقل، ليس هذه المرة". لزم كازبك مكانه وسحب عنان جواده حتى يستطيع أن يمتطيه بسرعة إذا هوجم. اقترب الحصان الرمادي الجميل حتى وقف إلى

جانبه. امتلأ الجو بالتوتر: فقد شكل كازبك وحصانه المطيع إلى درجة الاهتزاز منظراً مؤثراً في النفس.

على أية حال، شعر جانخوت وحطوط أن شرفهما في الميزان، ولم يسمحوا للإعجاب بأن يخفف من لهجتهم. تكلم حطوط تالياً: "لدينا رسالة من والد نورسان. إنه يمنعك من المجيء إلىهنا مرة أخرى أومحاولة الاتصال بابنته. هل تفهم؟".

لكن كازبك بقي ببساطة في مكانه، ولم يقل أي شيء من باب الكبرياء. بدا أنه رجل يصعب تغيير قناعاته.

حاول جانخوت مرة أخرى. "نعم – إن الفتاة قد سبق وأن طلبت وسوف تتزوج هنا في التشيجيم واحداً من أهلنا، هل تسمع؟ إذا كنت تفهم لغة "الأديغه" فأنك تعرف ما يعنيه ذلك".

شكك كازبك في أن لديهم أي حق في التحدث إليه بهذه الطريقة. ليس هناك أب يرسل مثل هذين الرسولين غير الناضجين. امتطى حصانه بدون أي إحساس بالخوف واستدار ليواجه المقاتلين الشابين.

"إنني أسمعكم وأفهم لغتنا "الأديغه" قال بصوت قوي "ما لا أفهمه هو كيف يهمكما هذا الموضوع... فهل أنتما – من عبيد آل أنزور؟".

فهم حطوط هذه الإهانة على الشكل الذي قصدها به فمن الواضح أنه وجانخوت كانا يرتديان ملابس "الوَرْق" ولكن كازبك يبحث عن المتاعب.

تحدث حطوط بعنف "استمع مرة أخرى ما دمت تفهم لغة "الأديغه". الفتاة لا تريدك. لن يقبل بك أبواها. والآن إذا أصررت على العودة إلى هنا ثانية فأنك تسعى إلى أن تقتل".

أدار جانخوت وحطوط جواديهما بغضب وانطلقا مبتعدين. بقي كازبك على حافة الوادي الضيق، أحسَّ بالإساءة لكنه ظل صامداً،

واثقاً من معرفته بأنه محبوب. لقد انتظر ظهور امرأة أحلامه سنوات عديدة، وهي قد ظهرت الآن. على أية حال، فإن هذه المقاومة جدية، وليست لديه أية فكرة عن كيفية كسب يدها. ليس هناك "أديغه" واحد يتحدى قرارات كبار القرية، مهما كان حبه صادقاً. لم يكن كازبك يريد أن يسبب أي نزاع بين شعبي الأنزور والحابساي. يعلم الله أن لدى كليهما ما يكفي من الأعداء.

اضطر كازبك إلى الانتظار حتى حلول الظلام. عرف أنه يضيع الوقت بمجيئه مبكراً لهذه الدرجة، لكنه يحب أن يتواجد قريباً من نورسان، فربما يمكنه أن يلمح تحركاتها أثناء تأدية واجباتها في القرية تحته. لقد كان غبياً إذ أعلن عن حضوره لشباب القبيلة. غادر كازبك نقطة مراقبته الحجرية المفضلة وهو يلعن افتقاره إلى الحرص، وربط حصانه في دغلة كثيفة من نبات المكانس. تكور إلى جانب ضفة طرية تكسوها الطحالب، وهو ينخل دماغه بحثاً عن طريقة يحل بها مشكلته.

بحلول منتصف الليل، هدأت قرية الأنزور. ركب إلى طرف القرية متلصصاً، بسرعة ذئب واختبأ خلف شجرة البلوط الضخمة المعمرة حيث تقابله نورسان دائماً. كان كازبك يتضور جوعاً لكن الجوع يهمه في حالة واحدة وهي أن تقرقر معدته بصوت عال وتفضح وجوده.

حبس أنفاسه، حتى يتمكن من التقاط أخف صوت لاقترابها. نعم! ها هي هناك، شكل صغير في معطف أسود، يقفز من ظل إلى ظل بين أبنية المزرعة.

بمجرد أن اقتربت، قفز كازبك عن حصانه وضمها إليه بقوة. سقط غطاء رأسها إلى الخلف وخفق قلبه بعنف لمرأى نور القمر يتلألأ فوق الحرير الأسود المائل إلى الزرقة الذي هو شعرها. كان هناك عنصر نقي وقابل للكسر في طبيعة نورسان جعله يرغب في الحفاظ على سلامتها، أحاطتها بالرعاية، للبقية الباقية من حياته.

"لقد ظننت أنك لن تجيئي!" قال وهو يقبلها ويتنفس بقوة.

"أنا أيضاً ظننت أنك لن تجيء!" قالت، وقد وضعت فمها الناعم على خده. "لقد سمعت والدي يصدر تعليمات بخصوصك... لقد شعرت بقلق بالغ بأنني قد لا....."

قبّل كازبك خطوط العبوس الصغيرة على جبينها، والثنايا الدقيقة على طرف شفتيها المكتنزتين الحمراوين، وقال "ليس من السهل إخافتي لأبتعد" أمسك بوجهها بين يديه: هي السحر بعينه، آلهة القمر في هذا النور الخافت الناعم.

"لقد أخبرت شخصاً آخر عنا أخيراً. أخبرت أمي...."

أصيبت نورسان بالذعر "آه يا كازبك، ماذا قالت، أرجوك أخبرني بسرعة...."

ضمها إليه بقوة ليطمئنها "قالت أنها ستجد طريقة تساعدنا بها. إن والدتي شيشانية، وهي امرأة عنيدة، ولن تستسلم بسهولة. قالت أنها ستجد طريقة لائقة لطلب يدك. ستفعل ذلك يا نورسان، أنا واثق".

خبأت نورسان وجهها بأن أخفته داخل صدره. مسَّد كازبك شعرها، مدركاً أنها لا تصدقه، وأنها فاقدة الأمل. بدأت تبكي بكاءً ناعماً.

"لا عليك.... لا عليك" كان يكره تعاستها.

غلبها النشيج أثناء قولها "أعتقد أن مصيرنا محتوم، إن والديَّ معارضان كلياً. لقد قضت أمي طيلة هذا النهار وهي تحاول إقناعي أن أنساك. حتى أنها جهزت لي ثلاثة أزواج محتملين لاختار من بينهم!".

أحسَ كازبك بدرجة من اليأس أيضاً. لكن لا شيء سوف يرغمه على التخلي عن نورسان. لقد شعر دائماً أن الواجب يفرض

عليه أن يقوم بالأمر اللائق. بصفته الابن الأكبر. هذه هي المرة الأولى التي أراد فيها أن يتحدى الأعراف، ويتبع ميوله.

"اسمعي" قال لها وهو ممسك بها بذراعين ممدودتين "هل تذكرين كيف التقينا. عندما كنت أتصيد، وقابلتك مصادفة عند ضفة النهر؟".

أومأت نورسان برأسها ومسحت دموعها عن خديها الباهتين. إن بشرتها أشبه بالمرمر، لماعة.

"نظرت إليك، وألقيت أنت بمنديلك حول رأسك، ثم نظرت إليَّ، وعرف كلانا في تلك اللحظة أنها لم تكن الصدفة التي وضعتك هناك في ذلك الفجر، أو جعلتني أركب مبتعداً إلى أبعد مما ذهبت إليه قبلاً على الإطلاق...".

قالت نورسان وهي تضع يداً حانية على خده "أنني أذكر".

همس لها "هناك شخص ما في صفنا، أنا واثق من ذلك".

غلفت نورسان نفسها بالأسود. تنهد كازبك، لأن اللمحات المغرية من جسم نورسان المضيء في ضياء القمر لم تكن تكتفي بإشعال رغبته، ولكنها فتحت في قلبه أمراً أروع: لقد كان يعبدها حقاً. فهي المرأة الأجمل ممن رآهن على الإطلاق. كان يعرف جيداً السبب في يقظة وشراسة أبيها. فالنساء "الشركسيات" مشهورات بجمالهن في طول البلاد وعرضها حتى القسطنطينية، والقدس وسانت بطرسبرج. ربما كانت نساء التشيجيم مصدر فخار بلاد القباردا، ونورسان الجمال الأعلى مقاماً بين كل الصبايا في الوادي.

همست له "يجب أن أذهب، إنهم يتفقدونني طيلة الوقت".

"يجب أن أذهب..."

ضمها إليها بقوة، تعلقت نورسان به.

"هل سأتمكن من رؤيتك مرة أخرى في الأسبوع القادم؟"

"نعم يا روحي. سوف تراني. سوف انتظر هنا مرة أخرى".

عندما انسلّت نورسان مبتعدة بين الظلال، شعر كازبك برعدة برودة، كأنما حجبت القمر غيمة سوداء. ركب مبتعداً داخل ظلام الغابة حيث انحجبت كل الأضواء حتى وميض النجوم من أوراق الأشجار الصيفية الندية. هنا يستطيع أن يفكر بوحشته بالقدر الذي يرضيه.

***

حركت زيارة فون كلابروث إلى قباردا الصغرى بعض التوتر. جلس تيمرقان العجوز الوزير الأول، يصلي في بيته، وكالعادة يشكر الله على إنقاذه من الطاعون، ويضيف إلى صلواته طلباً للمزيد من بعض الحكمة. المزيد من الوقت لمساعدة الأمير الشاب. فقد كان لدى تيمرقان شعور بأن هناك مصائب هائلة يجري إعدادها لبلاد الجلاخستني، وأن ذلك سيتطلب الكثير من سعة الحيلة والمهارة لحماية الأديغه.

عندما أتم صلواته، تمشى متمهلاً إلى بيت أحمد. انضم مراد إليهما لإجراء نقاش غير رسمي حول أنشطة البروفسور الأجنبي.

جهزت تسيما بمساعدة خادماتها مائدة "أنه" من طاولتين مملوءتين باللحوم المبهرة بالتوابل والخضار وقام عظمات بخدمة الكبار بتقديم "الباخسمة" المرطبة. أصغى عظمات بانتباه إلى خطاب تيمرقان حول الأحداث الجارية لأنه كان قد عقد العزم على السفر بعيداً عن البيت، مع أنه في السابق كان يجد مثل هذه الأحاديث مملة جداً.

صار يتعجب عما سيكون عليه شعوره في حال ذهابه إلى الحرب. لأنه كلما سأل أباه أحمد عن قتال "الجاور"، كان أحمد ينزعج. ما هي الفائدة من تعلم الشاب أن يكون مقاتلاً إذا لم تسنح لك أية فرصة لأن تقاتل أبداً؟ لم يكن عظمات يطيق الانتظار....

قال تيمرقان ببطء "لقد أحضر الضابط "الآستيني" الذي زار أميرنا اليوم بعض الأخبار".

قال مراد "لقد سمعت عنه، أعتقد أنه خدم مع الجنرال نيسفيتوف في جومري".

جومري؟ أراد عظمات أن يسأل أين تقع إلا أنه لم يكن يسمح له بالمقاطعة أو التدخل.

"نعم هذا صحيح". ابتسم تيمرقان، لأن اهتمام مراد بالدبلوماسية كان على الدوام مبعث فخر وسعادة بالنسبة له.

"يبدو أن جودوفيتش العجوز انضم إلى المعركة لهزيمة الأتراك في معركة جومري ونال كل الثناء. سوف تتم ترقيته إلى رتبة مارشال".

نفض مراد كتفيه "إنه عجوز غير محبوب. لن يتمكن من امتلاك قوة سلفه. فقد كان "الشيطان" بوتمكين يفوق هذا الرجل بضعفين كسيد مطلق وكقائد.

"حسناً، لكن "الجاور" مشغولون حالياً بنابليون. لكن يبدو أن الحرب تميل إلى صالحهم حتى هناك. إلى درجة أنه يوجد حديث عن معاهدة سلام مع فرنسا".

سأل أحمد "هل هذا يعني أن أميرنا قلق من أن يوجه الروس اهتماماتهم إلى منطقتنا أو إلى بلاد الشيشان؟".

توقف تيمرقان "ليس بعد. لدينا تقييم مختلف لأهداف روسيا من الحملات العسكرية في الجنوب عن تقييم أخوتنا في قباردا الكبرى. لقد وقعوا وثائق الولاء مرة أخرى ويقولون لنا أن الروس ليست لهم مصالح في أراضينا. يقولون أننا آمنون!".

تفحص عظمات وجوه الرجال الثلاثة ورأى بوضوح أن لا أحد منهم يتفق مع هذا الرأي – ولا حتى تيمرقان.

سأل أحمد "ما هو رأيك أنت، يا تيمرقان؟"

أجاب تيمرقان، ولكن بتملص واضح "يعتقد أميرنا الشاب، وهبه الله القوة بما يلي: إن القيصر الروسي يرغب في توحيد جميع الأجناس المسيحية في القفقاس، بعد وفاة تسيتسيانوف الرهيبة في باكو...".

كان عظمات قد استمتع، مثل جميع المقاتلين الشباب، بأسطورة سقوط الأمير الجورجي. فقد غادرت أسرة تسيتسيانوف بلادها الأصلية جورجيا قبل جيلين واستقرت في روسيا. ترقى إلى رتبة القائد العام للجيش الروسي في موطنه السابق، وتحدثت إنجازات عديدة عن طاقاته، وعدائيته، ولسانه الذرب. حتى أنه طرد قريبته، القيصرة ماري لأنها تآمرت ضد روسيا. ولكن في النهاية تسببت خيانته في سقوطه. قبل خمس سنوات، أي في عام 1807، هزم خان قوبا الواقعة على بحر قزوين، تسيتسيانوف عندما كان يقود هجوماً روسياً ضد إمارة خان باكو المجاورة. أقدموا على قطع رأسه ويديه وأرسلوها إلى قادته الروحيين – والسياسيين في طهران.

اختتم تيمرقان حديثه بقوله:

"إن الهجمات الروسية ضد تركيا، والاستيلاء على حصر أنابا العائد للأتراك، والعدوان ضد بلاد فارس وكل خانات المسلمين – كلها مصممة لتحقيق إنجاز واحد – وهو أن نصبح محاطين من كافة الجهات بحلفاء روسيا أو مناطق محتلة من قبلها".

"أنابا!" يعرف عظمات ذلك المكان على الأقل. إنه حصن على شاطئ البحر الأسود، قرب مصب نهر الكوبان، وهو يعرفه من الأغاني والقصائد عن الحرب لأنها المكان الذي أسر فيه المقاتل الشهيد الشيخ منصور في النهاية... وقد أخذ إلى قلعة داخل روسيا حيث توفي. "لا يمكن أن يعتاد العقاب على القفص "كما يقول شعراء الملاحم المغناة. حطم السجانون جثة الشيخ منصور فوق عجلة، ولم يعرف أحد موقع قبره.

أعلن تيمرقان "لن تصمد المعاهدة الجديدة بين روسيا وتركيا، لدي شعور أكيد بأن الجنرالات الروس سيتولون الأشراف على هذه المعاهدة الجديدة بأنفسهم. ففي نهاية المطاف، قد يكونون تخلوا عن حصن أنابا بموجب شروط معاهدة بوخارست، إلا أنهم احتفظوا بسوخوم كاله. وهي موطئ قدم استراتيجي على البحر الأسود".

تنهد مراد "إنها المشكلة التي لا تنتهي. يريدون منافذ تجارية باتجاه الجنوب. سيرغب الروس في تأمين ممرات آمنة لهم من خلال أراضينا، ومن خلال بلاد الشيشان إلى جورجيا وما وراءها..."

ران على الجمع صمت قصير. وقف عظمات ساكناً، آملاً أن يسمع المزيد وأن لا يتم الاستغناء عنه. إلا أن تيمرقان أبدى انزعاجه من هذه المحادثة ونهض قائماً وهو يتنفس بصعوبة "آه، يجب أن أريح هذا الجسد العجوز! الحديث معكم ذو شجون..." صافح أحمد ومراد "كلاكما رجلان منطقيان. عندما يحين الوقت...." أراد تيمرقان أن يتيقن من وجود رجال كبار حول الأمير عمر لمساندته عندما لا يعود هو قادراً على الاستمرار.

رافق أحمد الرجل المسن إلى الباب، وهو يغمغم بكلمات الاعتزاز لتيمرقان. نظر مراد عبر الغرفة إلى عظمات.

"إذن، فقد كنت تصغي بانتباه مركز أيها الشاب. أكثر مما قد ينتبه ابني جعفر، وهو الذي يكبرك بست سنوات!".

احمرَّ وجه عظمات خجلاً "إنني مهتم في أن أعرف الكثير عن العالم.... هل صحيح ما يغنيه الشعراء الجوالون عن الشيخ منصور؟ أن الروس أخذوه بعد معركة أنابا إلى قلعة في روسيا، وأنهم حطموا جسمه فوق دولاب؟ لابد وأنك تذكر القصيدة الحربية يا "تحمادا" والتي تقول "إن العقاب لا يمكن أبداً أن يعتاد على القفص..."

"يقولون أن هذا هو ما حدث. لكن المؤكد هو أن أحداً لا يعرف موقع قبره".

"يقول أبي أنكما حاربتما مع الشيخ منصور" كان وجه عظمات ممتلئاً بالفضول.

فرك مراد ذقنه واصطبغت سحنته بتواضع جاد.

"نعم، لقد حظينا بذلك الشرف. قبل سنوات عديدة. قبل أن تولد. هذا صحيح، لقد كان روحاً تنعم بالحرية – فقد جعله عدد المرات التي نجا فيها من الأسر شخصاً شهيراً ومطلوباً بحدة. فقد كان يخاطب جنوده كما ينفخ الحداد في الكير، فيصبحون شراراً يطير في الهواء ويحرق الغابات".

قال عظمات "لم يخبرني أبي عن هذه الأمور، لكن "الأتالق" الذي علمني أخبرني..."

"طبعاً! حتى يجعل منك جندياً شجاعاً! متى سترحل إلى الكوبان، أيها الشاب؟".

أضاء وجه عظمات حبوراً "في الأسبوع القادم، أيها "التحمادا"."

شعر مراد بالخوف على سلامة الشاب، إذ لم تكن لديه أية فكرة عن صعوبة التضاريس الطبيعية أو احتمالات قيام المتاعب في الكوبان. فقد دأب الروس والقوزاق على مضايقة القرى في تلك المنطقة باستمرار.

"يجب أن تتوخى الحذر يا عظمات. هذه أزمنة صعبة. كم من الزمن ستغيب؟"

"لا أدري يا "تحمادا"، ربما أتغيب سنة، ربما أكثر".

سمع أحمد هذه الملاحظة أثناء عودته، وقال بقسوة معاكسة تماماً لما يعتلج في صدره من أحاسيس:

"ربما لا يعود أبداً. إذا أوجد لنفسه حياة جديدة في الكوبان واستعاد ميراثنا، يمكنه أن يبقى هناك ويستمر في نسلنا الأسري".

ابتسم عظمات في خجل: سعيداً بنيله الثقة، ومتمنياً في نفس الوقت لو أن أباه لا يتصرف بهذا القدر من الفظاظة حول انفصال لا يستطيع هو أن يواجهه بنفس تلك السهولة.

لجأ مراد إلى تلطيف الموقف "آه، أنا لا أعتقد ذلك. نحن نريده أن يعود إلى التيريك. لا نستطيع أن نخسر شبابنا الوسيمين إلى الكوبان – وعلى الأخص واحداً عالماً بتاريخنا والعالم بقدر عظمات الشاب".

حدج أحمد صديقه القديم بنظرة طويلة. لن يتمكن طيلة حياته من أن يعثر على الكلمات الأنيقة بالطريقة التي نطق بها مراد. لكن ربما يستطيع عظمات ذلك – لهذا قد يكون اختياراً ملائماً لإرساله إلى الوطن في الكوبان. فإن ابنه الأصغر سيرفع رأسه...

عاد إلى القول "حسناً، حسناً" بعصبية ظاهرة، فقد كان ألم هذا الفراق المحتوم القادم ينخر أحاسيسه باستمرار.

قال عظمات "تصبح على خير يا أبي، تصبح على خير يا "تحمادا" – وضع مراد يداً حانية على كتف الشاب، وانصرف عظمات.

لم يكن مراد بحاجة إلى تأنيب صديقه. فهو يعرف مقدار الحزن في قلب أحمد، وكل ما يستطيع عمله هو مساندته.

"الموضوع الذي احتاج إلى الحديث معك بشأنه يتعلق بابنك البكر، كازبك" وجه مراد أفكار أحمد نحو مسائل أخرى. "إنها فتاة في منطقة التشيجيم. رحلات الصيد هذه..." وابتسم.

"غريب! ما الذي أوصله إلى ذلك البعد! لماذا لم يستطع أن يعثر على فتاة محلية!" بات أحمد يعجب مما إذا كان مقدراً لكل أولاده أن يغادروه. "إنه يسبب المتاعب على الدوام – ويخالفني باستمرار!".

حاول مراد أن يمازحه "لا بد وأن ذلك يسري في دمه. على ما أذكر، ارتحل أبوه كل المسافة من الكوبان ليجد نفسه زوجة بين الشيشان الجبليين. هل تذكر تلك الأيام...؟ لقد قادني عظمات إلى إعادة التفكير فيها...".

كيف يمكن لأحمد أن ينسى الشغف؟ كيف ينسى الحرية؟ الروح المتمردة لتلك الحملات؟ هو ومراد يقاتلان جنباً إلى جنب، وقد عقدت تسيما ومدينا ذراعيهما كل على خصر الأخرى، وهما ترقصان...

تحدث مراد بإقناع رابح "لا يختلف الأمر مع ابنك، إنه واقع في الحب بنفس المقدار وليس لديه من يساعده. لقد جئت لأستأذنك في التوسط نيابة عنه. لأطلب يد الفتاة. فهل من اعتراضات؟".

فوجئ أحمد بحماس مراد "ولكن من هي هذه الفتاة؟ من هما أبواها؟ هل هما في منزلة "الوَرْق" الملائمة؟ هل نعرفهم؟"

عندما رأى التخابث يتضاحك في وجه مراد، لم يتمالك نفسه من الضحك هو الآخر. أدرك فجأة أنه يتصرف بالضبط مثل أكثر النبلاء القباردي صرامة. وفي واقع الأمر، تماماً كما كان أبوه يتكلم.

"آه يا مراد، هذا ما يفعله الأبناء بالرجل!".

ندم أحمد على كلماته الغبية. ضحك الصديقان بعد انحسار التوتر وشربا "الباخسما" بنهم.

أصبح مراد في هذه اللحظة قادراً على الثرثرة (وهو ما كان بارعاً فيه في الظروف المناسبة)

"إنهم من آل أنزور في التشيجيم. هي عائلة طيبة وملائمة كلياً. لديهم تلك الابنة وحدها وهما غير متحمسين طبعاً لرؤيتها تذهب بعيداً...."

زمجر أحمد وغطى عينيه بيديه "ستكون مدللة. ستكون متسلطة، تماماً كما كانت أختي مع أبي – أنت تذكر أختي أفواسا، لقد تحدثت عنها كثيراً. إنها سبب كل متاعبي...".

قال مراد بقوة "هراء، لقد أدى خروجك من موطنك في الكوبان إلى صقل شخصيتك. كما سيكون بالنسبة إلى عظمات. يقول لي الناس أن هذه الفتاة ذات جمال نادر، وأنها ستكون صنواً رائعاً لابنك. على أية حال، فإن العائلة غاضبة على كازبك بكل الاعتبارات بسبب تقربه من ابنتهم".

قال أحمد محتداً "ليس من سبب يدعوهم إلى ذلك!".

"طبيعي أن ذلك ما سيوضحه وفدنا. لقد فكرت في اصطحاب تيمرقان على أساس أنه كبير السن و "وَرَق" يحظى بأقصى درجات الاحترام. آمل أن لا يكون أضعف من أن يقوم بالرحلة... وكذلك الأخوين شامرزا، لأنهما من "الأديغه" الأغنياء المميزين..."

قاطعه أحمد، وقد بدأ فجأة يزداد اهتماماً بالفكرة المؤدية إلى إقناع آل أنزور بأنه، اي أحمد، رجل عالي المقام ومحترم في هذا المجتمع، وأن أياً من أولاده، هو لقطة حتماً. وربما يكون أفضل بكثير من آل أنزور:

"نعم، تلك خطة جيدة، ولكنني لو كنت مكانك لاصطحبت أيضاً شخصاً من عائلة قانوقا من الباخسان، إنهم يمتون بصلة قرابة إلى آل أنزور. وسوف يسعدهم أن يلاحظوا اهتمامنا بأقاربهم".

ضحك مراد ملء قلبه. لأن "القانوقا" زبائن جيدون عند أحمد، وهي عائلة ثرية جداً. وبذلك يعلن أحمد عن منزلته، عن اتصالاته، وعن نجاحه بدون أن ينطق بكلمة جشع.

"حسناً، سأقوم بإجراء الترتيبات"

احتضن الرجلان بعضهما بعضاً بمحبة وانصرفا كل لشأنه.

***

الفصل الرابع

وقف أحمد ومراد بين "الورْق" الآخرين، نبلاء شعب الحابسا، ينتظرون مخاطبة الأمير وتيمرقان لهم.

سأل أحمد صديقه "أنت فعلاً ليست لديك أية فكرة عن سبب استدعاء أخيك لنا".

"لا شيء. إن عمر يحافظ على قواعد الحكم بمنتهى الحزم. استعلم ما يمكنني، لكنه لا يحابيني بأية معلومات خاصة".

خرج أمير الحابسا إلى نور الشمس مرتدياً أفخر الملابس ومحاطاً بالكبار. ساعد الخدم تيمرقان في الجلوس على مقعده. كان عقله ما يزال حاداً وحكمه سريعاً برغم هزال جسمه. ألقى أحمد بنظرة باتجاه مراد، الذي حاول أن لا يظهر قلقه على الرجل المسن.

أعلن الأمير بنبرات جادة "أيها الأخوة، إنني أحمل إليكم بعض الأخبار السيئة هذا اليوم. كما سبق وأن عرف بعضكم، فقد هاجم القوزاق قرية شركسية إلى الجنوب من هنا تحت ذريعة أن هؤلاء الشراكسة يساعدون في غارات الشيشان على "الستانيتزا" العائدة إليهم. يحتمل أن نكون معرضين للخطر". أشار الأمير إلى تيمرقان لكي يستمر في التفاصيل.

قال أحمد "لقد فهمت هذا الأمر، كان علينا أن نتنبه من زيارة فون كلابروث".

هزَّ مراد رأسه نفياً، ليس هذا ذنب كلابروث أو خطؤه. إنه في طريقه إلى موزدوك: هذه سياسة يجري توجيهها من مكان آخر. ماذا يخبرك أنور؟".

قال أحمد بنظرة تحذير جانبية "صه...".

كان تيمرقان قد بدأ يتكلم ".... باشروا ببعض الاستعدادات فوراً. يجب أن نقوم بتخزين بعض المؤن ونتجنب أية مصادمات مع الروس. يا مراد، إنصح أصدقاءك بأن يتوقفوا عن إرسال المساعدات إلى الشيشان لفترة قصيرة على الأقل. يجب أن لا يعطى الروس أي عذر لمهاجمة بلادنا الحابساي".

أبقى أحمد نظرته مثبتة إلى الأرض. فقد كان توجيهه الملاحظات إلى مراد الحابساي بالمولد، وليس إليه، المتلقي الواضح لها، ينطوي على الكثير من الذوق والنزاهة.

لقد كان سبب المشكلة هو الشاب أنور. يعرف أحمد أن لابنه الأوسط أكثر من مجرد صداقات متينة مع أقربائه الشيشان. كان يقف في صفهم سياسياً. عندما كان أنور يأخذ الجياد "لتسويقها" في المعارض المحلية، ويتغيب أطول مما ينبغي، كان الجميع يعرف أنه باع الأمهار إلى الشيشان أو وهبها لهم، أثناء انتظارهم له في موقع متفق عليه مسبقاً على الطريق. أبقى الأمر سراً لأنه لم يشأ أن يعرض موقف أبيه للمساءلة.

استطرد تيمرقان "... إذا كانت الحرب قادمة لا محالة، يجب أن نكون مستعدين. نحن بحاجة إلى الوقت حتى نتشاور مع الأمراء الآخرين".

في تلك اللحظة، شتم أحمد بصوت عالٍ والتفت النبيل إليه، وقد أذهلته المفاجأة

"لقد أرسلت لتوي قطيعاً من إثني عشر جواداً عبر نهر السونجا! لقد كانت مرسلة إلى بعض رجال الأنجوش! ما كنت أعلم...!"

سأل الأمير عمر "منذ متى كان ذلك، يا أحمد؟"

"منذ فجر الأمس. ليست هناك طريقة يمكننا استرجاعها بها الآن. إن اثنين من رجالي يصاحبونها".

فكر تيمرقان بعناية "ربما تكون هناك مشكلة إذا تم اعتراضها. وقتها فقط سنعالج الأمر".

"أيها الأخوة، علينا أن نحافظ على الهدوء ولا حاجة هناك لأثارة الذعر بين صفوف أهلنا. فلنأمل أن نعرف المزيد عن نوايا القوزاق في الأسبوع القادم عندما يعود مرسلنا من موزدوك".

تماماً مثل الملاً في القرية الشيشانية، كانت لدى أمير الحابسا شبكته الخاصة من المخبرين. هي علّة مستوطنه في الحياة القفقاسية، كل ذلك الهمس والمراقبة ونقل الأخبار... الشك، الخوف، الإشاعات والإشاعات المضادة، كلها كانت جزءاً من الحرب النفسية التي يستخدمها الجنرالات الروس بنشاط – يرسلون شخصيات مثل فون كلابروث، أو يجربون البعثات الدبلوماسية– إلى الأمير، ومحاولة خلق العداء بينه وبين جيرانه.

ركب مراد وأحمد خيلهما وانطلقا عائدين إلى البيت.

زمجر مراد "لو أنني كنت أصغر بعشرين عاماً فقط".

"نعم، لقد فكرت في نفس الموضوع، لكنني أخشى أن تكون أيام قتالنا قد انطوت". توقف لينظر إلى رف من الأوز البري يتهادى من فوق رأسه في الأعلى، متجهاً إلى نهر التيريك. "عندما أفكر في حياتنا السابقة هناك في أعالي الجبال، أتعجب كيف بقينا أحياء. لقد حظي أبناؤنا بحياة غاية في السهولة بالمقارنة. حتى أنور، وهو المشتعل حماساً – لكنه لا يمتلك أية فكرة عن حقيقة

الحرب. أما بالنسبة لكازبك – فإن أكثر كمية شاهدها من الدماء طيلة حياته ربما انبثقت من بطن غزال اصطاده بالرمح. كيف سيتصرفون إذا اندلعت حرب حقيقية؟".

هز مراد رأسه "أفكر في جعفر وتيمور بنفس الطريقة. ومع ذلك فمن الخطأ أن نرغب في أن يمتلكوا خبرة القتل. يجب أن نكون سعداء بالسلام. يجب أن نكون سعداء بنجاتهم كلهم من الطاعون... لقد كانت الحياة مباركة ورائعة بالنسبة لأولادنا".

شعر أحمد بالوجوم "لن يستمر ذلك مدة أطول كثيراً".

قال مراد "لم تفهم قصدي" وهو يتكلم مع صديقه بحزم، فقد كانت هناك لحظات يلمح فيها ذلك المزاج المظلم الذي سيطر على أحمد في سنوات شبابه المبكرة، وأصبح يخشى من أن تعود إليه مع توالي السنين، لتعكر صفو حياته. "إن لديهم حياة رغيدة هنا في الحابساي وعليهم أن يحموها. ذلك وحده سيهبهم الشجاعة والمعنويات العالية للمعركة عندما يحين وقتها. إن لديهم الكثير ليقاتلوا من أجله".

"ربما تكون على حق. إن أنور يتململ متحيناً الفرصة للانقضاض على "الجاور"".

"وماذا عن كازبك؟ ابنك البكر؟ كيف يتعامل مع رفض آل أنزور التشيجيم له!".

زمجر أحمد "بشكل سيء. إنه تعيس للغاية وأمه لا تفتأ تلح علي. وأنا أقول لها على الدوام أنك فعلت كل ما هو ممكن".

استعاد مراد بأفكاره الوقت الطويل الذي قضاه مع تيمرقان في الدبلوماسية مع آل آنزور: الوجبات التي تناولوها: المحادثات الرسمية المنمقة بالمدائح التي جلسوا خلالها – وكل ذلك حتى يقال لهم، بكل أدب وحزم، بأن الفتاة موعودة إلى "وَرْق" محلي.

قال بخيبة أمل "آمل ذلك"

قال أحمد مغتاظاً "ما زلت أعتقد أنه كان من الأفضل لو صاحبكم "القانوقا" من الباخسان".

"لقد كانت الأسباب التي قدمها وجيهة. ما كان باستطاعتنا الإلحاح في الموضوع".

"هل صدقت فعلاً قصة مرضه؟".

نفض مراد كتفيه: "لا يهم ما إذا كانت صحيحة أم لا. إن "الوَرْق" يحترم رغبات "الوَرْق" الآخر في مثل هذه المسائل. هو لم يرغب في القدوم معنا. مهما كان السبب. ذلك وحده سبب كاف!".

لم يستطع أحمد أن يقاوم الضحك. فهذا الموضوع نموذجي من دبلوماسية مراد.

"حسناً، لقد اصطحبت الأخوين شامرزا، وما كان بإمكانك أن تصطحب وفداً أكثر تشريفاً لهم من ذلك، وقد عملت ما بوسعك، أنا واثق من ذلك. ليس بإمكاننا عمل المزيد. بصراحة، لو أن شاباً أحسّ بما يحسّه كازبك في الكوبان، لكان حمل الفتاة في عملية خطف بسرعة البرق بحلول هذا الوقت. ربما أن كازبك ليس واثقاً إلى هذا الحد حتى الآن...."

"أيها الذئب العجوز! أنت لن تتغير أبداً. طبيعي أن تكون الفكرة قد خطرت ببالي، وأنا واثق أنها خطرت لكازبك – لكن فكرة في درجة المخاطرة!".

جاء رد أحمد قاسياً "أهو يريدها؟ يجب عليه أن يستحقها ويحصل عليها برجولته وكأنما حياته كلها وقف على الأمر. وإلا فإن عليه أن يبحث في مكان آخر حيث يكون أكثر ملاءمة!".

لم يجادل مراد. فقد ظل يتمنى لو أن أحمد لم يعتقد على الدوام بأن حياة أبنائهم كانت أسهل مما يجب. فلا أحد يعرف مطلقاً ما يخبئه المستقبل.

***

في هذه اللحظة، كان كازبك وأنور مع تيمور، الابن الأصغر لمراد، مندمجين في العمل الذي يفضله أبواهم. كان أنور وتيمور متقاربين في العمر لكنهما الأكثر تناقضاً في الطباع، وهو السبب المحتمل في أنهما يتفقان بشكل ممتاز، ووافقا على المشاركة في هذه المغامرة المجنونة. فحيث كان أنور جدياً، فإن تيمور يستخف بكل شيء: عندما يرغب أنور في السرّية ويحب المؤامرات، فإن تيمور عاطفي، ذو قلب مفتوح وصريح في كلامه. كان يمتلك طبيعة أمه مدينا الإيجابية النشيطة،ومع ذلك، فلأنه ابن مراد بحق وحقيق، فهو مقاتل يحسب له ألف حساب.

"إذن. فقد قالت نورسان أنها ستكون مستعدة. أنت متأكد من النهار - أليس كذلك؟" قال تيمور وهو يمازح كازبك، الذي كانت عيناه مغمضتان بسبب نور الشمس، ويركز بكل حواسه على طريقه المستقبلي بكل معاني الكلمة.

هب فيه كازبك "لا تكن سخيفاً مضحكاً، طبعاً أنا متأكد من النهار!".

رفع تيمور يديه ليهدئه. "مجرد نكتة..." استدار نحو أنور، الذي كانت فرسه تركض خبباً براحتها إلى جانبه: "منطقة ريفية جميلة، هذه التشيجيم" قال بمرح ثم صاح في "بشله" كان يقود عربة ملأى بالتبن على الدرب المطروق بكثرة "يوم جميل".

قال أنور بقناعة "لو كان عظمات معنا لاستمتع بهذه المغامرة، سيشعر بالأسف لأنه لم يشارك فيها".

شكك كازبك بهذا القول "لو كان هنا لا أعتقد أنه كان سينضم إلينا. من باب الاحترام للوالد".

قال تيمور "يحتمل أن لديه ما يكفيه من المغامرات لنفسه، لا بد وأنه قطع مسافة في الكوبان بحلول هذا الوقت".

سحب قطعة جبن من خرج سرجه، وعندما شم الآخران رائحتها، أدركوا جميعاً أنهم يتضورون جوعاً. فقد صحوا قبل الفجر بوقت طويل للتأكد من أنهم سيغادرون الحابساي بدون أية مشاكل، وحتى الآن، لم يترجلوا بل اكتفوا بترك خيولهم ترعى العشب الندي الكثيف على جانب أحد الجداول.

قال تيمور أثناء ازدراده اللقيمات "أنت تعرف أن كازبك على حق: التقاليد لا تسمح بخروج جميع الأبناء في مهمة واحدة مخافة أن يقتلوا كلهم" ثم ذكرهم بمرح غامر "قد يبدو ما نفعله اليوم كمغامرة لكنه قد ينطوي على جدية مفرطة. يمكن حتى أن يشكل خطورة".

ابتسم الرجال لبعضهم بعضاً باقتناع.

قال أنور "حتى ولو! فليكن خطيراً. لست مذعوراً".

كان كازبك قد بدأ يشعر بنفاذ الصبر "لا يفترض أن نتعرض لأية متاعب طالما حضرت نورسان إلى مكان الالتقاء في الوقت المتفق عليه".

قال تيمور "طالما أن عائلتها لم تكتشف ما يجري... هل سيطاردوننا، إذا اكتشفوا الأمر؟".

ضرب كازبك جواده بكعبيه لمعاودة المسيرة "حتماً! إن أملنا الوحيد في الهروب هو إذا لم يكتشفوا غيابها حتى الصباح. بحلول ذلك الوقت يجب أن نكون قد خرجنا من بلاد التشيجيم وعلى طريقنا إلى البيت".

ارتسم العبوس على وجه أنور.

التمعت عينا كازبك "سيخرب ذلك مغامرتك - أليس كذلك، يا أخي المقاتل الرائع؟ استفزه كازبك ممازحاً.

انطلق الفرسان الثلاثة ضاحكين ملء قلوبهم عدواً على خيلهم باتجاه مغامرتهم.

على أية حال، وبعد ركوب ساعات عديدة، وانتظار طويل حتى يحل الغسق، أصبح الشابان الأصغر سناً أقل دموية. بقي تصميم كازبك العامل الرئيس في التزامهم بالخطة. توقفوا مرة أخرى عند سفح الوادي حيث تقع قرية نورسان.

قال كازبك "يكفي الاقتراب إلى هذا الحد، سأذهب من هنا لوحدي مشياً على قدميٍّ. انتظرا هنا كلاكما بهدوء – لا تتحركا ولا تفعلا أي شيء، حتى لو تأخرت. لم يحل منتصف الليل بعد وربما لا تحضر مباشرة".

قال تيمور "حسناً يا كازبك، سوف ننتظر" بطريقة ما، لم تكن احتمالية انقضاض مجموعة من التشيجيم الغاضبين عليهم هذا الغسق في هذه المنطقة الحرجيّة الموحشة، لم تكن تثيره بقدر ما أثارته في وقت أبكر من هذا اليوم. سقطت الظلال الطويلة عبر الوادي الفسيح: ترددت أصوات الشلالات في أذنيه، وبدأ الجو يبرد.

انطلق كازبك متلصصاً. استراح أنور وكازبك فوق تلة عشبية، وانتظرا. لم يتمكن أحد منهما من التفكير بموضوع مناسب من المحادثة لإبعاد تفكيرهما لبعض الوقت. بعد ذلك سمع أنور ضجة، أمسك بالقاما بقوة. لكنه كان كازبك – عائداً في وقت غير متوقع.

قال بوجوم "لدينا مشاكل".

سأل تيمور بصوت متوتر "ماذا جرى؟".

"هنالك لجنة استقبال بانتظارنا فوق قمة السلسلة. استطعت أن أعد أربعة رجال. واحد مستيقظ، والآخرون نائمون.

أصفّر وجه أنور، بفعل الإثارة وليس بفعل الخوف. اكتشف فجأة أنه يستمتع بالمخاطرة فسأل "ماذا نفعل" متأهباً لأي عمل.

جلس كازبك متفكراً على حقويه لبعض الوقت، قريباً منهما.

"لقد أحضرت معك قطعة من الحبال، أليس كذلك يا أنور؟"

طأطأ برأسة موافقاً، فهو في التحليل الأخير مدرب الخيول "لدي واحد مربوط إلى سرجي في كل الأوقات".

التمتعت عينا كازبك الرماديتين الضاربتين إلى الزرقة. "ممتاز. لنترك الخيل هنا. أحضر الحبل واتبعني. لن يكون ما يدور في ذهني صعباً...!".

تحركوا إلى الأمام بدون أي صوت حتى بلغوا شجيرات كثيفة، وهي المكان الذي استطاع منه أن يتلصص على "لجنة الاستقبال". أشار كازبك بدون كلمات إلى الاثنين ليبقيا حيث هما، ثم تقدم إلى الأمام، وسحب القاما".

أصيب أنور بالصدمة، فقد فكر للحظة مجنونة أن كازبك ينوي أن يهاجم. لكن كازبك شاهد نظرته فهز رأسه بسرعة. قلب "القاما" في يده بحيث أصبح المقبض المستدير إلى الأمام – وهو بذلك أداة جيدة غير حادة...

تبادل أنور وشقيقه الابتسامات.

زحف كازبك خلف الرجل التشيجيم الواقف خفيراً فوق رفاقه النائمين. وضع يده فوق فمه بذراعه وأسقطه إلى الأرض بقفزة واحدة ثم ضربه بمقبض القاما على رأسه، بحيث سقط الرجل مغشياً عليه بين ذراعيه. بعدها أشار كازبك إلى رفيقيه للإسراع بالقدوم وعمل الشيء نفسه مع الآخرين. خلال ثواني، كان المقاتلون الأربعة كلهم غائبين عن الوعي تماماً ومربوطين حول قاعدة البلوطة العتيقة وقد حشيت الكمامات داخل أفواههم.

وقف كازبك فوقهم، وقد وضع يديه على ردفيه. "أفترض من وجود هؤلاء الرجال أن نورسان ليست قادمة الليلة... أقسم بالله، أنني لن أعود بدونها" قال بشراسة.

ثار الدم في شرايين تيمور هو الآخر "هل تعرف أين يقع بيت أبيها؟"

عرف ثلاثتهم أنه لا خيار لديهم سوى الدخول إلى القرية وإخراج نورسان منها.

"نعم أعرفه" أجاب كازبك بحزم. "ولكن يجب أن ننتظر لساعة أو ساعتين أخريين حتى نتأكد من أن الجميع قد اطمأنوا وانصرفوا إلى النوم".

استلقى أنور وتيمور على بقعة طرية بسهولة ومقدرة الشاب النشيط وغطا في نوم عميق.

أما كازبك، فقد وقف حارساً عليهما، ولأن سعادته المستقبلية في الميزان، لم يجد صعوبة في البقاء صاحياً.

عند حوالي الثانية صباحاً، انطلق الثلاثة باتجاه القرية يركضون قفزاً بخطوة منتظمة. كان قلب أنور يخفق بسرعة، ولمرة في حياته، جف معين تيمور من النكات. لم يكن سعيداً جداً بضربه لمقاتل من التشيجيم، ضخم الجثة، على أم رأسه بينما هو نائم بلا حول ولا طول، مع أنه أدرك أن قضية كازبك تستحق ذلك العمل – فقد كان شرف حب صديقه على المحك. تملك تيمور إحساس بأن أباه سيشتعل غضباً من ثلاثتهم.

قال كازبك "سوف أتسلق الجدار"، فقد وصلوا إلى زريبة طويلة مطلية باللون الأبيض مجاورة للمبنى الرئيس لعائلة نورسان. كان كازبك ينوي أن يدخل إلى الساحة ويزحف نحو جناح النساء.

"تيمور، قف أنت هنا للحراسة عند البوابة. أفضل من هذا، أنور، ربما يجب عليك أن تعود إلى المجرى المائي وتحضر الخيل

إلى هنا. يجب أن تكون قد عدت إلى هنا عندما أخرجها إلى هنا، هل فهمت. جاهزاً للفرار الفوري. في حالة قيام متاعب...

"لا تقلق يا أخي. سأكون هنا".

أسرع أنور مبتعداً وترك تيمور ليدفع كازبك لاعتلاء البوابة العالية المقفلة. ستبدأ جوقة الكلاب القباردية في أية لحظة عويلها المألوف. لم يكن تيمور راضياً عن الطريقة التي آلت إليها الأمور: تدخل كازبك، أنور لوحده في الحرش، وهو نفسه عالق، هدفاً سهلاً عند هذا الجدار الغريب. ظلت يد تيمور تعبث بعصبية بمقبض "القاما"، جاهزة للإشهار عند أقل بادرة للمتاعب.

تحرك كازبك بتسلل خفي جداً باتجاه جناح عائلة آل أنزور. ليس من المحتمل أن تكون الغرفة الأولى: الاحتمال الأكبر أن تكون في الثانية... لا أحد في الداخل. الثالثة هي مجرد غرفة تخزين. للحظة رهيبة تساءل كازبك عما إذا كانوا قد أخرجوا نورسان من القرية بكاملها، بمجرد أن خمنوا أنه قادم لاختطافها.

عاد إلى الشباك الثاني، إلى الغرفة التي حسبها خالية. كان مستعداً لخلع مصاريع الشباك والتسلق إلى الداخل لو اضطر إلى ذلك.. نقر بلطف. سمع صوت رفيف ثياب جعل قلبه يتوقف عن الخفقان.

"كازبك! كازبك!... لقد جئت... إنني جاهزة...".

امتدت يد بيضاء والتقت يده عندما فتحت نورسان المصاريع. وجهها شاحب، وقد تنفخ لشدة البكاء، مما أوضح أن أباها قد جعل حياتها تعيسة منذ أن اكتشف أنها تنوي الخطيفة. كانت الغرفة خالية والباب مغلقاً – موصداً بدون شك. بدأت نورسان بالتكلم لكن كازبك وضع يده فوق فمها، وبدون إبطاء، حملها خارجاً بها من الشباك المفتوح. أطبقت يده الكبيرة القوية على يدها، وركضا بسرعة نحو الجدار. كان فرح كازبك غامراً لدرجة أنه حملها فوق البوابة العالية كأن لا وزن لها وقفز وراءها بقفزة واحدة. لحسن

الحظ كان أنور منتظراً، فركب كازبك من فوره، وبحركة كاسحة رفع نورسان ليجلسها عبر مقدمة سرجه.

وقتها بدأت الكلاب. ربما اشتمت رائحة الخيل، أو أحست بأنفاسها – مهما كان السبب، كانت الضجة كافية لإيقاظ القرية بأكملها.

قال تيمور بمرح وهو يقفز إلى سرجه "أوبس!" لم يكلف نفسه عناء وضع قدميه في الركاب، وهجم مبتعداً في ظلمة الليل خلف كازبك وأنور اللذين بدأآ يختفيان بسرعة. أصبحت عودة الفرسان إلى قرية الحابساي مادة للأسطورة العائلية. شق كازبك طريقه نحو باب بيت الأمير باحتفالية كبيرة، وقد أحاط محبوبته نورسان بذراعيه حماية لها. كانت قد ارتدت خمارها فوق وجهها من باب اللياقة: فقد خرجت كل نساء القرية، الصبايا والعجائز، "الوَرْق" و "البشله" من بيوتهن لمشاهدة هذه الفتاة التي اشتهر جمالها بحلول هذا الوقت، والتي استطاعت أخيراً أن تقهر ابن أحمد الشجاع.

ظهر تيمرقان عند باب ضيعة الأمير. "كازبك، تيمور، أنور... لقد كنتم تصطادون...!" حاول أن يظهر بمظهر الصارم، لكنه أخفق كلياً: فقد طوقت ملامحه المتغضنة ابتسامة كبيرة.

أجاب كازبك بصوت واضح "أيها "التحمادا"، أنني حضر عروسي المقبلة لأضعها تحت حماية أميرنا، كما تقضي بذلك التقاليد. فهل سيقبل أمير الحابسا ثقتي به؟".

أومأ تيمرقان برأسه "سيقبل الأمير ذلك يا كازبك. والآن أدخل الفتاة المسكينة إلى الداخل قبل أن تسقط من الإعياء!".

ذلك صحيح: عند سماع هذا التبادل العلني بالكلمات، تأرجح رأس نورسان على صدر كازبك، من جراء الضغط العاطفي بقدر ما هو من السرعة المرعبة لركوب ذلك اليوم.

خرجت على الفور خادمتان من جناح الأمير وأسرعتا نحو نورسان. انتظرتا عند ركاب كازبك بينما أنزل "جائزته" إلى ذراعيهما بحب واحترام في كل حركة يقوم بها. استطاع أن يحظى بنظرة واحدة أخيرة لوجهها الخجول، نصف المقنّع. أكدت له ابتسامة نورسان الخجولة أنه قام بالعمل الصائب. بعد ذلك أخذتها النساء بعيداً بسرعة.

كان تيمرقان حازماً بشأن التقاليد. "أنت تتحدث عن التقاليد يا كازبك. لذلك – اختبئ الآن وحتى ليلة زفافك. لقد انتهت مهمتك". ثم همس له بصوت خفيض "أحسنت صنعاً، أيها الفتى" وأومضت عيناه، في إيماءة إلى الشيطنة التي قام بها هو نفسه أيام شبابه. ثم رفع صوته ليسمع المراقبين المجتمعين مضيفاً "ما يبقى الآن هو عمل الرجال المسنين!".

***

كم عانى كازبك في الأسابيع التي تلت. لم يكد يحتمل الإيقاع البطيء للدبلوماسية القباردية التي تجلت حول الخطيفة التقليدية. كل ما يعنيه ذلك له هو أنه لم يكن يتمكن من رؤية نورسان – وأن تكون قريبة منه إلى تلك الدرجة، ومع ذلك بعيدة، ذلك هو منتهى أنواع الكبت والإحباط.

في البداية توجب عليه مواجهة أبيه. لم يكن أحمد قد شاهد قدوم نورسان في ذلك اليوم، لأن مزرعته تقع على مسافة لا بأس بها من القرية. على أية حال، فالإشاعات تنتشر على أجنحة، أسرع من حوافر حصان كازبك، فعندما وصل إلى البيت هرع والداه كلاهما لاستقباله وأنور عند البوابة.

صرخت تسيما بهما "يا لكما من صبيين شقيين!" لكنها لم تستطع أن تخفي إحساسها بالإثارة.

غمغم أحمد "سيترتب علينا مبلغ رهيب، هل تدرك أن هذا الوضع يعطي أنزور تشيجيم الحق في طلب أي مبلغ على الإطلاق كصداق؟".

"أنا آسف يا أبي، لكنني ما كنت أقدر على خسارتها".

حدَّق أحمد بقوة في ابنه لمدة بدت وكأنها الأبدية. ثم صفعه على ظهره وتكلم بخشونة. "حسناً، اغربا عن وجهي. اذهب وساعد أنور في العناية بالأمهار. سوف اضطر إلى طلب عقد اجتماع مع الكبار"

اتجه كازبك إلى حصانه، لكن تسيما تباطأت في الساحة. سحبت أنور إلى ناحية.

همست له "هل استطعت أن تلقي عليها نظرة؟ ما هو شكلها؟"

فكر أنور قليلاً "ممم... جميلة. إذا كنت تحبين البنات ذوات الشعر الأسود... ليست من الطراز الذي يستهويني....".

ضحكت تسيما "وهل أنت خبير مجرب، أيها الشاب؟".

"آه لا يا أمي. أنا أحب الشعر الفاتح اللون. مثل شعرك... سوف ترين! سوف أحضر لك عروساً أخرى قريباً".

"يا لك من ساحر. هيا اذهب عني".

لحقت تسيما بزوجها "أرأيت، لقد كنت محقة. عرفت أنه سيفعلها!".

سمح أحمد لنفسه أن يمسك بيدها بعد أن اطمأن إلى ابتعاد الولدين عن ناظريهما. "أنت دائماً محقة في هذه المسائل. المشكلة هي أنني الذي سيدفع..." انطلق ليقابل الكبار، وهو يتذمر ويبتسم في نفس الوقت.

قرر تيمرقان والآخرون أنه حسب "الخابزه" في مثل هذه الحالات الشديدة، يجب إجراء اتصال مباشر مع عائلة نورسان.

أرسل رسول مباشرة إلى التشيجيم لإخبارهم عن مكان وجود نورسان، وأنها تحظى بالرعاية من قبل عائلة الأمير المباشرة.

خلال أيام قليلة حضر مرسال من عشيرة أنزور إلى قباردا الصغرى للتأكد من أن نورسان بخير، وأنها ليست أسيرة رغم إرادتها.

هتف كازبك مخاطباً أمه "طبعاً هي سعيدة لكونها هنا! وستكون سعيدة لو يسمح لي على الأقل بالتحدث إليها!".

"إهدأ. لقد تسببتَ بكل المشكلة، فاتركنا الآن نسوّي هذا الأمر بالطريقة اللائقة. إنها العادة، لقريب أن يتأكد بطريقة رسمية. هكذا تمت الأمور على الدوام".

لزم كازبك الصمت، لأنه يكن الاحترام "للطريقة"، ولم يدفعه للتحدث بسوء إلا شغفه.

قال له تسيما بقسوة "حري بك، "كورق" مقبل على الزواج، أن تسيطر على لسانك أكثر من ذلك..".

"آسف يا أمي". عرف أنها محقة، وأقسم مرة أخرى على أن يتحسن.

كان أنزور حميد، وهو عم نورسان، مفاوضاً حريصاً، وإن لم يكن عميق التفكير. أحضر معه إحدى خادمات نورسان التي يفترض فيها أن تبقى مع العروس المستقبلية وتساعدها على التحضير للزفاف. فعلى الرغم من تصرف كازبك غير التقليدي، فسوف يتم تزويجهما هو ونورسان بكل الاحتفالات المستحقة لهما في نهاية الأمر. فقد كان كل واحد يرغب في ذلك في قرارة نفسه.

"نحن مقتنعون، القرار واضح، تريد الفتاة أن تبقى وقد تمت تصفية خلافاتنا"، اختتم حميد كلامه، وبعدها بدأ تيمرقان عملية انتقاء الموفدين الذين سيعودون إلى التشيجيم للتفاوض على صداق العروس.

استغرق هذا الأمر عدة مباحثات أخرى بين الكبار. أعتذر تيمرقان عن الذهاب، لأنه ومراد كانا ضمن الوفادة الأولى التي انتهت إلى الرفض. لم يعتقد مراد أنه مناسب لأن ابنه قد شارك في عملية الاختطاف. لم يكن بإمكان أحمد أن يجادل عن نفسه. لم يكن هناك شخص في منزلة تيمرقان من حيث الرتبة والامتياز. لذلك ضغط الأمير عليه للاستمرار في المهمة لأنه بدون شك أكثر المفاوضين احتراماً وحكمة لديهم.

لم يستطع كازبك أن يفعل شيئاً سوى إلا أن يقف ويستمع باحترام بينما كان أحمد يخبره بمباحثات الكبار.

شرح له بجدية "يجب أن تفهم، أن العائلة المهانة يمكنها أن تطالب بأي ثمن. وإلا، فإن الشجعان الشباب المتهورين أمثالك سيجوبون البلاد ويسرقون العرائس بدون وازع. نحن لا نستطيع أن نسمح بذلك، يا كازبك. ليس هذا مثالاً نريد أن نرى الآخرين يتبعونه".

قال كازبك بتواضع "أفهم ذلك يا "تحمادا". لأن كل ما كان يهمه هو بعد قيامه ببادرته اليائسة الوحيدة، هو تصويب الأوضاع، وأن يستطيع هو ونورسان أن يكونا سوية. إذا وقع خلاف بين أسرتيهما، فأي سلام سيبقى لهما؟".

قبل تيمرقان تكليف الأمير بالذهاب إلى آل أنزور بكل مظاهر التواضع. إذ كان يؤمل أنه بسبب فقدان الأمن في بلاد القبارداي. وبسبب اعتداءات القوزاق الأخيرة، فإن أنزور التشيجيم سيتصرفون بعقلانية عندما يصل الأمر إلى تحديد الرقم. كل ما كان كازبك يقدر عليه هو الانتظار مرة أخرى. لقد دام غياب تيمرقان أسبوعاً: فقد كانت ضيافة التشيجيم مشهورة، والإهانة موجعة.

في نهاية المطاف – عاد الوزير الأول بأخبار مفرحة مفادها أن المسائل قد تم تسويتها، وأنه بالإمكان إجراء الزواج بعد أسبوعين.

شاركت القرية بأكملها في التحضيرات.

سيحضر التشيجيم بأعداد غفيرة لحضور الزفاف، فقد سويت المسائل بطريقة ودية إلى درجة أن تيمرقان وطد عرى الصداقة بين العشيرتين، وسيكون رمز هذه الصداقة زفاف الشابين الأكثر وسامة وجمالاً: نورسان وكازبك.

بدأ الطبخ والخياطة: حياكة الأشرطة المخرمة: عرض محتويات صندوق عرس نورسان الذي صاحبته التأوهات: السجاجيد، الأقمشة، الخمار، والدثارات لأطفالها.

تلميع لجامات الخيل، تجديل أعراف الخيل وأذنابها: جلخ وشحذ السيوف و"القاما" بين الشباب، المتحمسين لأن يظهروا في أفضل صورهم:

الدموع الصامتة وذكريات النساء الأكبر سناً، أرامل المقاتلين الذين فقدوا في المعارك ضد القوزاق: تذكر الآمال الوردية التي سرعان ما اغتيلت:

الأحاديث الجدية بين الرجال المسنين، من كلا التشيجيم والحابساي، عن مخاوفهم حول المستقبل والأحفاد الذين يأملون أن ينعم الله عليهم برؤيتهم:

وأخيراً القبلات المتبادلة بين أحمد وتسيما، عند رؤيتهم مدى سعادة ابنهم البكر وهو يجهز ليوم زفافه.

أشرف كازبك على اللمسات النهائية للبيت الذي سيسكنه هو ونورسان على أرض والده. قام بطلاء كل الجدران باللون الأبيض ووضع مصاريع قوية للشبابيك حتى يجعلها آمنة ومريحة. في كل مكان يعمل فيه، يتخيل نورسان موجودة هناك: تتحدث إليه من قرب المدفأة، عند الشباك تلوح له مرحبة، في غرفة النوم تنتظره على استحياء لتضمه بين ذراعيها.

أخيراً أزف اليوم الموعود. بدأ الزفاف التيريكي بجمهور هائل من المهنئين من قرى الحابساي والتشيجيم، تجمع خارج بوابات مقر الأمير. طرد الشباب خيلهم على أطراف الجمهور جيئة وذهاباً، وهم يؤدون ألعاباً في الفروسية أحياناً لجذب انتباه الزوار، "الجيغيتور" المشاهير واقفين في السروج، ينحنون نحو الأرض، وألعاب وحيل أخرى. العديد من الفتيات الجميلات اللاتي ارتدين قبعاتهن الثمينة المطرزة، النقاب الأبيض المخرم، والأثواب الفضفاضة الطويلة، مفتوحة لتظهر تحتها الفساتين الحريرية الراقية.

وقفن بانتظار نورسان حتى تخرج. ظهرت أخيراً، وسبب ظهورها احتباس أنفاس جماعي، وموجة في الحشد. فقد كانت ترتدي التخريم الأبيض من الرأس إلى القدمين، لكن ما جعل الجمهور يحدق فيها كان بهاء وجهها الشاحب، وعيناها السوداوين الخجولتين اللتين تريان كل شيء مثل عيني غزال الجبل. لم يستطع أحد أن يشكك (لو كان هناك سبب للتشكيك) في أن نورسان رغبت في هذا الزفاف على أنه تتويج لأحداث حياتها كلها.

رفع "الحتياكوه"، رئيس المراسم، عصاه الطويلة إلى أعلى، وبدأ "الرجل – الوعل" الراقص ذو القرون رقصته بالخطوات المحترمة على مدى العصور، يدخل بين الشباب ويخرج، مصاحباً نورسان إلى زفافها.

بدأ عزف الموسيقى ومعه تصفيق الناس. بدأت مغنية عذبة الصوت تنشد "نحن قادمون بالعروس "واريدادا"، أيتها العائلة السعيدة، نحن نحضر العروس إليك..." اتكأت نورسان على أذرع الصبايا، اللاتي قدنها نحو ساحة القرية بحرص وكأنها قطعة من البورسلان الصيني (بدت فعلاً ثمينة وهشة إلى ذلك الحد). المزيد من الرقص في ساحة القرية، ثم تحرك الموكب قدماً نحو أسرة أحمد في موكب "النساشه" القديم قدم التاريخ.

تحولت ساحة منزل أحمد إلى حلبة رقص ومركز احتفالات: فقد احتل القسم الأوسط منها الراقصون الشباب حيث كانت الخراف الكاملة والأوزات السمينة تشوى على الأسياخ على الجانبين: تدفقت "الباخسمه" المشروب الوطني، بين الكبار والضيوف الجالسين على كراسي صغيرة في حلقات: وقد ملئت "أنات" شركسية إلى أطرافها بالأطايب والفواكه الموسمية المنمقة أمامهم. كان زفافاً تاريخياً استمر أكثر من سبعة أيام وسبع ليالي.

***

الفصل الخامس

انتظر أنور قدوم أصدقائه بجانب النهر. كان نهر التيريك عالياً: يوم صيفي نادر، ينبض بالحيوية بطنين النحل والريح الخفيفة تحرك مجموعات القصب عند حافة الماء. اكتمل جمع التبن وتخزينه، والذرة على وشك أن يتم حصادها: أثلام البرسيم الزهري والأبيض تحيط بحواف الحقول. الطاقة الحيوية في الهواء، الحشرات المتصاعدة في دوائر، الهواء الدافئ المتماوج. كلها تلائم إحساس أنور بالتوقعات. هناك حالة نفسية جديدة تنتشر بين أهالي الجبال بمن فيهم أنور، جعلته مضطرباً، متحفزاً للقتال. لقد ظلت الحياة حتى الآن رغيدة، ربما أكثر مما يجب. في نفس الوقت، فقد ضل الروس طريقهم. أصبحت قيادة جيوشهم في القفقاس أقل ثقة بنفسها، أكثر ميلاً إلى التسويات.

عرف أنور السبب. وهو أنه لم يترك في قيادة الجيش الجنوبي سوى رجال مسنين مسالمين – مثل القائد الحالي، رتيتشيف. لو كان هناك وقت مناسب على الإطلاق للشيشان لكي يضربوا ضربتهم، فهو هذا الوقت.

تأخر قدوم ليتش وزيلمخا: وهو مؤشر سيء. ترك أنور فرسه تشرب وجلس ينتظر وقد أراح بندقيته بين ذراعيه. كلاهما مقاتل قوي الشكيمة، ليتش وزيلمخا – في الواقع فقد كان ليتش دليلاً في صباه وشهد معركة كيزليار تحت رايات الشيخ منصور عندما كان مجرد صبي. عندما قضى أنور وقتاً طويلاً بين الشيشان، فقد كان ليتش هو الذي دربه على فنون الحرب، ولا يزال ليتش هو المقاتل الذي يعجب به أكثر من غيره. يشاركه في هذا الرأي زيلمخا، ابن

المقاتل العجوز آتي، الذي عمل دوماً كجاسوس للجبليين. بعد إصابته بجراح في معركة كيزليار، سئم آتي من حياة الوحدة، فاستقر واتخذ لنفسه زوجة. وزيلمخا هو ابنه البكر، في سن مقاربة لعمر أنور – الذي بلغ الثامنة والعشرين. علم آتي ابنة اللغة الروسية – بمساعدة الطبيب العجوز، باسل، فأصبح زيلمخا الذي ورث ملامح أبيه غير المميزة، جاسوس الشيشان، جرياً على تقاليد العائلة.

سيكون هذا اليوم مغامرة عظيمة. لم يكن أنور يطيق صبراً على الانطلاق. إن الثنائي ليتش وزيلمخا مزيج مثالي للغارات القتالية. فحيث ليتش صبور وقاسي، فإن زيلمخا حذر، صموت وواسع الحيلة. على أية حال، فقد ظل أنور يفتخر بأنه الفارس المتفوق، وأنه يضيف المحتوى إلى فريقهم: الاستراتيجية. فهذه الخطة بكاملها هي من صنعه وتخطيطه.

لقد أصابه الملل من الانتظار. إذا كان كازبك يفضل أن ينشئ عائلة ويحيا حياة "الورق" القباردي المثالي، فهو، أنور، كان يحترق بروح الثورة التي ورثها عن جده الشيشاني، وما كان يستطيع أن يستقر في عمله بمزرعة الاستيلاد. فقد تركت حياته في الجبال، أيام اندلاع الطاعون، انطباعاً لا ينمحي في روحه، فبقي على اتصال، يساعد أقرباءه بأفضل ما يستطيع بتزويدهم بأفراس طيبة: وتمرير أية أخبار يستقصيها حول تحركات الجنود الروس، وبناء شبكة من المقاتلين المتعاطفين بين صفوف القبارديين، الذين لم يكونوا جميعاً راضين عن سياسة كبارهم في ممالأة الروس ومسايرتهم. لقد راقبوا وانتظروا أشهراً، لمجرد وقت مثل هذا. إن الجنرال رتيتشيف (قائد خط الجبهة تحت أمرة القائد العام جودوفيتش) موجود في موزدوك وقد دعا جميع الكبار – بما فيهم أمير الحابسا الموقر، إلى وليمة. وهي مقررة لهذه الليلة: وهذا هو وقته المناسب لتوجيه ضربته.

سمع أنور خشخشة بين الشجيرات، لم تكن أعلى من صوت طير حجل ينقر التوت البري، لكنه عرف من فوره أن رفيقيه قد اقتربا. حول بندقيته إلى وضعية الإطلاق، ثم أقعى خلف الشجيرات منتظراً ظهورهما.

زحف ليتش إلى الأمام في المقدمة. طويل القامة، رفيعها، أسمر البشرة، كان جسمه الصلب يتلوى مثل حية كسولة بينما هو يشق طريقه بين الأعشاب الطويلة. هو رجل ناضج، في أواخر ثلاثينات عمره، وقد ظهرت الخطوط على وجهه منذ الآن بسبب التعرض لأشعة الشمس، والثلوج، والرياح، وبدت عيناه مثل شقين داكنين وهو يحملق حواليه، باحثاً عن علامات على وجود أنور، أو كبديل، على وجود كمين. ابتسم أنور لنفسه وقد أحسن الاختباء.

جاء زيلمخا خلف ليتش، أقدم أصدقاء أنور. لولا حجمه الصغير، لكان يتمتع بوسامة تدير عيون أية حبيبة باتجاهه. لكن زيلمخا، مثل أنور تماماً، لم يكن رومانسياً. فقد أراد أن يبقى حراً ليقاتل "الجاور". أطبق الفخ الذي كان أنور قد نصبه فجأة وابتلع زيلمخا شتيمة عندما علقت قدمه اليسرى بين الخيوط. قفز أنور واقفاً وأصدر صوتاً يشبه ثغاء جدي الماعز. جاهد زيلمخا بعنف بينما أمسك ليتش ببندقيته وأرجع مسمار الأمان فيها، جاهزاً للدفاع عن رفيقه.

صرخ أنور "أمسكت بك!" وقفز أمام صديقيه، مسروراً بأنه تمكن من خداعهما.

حرر زيلمخا قدمه بالركل الشديد وصرخ به "أيها التعيس!" وتدحرج على جانبيه فأمسك بأنور من كاحليه. سقط المقاتلان وتدحرجا فوق الحشائش، سعيدان بكونهما معاً مرة أخرى، ومتحمسان من احتمالية "عملية الإلهاء" الصغيرة التي سيقومون بها.

تذمر ليتش "سيطرا على نفسيكما، لدينا مسافة ركوب طويلة أمامنا: هل أحضرت لي مطية جيدة، يا أنور؟"

"نعم. إنني آسف لأن بالينا أصيبت بالعرج. كانت فرساً طيبة".

"سآخذها إلى أبيك غداً. هذه حجتنا لهذه الرحلة الصغيرة" وضحك ليتش.

قال أنور "سوف يستولد لنا من بالينا بضعة أمهار ممتازة، وعليه فليس الوضع بذلك السوء".

قال ليتش "هيا يا شباب، فلنمض في طريقنا" ومشى إلى حيث ربط أنور الجياد ثم ركب.

"إنها فرس قباردية أصيلة، أشكرك يا أنور". امتطى فرسه الجديدة بمهارة خبير وأدارها في عدة اتجاهات، وهو يختبر ردود فعلها" أظنها بدون اسم أليس كذلك؟"

هز أنور رأسه موافقاً "لا أستطيع أن أفكر في أمور مثل الأسماء عندما يكون لدينا عمل يجب تنفيذه! هيا بنا، ليس لدينا النهار بطوله...".

سأل زيلمخا "أين سنلتقي بالآخرين؟".

أشار أنور "بعد انعطاف النهر مباشرة. سأدلكما على الطريق".

ركب الشيشانيان وأنور في أمان بمحاذاة النهر إلى حرش من أشجار الزان. حيث اجتمعت كوكبة من المتعاطفين من القرى الأخرى الشيشانية، الإنجوش، واللاسغي، جاهزين ومنتظرين، مدججين بالسلاح. تعرف ليتش على اثنين من المقاتلين ولم يستغرق التعارف على البقية بهز الرأس سوى وقت قليل. بلغ مجموع أفراد الجماعة الغازية خمسة عشر مقاتلاً. انطلقوا بسرعة معقولة إلى المكان المعني، وهو مسيل ضيق على الضفة الشمالية لنهر التيريك، يتوسط المسافة بين موزدوك وايكايترينوجراد. تسافر

وسائط النقل إلى البلدات الكائنة على خط الجبهة عبر هذا الطريق: كانت الرحلة طويلة ومفضية من الجنوب صعوداً إلى ممر داربيل، متتبعة مسار نهر التيريك حتى تبلغ تحصينات الخط: ينحني النهر بحدة قرب بلدة ايكايترينوجراد متجهاً نحو الشرق ويصب في بحر قزوين.

اختارت الجماعة الغازية هذا الموقع لأنه بعيد عن مناطق الشيشان والإنجوش بما يكفي لأن لا يشير أصبع الشك إلى قبائلهم مباشرة – وبعيد بنفس المسافة عن أية قرية قباردية بحيث لا يلام جيرانهم أيضاً.

شرح أنور خطته "لقد دعا الجنرال الروسي أمراءنا القبارديين وبعض كبارنا المحليين ليحتفي بهم. أنا أعرف ما يدور بذهنه" قال بصوت واضح صافٍ. "سوف يقدم الطعام والمشروبات الكحولية إلى أمرائنا ويحاول إقناعهم بأن مصائرهم غير قابلة للفصل عن أقدار روسيا. سوف يتحدثون بطريقة متمدنة عن أولادهم، عن الموسم الزراعي، عن عبقرية نابليون العسكرية، وعن خداع الأتراك. سوف يتفحص الجنرال رتيتشيف أظافر يديه ويقنع نفسه بأنه نجح في أن يكون حاكماً متمدناً ومتفهماً لمناطقنا. ولكننا جميعاً نعرف أنه يهدف إلى تحقيق غاية واحدة، وهي التي سعى إليها كل الجنرالات الجاور الآخرين – احتلال مناطقنا كلها وتحويلنا إلى أقنان للقيصر".

سيكون مستشارو الجنرال قد أخبروه بأن "المحليين" يحبون الهدايا. وكذلك سوف يعيد أمراءنا العظام و"الورق" إلى بيوتهم محملين بأكياس ممتلئة بالحلي والدمى التافهة، كأنما هم أطفال!".

لم يستطع ليتش أن يمنع نفسه من الضحك "حسناً"، إن زوجتي لن تمانع ببضعة سجاجيد فارسية، أو طقم شاي من البورسلان، أو طقم ملاعق!".

شارك الرجال في الضحك بشكل عام، لكن أنور قفز واقفاً على قدميه "أنا سعيد لأنكم تجدون الأمر باعثاً على الضحك" قال بشراسة "هل تذكرون المثل القديم –أولئك الذين نحبهم سيجعلونك تبكي، وسيجعلك أعداءك تضحك؟ حسناً، هذه هي نكتتي... إن قافلة عربات تموين الجنرال رتيتشيف لشهر آب القادمة من تفليس تتجه محاذية تلك الضفة من النهر هنالك بينما أنا أتكلم".

رفع ليتش قبضته "أحسنت صنعاً يا أنور! لا أحد يداني شبكة تجسسك!".

"أشكرك يا صديقي. وهكذا أعتقد أننا سنساعد كبارنا على إعادة الرسالة التي يستحقها هذا الأحمق رتيتيشيف. نحن لا يمكن شراؤنا: وأكثر من ذلك – عندما يتعلق الأمر بالحلي والهدايا التافهة، فإن أذواقنا أغلى بكثير مما يظن".

لم يشارك زيلمخا في الضحك الجماعي، بل سأل بهدوء "هل يعرف أميرك الحابسا عن هذه الخطة؟".

هز أنور رأسه نفياً "كلا، لا أعتقد أنه يجب توريطه. هذا هو رأيي – السبب الذي من أجله يجب أن نتصرف لوحدنا".

نظر زيلمخا إلى كل رجل بدوره "ربما تحدث غارات انتقامية. فهل نحن محقون في جلب العنف على عوائل الرجال الآخرين؟" لم يفرض وجهه العريض، الخالي من التعابير أي رأي على أي شخص.

لقد أراد أن تكون الأمور واضحة لكل رجل بشخصه.

تحدث ليتش، بصفته الشيشاني الأكبر سناً من الحاضرين، وكأنه يتكلم عنهم جميعاً "إذا جاءت ردة فعل رتيتشيف مباشرة فإنها ستجعل دبلوماسيته تبدو حمقاء. أنا لا أعتقد أنه سيأمر بغارات انتقامية على هذه العملية. على أية حال، إنها مخاطرة يجب أن

نكون مستعدين للإقدام عليها. من المهم أن نخبر "الجاور" بأنه ليس من السهل إغواؤنا للدخول في العبودية".

أعطت همهمة من الموافقة القرار صفة الإجماع.

"حسناً إذن" قال أنور "سنظل محتمين تحت غطاء الغابة ونركب باتجاه الغرب حتى نشاهد القافلة. سوف نهاجم في الليل، والوقت الأفضل هو قبل أن يقيموا مخيمهم. سوف نهجم عليهم من جهة الغرب، نحاصر العربات ونأخذ ما نستطيع، أنتم القناصون الثلاثة" قال أنور مشيراً إلى الأنجوشيين الثلاثة الطوال القامة بملابس رثة "أنتم ستمنعون الفئة المتقدمة من الرجوع لمساعدة حرس المؤخرة. لن يكونوا يتوقعوننا، على هذا القرب من مكان الوصول. لذلك ومع قليل من الحظ سوف نتمكن من الإفلات بدون قتال مباشر".

سأل شيشاني صغير السن "ولكن كيف نهاجم من المؤخرة وهم على الضفة الأخرى من النهر؟ إن التيريك عالي المياه ويجري بسرعة كبيرة جداً في هذا الوقت من السنة".

ابتسم أنور ابتسامة صبر "سؤال جيد. توجد إلى الغرب من هنا نقطة عبور. لا تعلم دوريات القوزاق بوجودها: إنها عبارة عن لسان رملي كونته كميات الطمي وحطام الأشجار المتخلفة عن فيضانات الجليد من الشتاء الماضي، كما أن تيار النهر قد اقتلع شجرتين مؤخراً استقرتا فوق الرمال. إنه موقع مخاضة ممتاز...لكنه لن يبقى هناك مدة طويلة. لم أجده إلا مؤخراً، عندما كنت أسلم بعض الخيول إلى قرية قريبة من هذه الأنحاء. سأقودكم إلى هناك".

ركبت فرقة الإغارة متقدمة، وقلوب الرجال كلهم تخفق بشدة أكثر مع اقتراب احتمالية القتال. قادهم أنور بسرعة وصمت داخل منطقة حرجية حتى وصلوا إلى ضفة التيريك. أصبح من السهل هنا رؤية التأثير الفوري للاحتلال الروسي. فقد أخليت أراضيهم

الحرجية القباردية الغالية من الأشجار إلى عمق حوالي نصف ميل رجوعاً عن النهر، وعلى الجهة الأخرى، كانت التربة متعرية، مسودة وقاحلة. كل هذا جزء من سياسة الروس والقوزاق القائمة على القطع والإحراق، لحرمان المواطنين الأصليين من أي نوع من الغطاء لأية هجمات عسكرية على هذا القرب من خط الجبهة.

"سوف نستريح هنا حتى هبوط الليل. لكنني بحاجة إلى رجلين يمتلكان الشجاعة الكافية للعبور من جهة المخاضة والعمل ككشافين. يفترض أن تكون قافلة التموين والأمتعة قد اقتربت من هنا هذه الليلة، أو على أسوأ احتمال، غداً عند الفجر".

قال ليتش "إذا تأخرت عن ذلك الوقت فلن نتمكن من المخاطرة بمهاجمتها".

استدار أنور "رأيي أن لا نفكر في ذلك الاحتمال منذ الآن... فالأمر كله بإرادة الله".

لم يكن بينهم رجل إلا ويصلي بحماس لوصول قافلة التموين والأمتعة تحت جنح الظلام.

راقب الغزاة الحراس القوزاق على البعد وهم يتبادلون الأدوار عند فتحات الرماية فوق أسوار "ستانيتزا" بعيدة. كل بضعة فيرستات كانت أيضاً توجد أبراج خشبية مزودة بسلالم تؤدي إلى مسطحات للاستطلاع، تتسع لرجل واحد فقط. بإمكان المستطلع أن يرسل إشارة إلى البرج التالي، وهكذا على مدى خط الجبهة حتى أقرب "ستانيتزا"، لذلك يفترض أن تتم الغارات بسرعة البرق وبما يمكن من الصمت، لتجنب اجتذاب قوة قوزاق كبيرة من "الستانيتزا". أنشئت داخل المستوطنة القوزاقية كنيسة ذات خمس قباب، تصدر الأجراس البرونزية أصواتاً كئيبة ومنتظمة – وهي أصوات غريبة على الجبليين. لا تؤدي لهم أية خدمة سوى تذكيرهم بحياة غريبة تزحف بثبات على حياتهم.

لحسن الحظ أن اللسان الرملي يتوسط المسافة بين مثل هين البرجين، مما يجعله خارج مرمى البندقية من كلا البرجين.

سحب فارس إنجوشي "قامته" وبصق على نصلها ليجلب لنفسه الحظ. قائلاً "سنعبر أنا وأخي ركوباً الآن ونحتمي تحت تلك الصخور" لم يجادله أحد. راقب جميع الرجال، وهم يعدّون، بينما الحراس يتمشون ويستديرون، يتمشون ويستديرون. يتمشون – همس أنور "الآن!"، وفي هذه اللحظات الثمينة، قفز الأنجوشيان في الماء خلف الجذوع الساقطة مباشرة، وقد خفضت الخيل رؤوسها، تتمايل إلى اليمين واليسار بعصبية، باحثة عن موطئ قدم في المجرى المتدفق. انزلق الفارسان، ثم ركضا، وفي بعض اللحظات كادا يسبحان فوق ظهري فرسيهما إلى الضفة البعيدة من نهر التيريك، ثم ألقيا بنفسيهما إلى الأرض وتركا فرسيهما تسيران وحدهما إلى أقرب نمو شجري للاحتماء – وهو ما يعرف الحيوان أن يعمله بمزيج من الغزيرة والتدريب. رقد الأنجوشيان بلا حراك لبضع لحظات، ثم تحركا ببطء متسلقين ضفة النهر حتى وصلا إلى بقعة آمنة.

قال أنور بغير تكلف "أرأيتم، إنه مكان جيد للعبور، حقيقة".

عقد العديد من الرجال أذرعتهم فوق صدورهم. بصق آخرون. غرق شيشاني شاب في القهقهة حتى أسكته وجه ليتش الشرس.

أجابه زيلمخا "طبعاً، أي مكان يستطيع الأنجوشي أن يجعل جواده يمر من فوقه، فإن الشيشان يقطعه في قفزة واحدة".

في الساعة الثالثة صباحاً، قبيل نوبة الفجر، اضطجعت مجموعة أنور وقد التف أفرادها "بالبوركات". نصف نائمين، نصف مستيقظين. سمعوا نقيق ذكور الضفادع: واحد، اثنان، ثلاثة، توقف، واحد، اثنين، ثلاثة، توقف... تلك هي الإشارة.

ركبوا خيلهم، حاملين بنادقهم من أربطة أغطيتها بأسنانهم، وخاضوا في النهر. كانت الظلمة حالكة والصمت يحمل الاحتمالات. بعد ذلك سمعوا هدير العربات، وطقطقة لجم الخيل. وقف كل رجل منهم صامتاً بلا حراك وسط الرمال العارية لضفة التيريك، المنطقة الحرام، وقد وضع كل رجل يده على خطم فرسه ليمنعها من إصدار مجرد النفس الذي يكشف عن وجودها.

مرت قافلة العربات من أمامهم. لم تكن تبعد أكثر من مئة ياردة عن المكان الذي وقفوا فيه.

خرجت المجموعة المغيرة خلف الجنود الروس، كل منهم يحمل السيف بيد و "القاما" بالأخرى، بينما البندقية تتدلى على صدره، وخلال عشر دقائق، استكمل الهجوم بكفاءة لا تعرف الرحمة. خلّف المغيرون وراءهم ستة من القوزاق وقد شقت حلوقهم، وانطرح العديد منهم مصابين بجروح رصاص، بينما مُنعت قوة المقدمة من المشاركة تحت وابل عنيف ومستمر من الرماية من القناصة. تبعثرت خيول الجنود واختفت العربات الثلاثة المحملة العائدة للقافلة تحت جنح الظلام.

***

وقف أحمد في ساحة القرية مع الكبار الآخرين، غير مصدق ما تراه عيناه. شكلوا دائرة حول كومة الغنائم التي ظهرت في الليل خارج بوابة منزل أمير الحابسا. كانت هذه حصة أنور من المغامرة. تحتوي على سجاجيد، علب مغلقة تفوح منها الروائح القوية للبهارات الشرقية: بالات الشاي، والشيء الأكثر فخامة، عدد كبير من الفراء الشرقية. تركها أنور كبادرة لسيده، لكنه كان قد اختفى. فبالنسبة له كانت البادرة هي المهمة، وليس البضائع، كما أنه لم تكن لديه الرغبة في التباهي بالأمجاد.

أشار مراد إلى لفة من السجاد. وقال لأحمد وهو يبتسم "أفضل أنواع السجاد التركي... لا بأس بها".

عبس أحمد "إن أمير الحابسا لم يعد حتى الآن. هذه عملية سيئة الأثر".

هتف مراد "آه، لا تكنْ عبوساً إلى هذه الدرجة، إنها ضربة معلم! أنا معجب بالمغيرين – كائناً من كانوا... لا أفترض أن لديك فكرة عن هويتهم؟" لم تترك ابتسامته الساخرة أي شك لديه في أنه نفسه يعرف تماماً الشخص الذي يقف خلف الغارة.

تمتم أحمد "أحمق يعني، يحتمل أن تهاجمنا كتيبة من القوزاق بسبب هذه العملية".

هزَّ مراد رأسه مخالفاً "لا يمكن أن يكون رتيتشيف بهذا الغباء".

جاءت تسيما ومدينا وهما تجريان "هل رأيتم ذلك السماور الفضي؟" سألت مدينا "يقول أنور أنه هدية لي... أليس رائعا؟".

عبس مراد "سيكون الأمر أروع لو أن جعفر "حصل" على مثل هذه الجائزة الرائعة لأمه".

احمَّر وجه مدينا، وهي تدافع كعادتها عن ابنها البكر "إنه مدرك لدوره كابن مطيع لك أكثر مما تتصور، بحيث أنه لا يمكن أن يخاطر بإغضابك. أنت مخطئ يا زوجي في انتقادك له. إن أنور يشعر طول عمره بالتعاطف مع الشيشان. أما ابنك فهو "وَرْق" قباردي. أنت الذي رغبت بهذا".

حملت مدينا السماور الفضي الضخم بكبرياء مفرط وسارت مبتعدة نحو بيتها. استدارت تسيما لتلحق بها، بعد أن ألقت بنظرة غضب على مراد. منعها الاحترام من أن تضيف غضبها إلى غضب مدينا، لكنها لم تستطع أن تقاوم إغراء توجيه عبارة وداع إلى زوجها. فقالت لأحمد بعذوبة مصطنعة "ألم تكن أنت الذي كسب يدي بمثل هذه "الغزوات"؟ أو لم يكن لصديقنا الحابسا المبجل يد في نجاحك؟"

حملت بين يديها علبة من الجلد المراكشي الأحمر، تحتوي على ما رغبت فيه منذ زمن طويل: طقم متكامل من ملاعق الشاي المصنوعة من الفضة المزينة بالتخاريم... وضعت تسيما "هداياها" في داخل تنورة مريلتها ومشت خلف مدينا بعزة نفس هائلة.

لم يتمالك أحمد نفسه ساعتها من الضحك، وهو يراقب ظهر تسيما المنتصب وهي تسير عبر ساحة القرية، في مثل اعتزاز أي رجل بمعركة اليوم.

"أقول لك بصراحة يا مراد، إنني أفضل أن أواجه جحفلاً من القوزاق على أن أقاتل هاتين المرأتين الشيشانيتين!".

***

في سانت بطرسبرج، ذهب فون كلابروث ليقدم احتراماته للشوكة المنغرزة في خاصرته، الكونت باسل فاسيلييفيتش. لقد انشغل بجدية منذ أيام رحلاته في القفقاس قبل ثلاث سنوات في جمع ملاحظاته، وتحضير العمل للنشر، ورفع تقريره إلى القيصر وإلى الكلية الحربية. وكان لديه في الأثناء برنامج مضغوط من المحاضرات في موطنه الأصلي، لكن الأخبار عن انحراف صحة باسل فاسيلييفيتش كانت سبباً كافياً لانجذابه مرة أخرى إلى منزل كوماروف. خلافاً لزياراته السابقة، فتح كبير الخدم الباب بسرعة. قدم فون كلابروث نفسه.

"من هنا يا سيدي" كان البيت صامتاً، الغرفة الأمامية معتمة وباردة مع أنه كان نهاراً صيفياً جميلاً. استغرب فون كلابروث غياب الأميرة صونيا: يحتمل أن تكون العائلة قد ارتحلت إلى الريف لفصل الصيف. حوّم كبير الخدم حوله مرة أخرى بخضوع واضح "من هنا يا سيدي..." استغرب كيف يستطيع الكونت أن يحتمل أن يترك لوحده في هذا الحرّ اللافح مع هذا العدد القليل من الخدم ليقوم على خدمته. واضح أن طاقم البيت غير معتاد على الرائحين والغادين من صفوة المجتمع....

أدخل إلى مكتب باسل، حيث رقد المثقف العظيم تحت بطانية من الفراء، سابحاً في لجة من العرق، وقد أقفلت الغرفة بشكل نسكي على جماليات الطقس في هذا الفصل. لاحظ فون كلابروث أن الكونت باسل بدا أثيرياً أكثر من أي وقت مضى – وكأنما كان جسمه ينسل من هذا العالم قبل أن تكون روحه جاهزة لمغادرته معه.

جاء صوت الكونت برنة جافة "لقد كنت أقرأ بعضاً من ملخصاتك إلى أكاديمية العلوم، يا فون كلابروث. عمل جيد".

على الرغم من رغبته في أن يظل منيعاً ضد التملق، إلا أن فون كلابروث شعر بالسرور – والانفراج.

"أشكرك على رسائلك. لقد كان تلقي الأخبار عن صديقي القديم أمراً ساراً". استمر باسل في التحدث بصعوبة.

"لقد أصر أحمد الكوباني بشكل خاص على أن أذكره لك... لقد تحدثنا عنك ملياً. لدي عدة ملاحظات عن أحاديثنا المتعلقة بك والتي دونتها في هذا الكتاب الصغير. إنني أهديك إياه كتذكار".

رفـّت عينا الكونت باسل بقليل من السعادة "هذه بادرة رائعة منك أيها الصديق القديم".

"هل أنت وحدك هنا، أيها الكونت؟ ألا تخرج من المدينة في فصل الصيف؟".

ابتسم باسل في هدوء "لست بحاجة إلى مغادرة الجو الحار في العاصمة. فأنا نادراً ما أغادر هذه الغرفة".

"أنا آسف".

"لا داعي للندم. أنا سعيد. أخبرني بالمزيد عن الكافكاز..." اضطجع باسل على وسائده، وقد عقد يديه الناحلتين بنعومة في حجره.

"لقد سهّل مراد الحابسا رحلتي إلى بلاد الشيشان. لقد ارتحلت أيضاً إلى ساونيتيا، ومنجريليا"

قاطعه باسل، وهو يشير بشكل مفاجئ بإصبعه الشفاف إلى فون كلابروث، "قل لي، ما هو رأيك بالشعب الشيشاني؟".

أراد فون كلابروث أن يكسب بعض الوقت "من أية ناحية، تحديداً؟"

"لماذا تعتقد أننا لن نتمكن من إخضاع المنطقة؟".

بدأ فون كلابروث ببطء "هناك عدة عوامل". كان يتمنى لو أنه يتجنب هذه المحادثة، من ناحية لأن السياسة موضوع شائك بالنسبة للكونت، ومن ناحية أخرى بسبب صحة الرجل المتدهورة بشكل واضح. ومن ناحية أنانية، كان يرغب في معرفة رأي باسل في بعض المظاهر الصعبة من الإملاء الشيشاني... ربما قبل أن يفوت الوقت كلياً.

قال باسل بحدة "لا عليك، لا عليك مني. إن عقلي صافٍ تماماً، حتى ولو أن جسمي قد بدأ ينهار!".

"حسناً... لديهم روح استقلالية طبيعية. إنها تقليد ثقافي. خلافاً للقبارديين، فإن الشيشان ليس لديهم تنظيم اجتماعي هرمي. هناك كل رجل مسؤول عن نفسه... نحن لا نستطيع أن نتفاوض مع الرعاع..".

"رعاع..." بدأ العرق على وجه باسل يتجمع في حبات وينثال كأنه دموع. لم يعد يهتم بحالته الصحية.

"هنالك ضغط على هؤلاء الناس من عناصر أخرى، من الناس الأكثر تشدداً في الدين من الجنوب الشرقي، في الداغستان".

بدا على باسل نفاد الصبر من أجوبة فون كلابروث السهلة.

"هل تقصد المريدين؟ نعم، صحيح أنه كان هناك انتعاش محلي للتعاليم الصوفية – لأن المريدية هي مجرد شكل من أشكال الصوفية، وأنا على ثقة من أنك تعرف ذلك". نظر باسل بخبث إلى يديه "الأمر الذي يحتمل أن لا تعرفه هو أنها مذهب روحاني مسالم في الأساس "المرشد – هو الشخص الذي يقود"، "المريد، هو الشخص الذي يتبع..." إلى أين؟" لوَّح بيد أثيرية.

بدأ فون كلابروث يعجب مما إذا كان يشهد عملية انفتاح عقل عبقري: حمى دائمة: هلوسات سببتها العقاقير...

استطرد باسل في صوت خفيض – يكاد ينقطع منه النفس "هل كنت تعلم أنه إذا وصل المريد إلى حالة من النشوة "خآل"، فإنه يتوحد مع الله سبحانه وتعالى – ويعرف أنه لا خصوصية لأي تميز، أو أية عقيدة، أو طبقة أو فارق عرقي على الإطلاق؟ لأنه يكون قد عرف الخلود: وقد اتحد بالواحد الأحد. لا يعود لأي شيء آخر أية قيمة بالنسبة له".

سعل فون كلابروث بأدب "ولكن كانت هناك ناحية سياسية قوية في تعاليم إسماعيل أفندي، الذي قاد ذلك الانتعاش المحلي في الداغستان – في منطقة شيرفان، إذا لم تخنني الذاكرة...."

نظر هو الآخر بمكر إلى باسل... مع أنه شعر بقليل من الخجل من نفسه على هذه المبارزة الثقافية مع رجل مريض إلى هذه الدرجة. "الشريعة"، وهي القانون. "الطريقة" وهي الطريق. هنالك ثلاث درجات في الصوفية، وليس فقط "الحقيقة" كما تصفها أنت بكل وضوح. من المؤكد أن هذا هو السبب في نفي إسماعيل أفندي إلى تركيا وقمع مذهبه من قبل الجيش الروسي".

اقترح باسل: "وهكذا، هل يمكنك أن تتنبأ باحتمال قيام عصيان آخر للمريدية في الداغستان؟ وأنهم ربما يبحثون عن حلفاء لهم في بلاد الشيشان، كما حدث سابقاً مع الشيخ منصور".

رفع فون كلابروث يديه في يأس "هذه اعتبارات عسكرية، وليست ما يجب علينا بحثه فعلياً...."

"آه نعم، ولكن عملك يقدم خدمة في أن يشرح ثقافة الجبليين إلى أعدائهم: نحن. وأنا واثق من وجود أصدقاء لك في الكلية الحربية – ذلك النجم الصاعد، ييرمولوف مثلاً الذي من المؤكد أنه يتفق مع استنتاجاتك. دعنا نكون في منتهى الوضوح، هلا فعلنا؟ إن عملك الفائق الامتياز سيكشف "للجاور" كما يقولون. قوة الجبليين المعقدة – الخفية والقابلة للتجدد على الدوام. أنت تقول إنهم يقاتلون فيما بينهم على الدوام. لقد قرأت ورقة عملك حول "ثارات الدم" – الصراع بين العشائر. لكن لابد أنك ترى أن بحثك قابل للتفسير بشكل آخر.."

عرف فون كلابروث ما سيأتيه تالياً.

رفع باسل نفسه. "حتماً هم يتخاصمون فيما بينهم. ولكننا باستمرارنا في إزعاج الجبليين – لأن هذا الصراع المستمر سيصل إلى عشرات السنين – فقد خلقنا ثقافة حربية. إن الجبليين يشكلون التحالفات بنفس السرعة التي يتخاصمون فيها. إن الاحتمالات لا حدود لها، خاصة بوجود القائد الملائم".

أشار فون كلابروث بعقلانية "ولكنهم ليس لديهم القائد الملائم".

بدأ باسل يشير بيديه "ألا ترى؟ إن الصراع يخلق أعداء ذوي شأن. يمكنك أن ترى ذلك في أوروبا – هل تعتقد أن الجيش الروسي كان بإمكانه أن يقدم رجالاً مثل ييرمولوف، وفيليامينوف و تسيتسيانوف لولا وجود شخص مثل نابليون؟ وماذا سيفكرون عندما يعودون من أوروبا ويسمعون بما كان يحدث خلف ظهورهم!".

"أنت بلا شك تشير إلى المعاهدة الأخيرة مع الأتراك... في بوخارست..."

بدأ باسل يسعل "طبعاً أشير إليها! لقد أعدنا تسليم كل شيء خسرته تركيا تقريباً. بوتي، وأنابا. إن المسرح جاهز يا صديقي. نحن نعلم مسبقاً بطموحات صديقك العظيم، يرمولوف العملاق. يقف خلفه أصحاب الرتب العليا الحاقدون، العائدون حديثاً من تجارب وسعت مداركهم في أوروبا. على الجهة الأخرى، جحافل الجبليين، المخدوعين كذباً بأن الجيش الروسي في الكافكاز قد بدأ يضعف... أقول لك، يا فون كلابروث، إن الحرب في الجنوب سوف تستعر إلى حد تبدو معه كل معاركنا حتى الآن وكأنها معركة وهمية لمرشحي الضباط في المعسكر الصيفي في بيترهوف".

"أنت تعني، إذا هزمنا نابليون".

أصبحت نظرة باسل متسامية في اختراقها ووضوحها "سوف نهزم نابليون لأن هذه هي إرادة روسيا. ربما أحب الشيشان – لكن دمي هو رومانوف".

"ليست بي رغبة في...."

توقف فون كلابروث عن محاولة العثور على مخفف لفظي. فقد أدرك أن باسل كان يهدف إلى غاية ما، ولم تكن هذه الخطبة صادرة عن مجرد رغبة الكونت أن يظهر نفسه متابعاً للأحداث الجارية.

"إن الحق ليس في جانبنا في بلاد الكافكاز. قد يكون مفيداً سياسياً لنا أن نمتلك الإقليم. لكننا فشلنا في فهم حقيقة أن الجبال سوف تهزمنا في نهاية المطاف. الجبال ليست روسية، والناس الذين تسمح الجبال بمعيشتهم هناك هم شركس وشيشان وليسوا روساً أيضاً. ليست الجبال طريقاً نحو الجنوب، وليس قلعة حتى نحاصرها. إنها متراس. ذلك هو ما أرادها الله أن تكون. يفيض المد البشري إلى كاسر الأمواج ذلك.... سوف نهجم صعوداً على

تلك الصخور، وسوف نسقط رجوعاً إلى الخلف في يوم من الأيام، تلك هي سنَّة الطبيعة.

قال فون كلابروث بلا فائدة "تلك حجة مثيرة للاهتمام".

"لذلك قمت بإحراق جميع أوراقي".

"ماذا؟".

"اترك الميدان لك، يا سيدي. لست أرغب في جعل المهمة الروسية أسهل بأية طريقة. إذا كان ذلك هو خيارك، فليكن".

"لكن المعرفة! اللغات! الأساطير!"

"لقد قال لي رجل دين عجوز في الجبال في يوم من الأيام" (وانطلق باسل باللغة الشيشانية بطلاقة، جاهد فون كلابروث في فهمها).

"تخلَّ عن مهمتك. هل تستطيع أن تصوغ هزيم الرعد بين القمم بكتابة إنسانية، تحطم الانهيار الثلجي المتساقط، الزئير العميق للتيارات الجبلية، القصف الصادر عن الشلالات؟ هل تستطيع أن تتمثل صوت الحجارة وهي تتقلب نزولاً في الفجاج، أو عويل الأغصان في الغابة أثناء الإعصار، صرخات وأغاني العصافير وهي تنادي على بعضها من مرتفع إلى الآخر؟ كيف إذن تستطيع أن تأمل في حبس الخطاب الحر للقفقاس داخل الكلمات؟".

اضطجع إلى الخلف، وقد ارتسم على وجهه تعبير شبابي عاتب لعوب. لم يستطع فون كلابروث أن يمنع نفسه من كراهية الرجل بسبب ذلك الميل الدرامي الفائض والذي لوَّن أعمق المشاعر وأصدق المعتقدات لدى المواطن الروسي، حتى مع اقتراب نهاية أيامه. إنه صادق في هذه الاعتبارات تجاه أسلافه وتجاه منزلته الاجتماعية.

مازحه باسل بقوله "عواطف قفقاسية نموذجية، أيها الصديق القديم" موحياً إلى شخصه، مع إدراكه لأحاسيس فون كلابروث "والآن، ينبغي عليك أن تغادرني. فأنا متعب".

أغمض عينيه اللتين أخفقتا في إخفاء زرقة البؤبؤين. مما أثار انزعاج فون كلابروث. لقد كان الكونت باسل يتحول إلى جيفة.

"لقد شاهدت بعض الرؤى، هذا كل ما في الأمر، يا فون كلابروث. هي عادة قرشائية قديمة تعلمتها في الجبال... بواسطة الخرزات الزرقاء..."

"هل أنادي لك على أحد الخدم يا سيدي؟"

"كلا، أشكرك. فون كلابروث- "

"نعم، يا صاحب السعادة؟"

"ستكلف هذه الحرب ملايين الأرواح. أرواح "الجاور"."

لم يستطع فون كلابروث أن يفكر في إجابة لا تحمل التهكم. في بلاد يتم فيها تقييد المجندين الشباب رغماً عنهم إلى الرجال المسنين لمنعهم من الهرب، تبدو الحياة رخيصة ومصادرها متوفرة بكثرة. فهناك الملايين من الأقنان. التاج وحده يمتلك أرواح عشرة ملايين من الذكور.

"أردت أن أسألك رأيك عن تجارة العبيد لدى "الشركس"، قال ذلك من شعوره باليأس،وهو يتلاعب بقبعته وينظر إلى وجه باسل الحالم. "هنالك الكثير جداً مما أردت أن أبحثه معك".

فتح باسل عيناً واحدة، لهنيهة قصيرة "إنهم لا يشترون قومهم ولا يبيعونهم. يجدر بك أن تجري مزيداً من الدراسة حول ثقافة وأخلاقيات اتخاذ الرهائن.... أنا واثق أنك جدير بالثقة كرجل أكاديمي" أضاف بغير تكلف، وهو يتثاءب بفم مفتوح على آخره

"يجب أن تكون ممتناً لأنني لا أنافسك. هذا كل ما أستطيع تقديمه لك من تعزية".

مدَّ فون كلابروث يده ليلمس يد الرجل العجوز في رغبة مفاجئة لإظهار احترامه. "صدقني، يا كونت باسل، إنني أفضل أن أكون الثاني في المرتبة لعملك على أن أشهد ضياعه".

"كلا، لن تفعل. لا تتكلم مثل غبي لعين" أغلق باسل عينيه مرة أخرى. واستأذن فون كلابروث في الانصراف.

لم يفاجأ لاحقاً عندما سمع، بعد أسبوع، أن الكونت باسل فاسيلييفيتش قد انهار بفعل الالتهاب الرئوي.

مات وحيداً، ومع ذلك لم يمت بطريقة مستوحشة، لأن أحلامه كانت زاخرة بأشعار "الأديغه". وجاء اندفاع السوائل إلى رئتيه بقوة فيضان نهر التيريك الربيعي.

غرق الكونت باسل في ذكريات وجه شيشاني جميل ينحني فوقه ليقدم له الماء. شال أبيض يغطي صدغي المرأة، لكنه لمح خطوطاً فضية، والتمعت عيناها باللون الرمادي، المنقط بالأزرق، تكشفان عن روح صادقة مخلصة. أرتوى ظمؤه، استراحت روحه، وتخلى عن قلبه برضى وسرعة بالغتين. لقد أنقذ أولادها، وأحبها. تسيما.

***

الفصل السادس

قالت تسيما وهي تحتضن اللفائف السميكة من الشعر على جبين حفيدها "ها أنت هنا، أيها الجندي الصغير".

"قبليني يا جدتي..."

"نم هانئاً، يا بطلي." غطت جسم إمام اللدن في فراشه وأطفأت الشمعة بالنفخ عليها.

كانت نورسان جالسة على الشرفة، خارج شباك غرفة النوم مباشرة، وسمعت هذا التبادل الطقوسي. منذ يوم مولده، وتسيما هي التي تمنح الطفل قبلة ما قبل النوم.

لم تشعر نورسان بالغيرة: فقد كانت تحترم حماتها حسب الأصول باعتبارها "نِسًّا"، إلى جانب ذلك، فإن تسيما هي امرأة قوية الشكيمة ومتمسكة برأيها ولديها العديد من الصفات التي كانت نورسان معجبة بها. في الواقع، فإنها فوجئت، باعتبارها إبنة "وَرْق" من الدرجة الأولى، عندما اكتشفت أن هذه المرأة الشيشانية الرائعة تتميز بالكثير من المهارات التي تعلمتها نورسان خلال سنين تواجدها لدى عائلة "الأتالق". طبيعي أن بنات القباردي لم يدرسن تقنيات الحروب أو التفاصيل الرجالية "للخابزه". لكنهن كن يتعلمن التطريز، الحياكة، عمل السلال، الطبخ، والأساطير والعادات التي سيكون من واجبهن تعليمها وتمريرها إلى الأجيال التالية في بيوتهن، وحدهن بنات أكثر العائلات نبالة كن يرسلن لفترة قصيرة من أجل هذا "الصقل" وقد أجادت نورسان في كل هذه الفنون الأنثوية.

كانت نورسان من هذه الناحية القرين المثالي لكازبك. فقد كان كلاهما يتحلى بالفضيلة، والمثالية، والإيمان - ربما كان كلاهما محافظاً في أفضل ما للكلمة من معاني.

لكن نورسان كانت فتاة ناعمة جداً. كانت ملامحها تدل على أنها سريعة العطب: بشرتها باهتة مثل القمر، خصرها الذي أعجبت به كل بنات حابسا الأخريات، كان ناحلاً وكأنه جذع شجرة حور فضي. حتى بعد مولد إمام، سرعان ما استعادت نورسان قوامها الرائع، واستمرت تبدو وكأنها ما زالت صبية تماماً كما كانت قبيل الزواج. وهي بذلك تمثل الجمال الشركسي المثالي. إلى ذلك فقد كانت جدية أيضاً: قامت بجميع واجباتها المنزلية الجديدة بإخلاص واتقان. كان مطبخها هو الأفضل: حديقة خضارها الأجمل تنظيماً، حيث لا توجد حشرات تحفر ثقوباً أو تفرز قذاراتها على الأوراق. كان بيتها ممتلئاً بأفخر الوسائد والحشايا المطرزة، أفضل الحصائر، وأفخم أنواع الفضة التولا، وهي هدية الزواج من أمها. لكن في الحقيقة كانت هناك لحظات تتمنى فيها تسيما والنساء الأخريات لو لم تكن نورسان على هذه الدرجة من الاكتمال والتحفظ. فقد كان أقارب كازبك يشعرون أنهم بالكاد يعرفون هذه الأخت الجديدة.

قالت تسيما بصوت ناعم "سوف أنتظرك في الصباح، يا تسيما" ثم طوت يديها احتراماً بينما لفت حماتها جسدها في شال صوفي سميك لأجل المسيرة القصيرة إلى بيتها.

"حسناً، يا عزيزتي. انظري، لقد بدأ الانجماد يحدث باكراً. ستكون ليلة باردة... كم هو كازبك محظوظ لتكون لديه مثل هذه النار الساطعة ووجبة فاخرة بانتظاره!".

اكتفت نورسان بالابتسام. ودعتها تسيما وانطلقت في خطوات نشيطة عبر ساحة البيت.

جعلها الحدس تنظر إلى الوراء. وبكل تأكيد، لمحت شكلاً ملتفاً في معطف أسود، نحيل إلى درجة أنه لا يمكن إلا يكون

لنورسان، يمشي بنعومة وحذر خلال الغسق مبتعداً عن حوش كازبك باتجاه أشجار الزيزفون على نهر التيريك.

توقفت تسيما. لم يكن التدخل من شأنها، لكن لو أن في الأمر ما يريب، فسوف تكون مضطرة إلى معرفته بأساليب ملتوية. إن نورسان ترفض أن تبوح لها بمكنونات قلبها. بعد ثلاث سنوات من وجودها في القرية، ما زالت غريبة بالكامل فيما يتعلق بمشاعرها الداخلية. كل شيء كان مثالياً على السطح: لكن روح الفتاة هي التي كانت مراوغة – إلا بالنسبة لكازبك. لم يكن لدى تسيما أي شك في أن الزوجين كانا يحبان بعضهما بعضاً بشغف. لم يكن قلقها مصدره انعدام المشاعر بينهما، بل ربما الزائد عن حده منها.

أسرعت تسيما حتى تستطيع أن تواكب الشكل الملتف. كانت نورسان تتحرك بسرعة كبيرة، بالنسبة لامرأة متواضعة ضئيلة الحجم، كأنها غزالة نافرة. لم تكن تسيما معتادة على التفكير الخيالي لكن كان هناك عنصر سحري في شخصية نورسان يحفز الأفكار الشاعرية. هي تحب الفتاة، وتريد أن تكون أقرب إليها. فهي، في نهاية المطاف، قد قدمت محبوب العائلة: إمام الصغير، الصبي الصلب الذي يحمل عيني أمه الخجولتين الرائعتين، ولحسن حظه، جسم كازبك القوي المتناسق. كان قد تجاوز السنة الثانية من عمره بقليل، صبي ذكي، متوقد الحيوية. كانت نورسان أماً صالحة – وبقية العائلة تعبد طفلها.

قفزت نورسان خارج الممر. شعرت تسيما بالحرية في البداية ثم أدركت فجأة إلى أين تتجه "النِسّا". عند سفح النتوءات الصخرية القريبة من نهر التيريك، بين شجيرات الشوك المتشابكة وأشجار البتولا، كان يوجد "تابور" أو مخيم للبوهيميين الغجر. وصلوا إلى هناك قبل بضعة أيام: لم يختلط بهم القرويون المحليون وقد أصدر كبار القرية الأمر إليهم بإزالة مخيمهم.

لقد كان ينظر إلى البوهيميين على الدوام بمزيج من الاستغراب والخوف لأنه لم يكن أحد يعرف من أين جاءوا.

سألت تسيما أحمد عنهم: الواضح أن هذه المجموعة بالذات قد ارتحلت من مكان ما على شواطئ بحر آزوف، (ولم يكن أحد يعلم من أين جاءوا قبل ذلك) باحثين عن مكان للبقاء فيه، لكن كان يتم ترحيلهم على الدوام. وقد تجولوا على هذا الجانب من النهر تجنباً للسلطات الروسية... كان البوهيميون مفيدين في إصلاح الآنية وأحياناً كانت الفتيات العاملات "بشله" تشترين منهم بعض الأدوات ولوازم الزينة – في الغالب تكون مسروقة.

عجباً، ما الذي تفعله نورسان، وهي تخالط هؤلاء القوم! اقتربت تسيما أكثر: بما يكفي لتشاهد نورسان تتلفت في حذر يمنة ويسرة ثم تدخل خلسة إلى خيمة امرأة أكبر منها سناً، ذات شعر مجدول في عدة جدائل سميكة تتدلى حول وجهها بينما التفت على رقبتها عدة قلائد. كانت تنورتها رثة وترتدي قميصاً خفيفاً برغم برودة الجو.

أناس قذرون، مائلون إلى البدانة.... حتى لو أنهم كانوا لصوصاً ومشردين، إلا أن حياتهم كانت صعبة. فهم يرتدون أسوأ الملابس: خيامهم مصنوعة من أغصان الأشجار التي ألقيت فوقها الجلود: هناك نار مكشوفة على التربة حمراء مباشرة وقد جلس رجل عجوز ينفخ فيها بمنفاخ كبير قديم. لم يكن مكاناً لائقاً لتربية الأطفال فيه ومع ذلك كان هناك ثلاثة أولاد صغار هيئاتهم تعسة متكومين عند قطع الحطب المشتعلة، يمضغون عظاماً مشوية يمسكونها في أيديهم القذرة بقوة.

هذا هو الأمر! لماذا لم تكتشفه أسرع من ذلك! انتصبت قامة تسيما فجأة ثم استدارت وقصدت بيتها مسرعة. كان هناك درب آمن واحد لتسلكه ولم تشأ أن تراها نورسان في مشوار عودتها. باتت تسيما واثقة من أنها تمتلك الجواب. فقد كان البوهيميون

مشهورين في قراءة الحظ وعمل الخلطات السحرية – مع أن تسيما نفسها كانت تعتقد أن البلقار كانوا أكثر موهبة في القدرة على قراءة الإشارات. وهي مستعدة لأن تراهن بأي شيء على أن نورسان حامل مرة أخرى ومتشوقة لمعرفة جنس مولودها القادم الجديد.

شعرت تسيما بالحبور. لم يكن هناك شيء ترغب تسيما فيه أكثر من أن ترى نفسها محاطة بالأحفاد في سنها المتقدمة: وبالنسبة لأحمد، أن ينشئ عشيرة آمنة بعد أن سافر إلى هذه الأبعاد ليؤسس حياة جديدة، فهو تحقيق لحلمه. سيكون سعيداً جداً. وطبيعي أن يشعر كازبك بأقصى درجات الفخر.

أسرعت تسيما في دخول بيتا، لتجد "البشله" إلى جانب المدفأة تحرك قدر اللحم وتسخن فطائر الذرة الصفراء المقلية في مقلاة فوق النار.

قالت تسيما "سأقوم أنا بذلك"، وهي أكثر من راغبة في تحميص نفسها هي الأخرى إلى جانب النار، فقد دخل الانجماد الرطب قريباً من نهر التيريك في عظامها. "أرجو أن تخبري "التحمادا" أن الوجبة جاهزة".

ظهر أحمد بعد ذلك بوقت قصير وجلس إلى جانبها قرب الـــ "أنا" الصغيرة بينهما. "أنت ترتجفين يا امرأة، برغم أنك طبخت لي عشائي! فهل أنت مريضة؟".

"كلا – كلا، بل أشعر بالبرد. لقد دخلت البيت لتوي".

"تضيعين الوقت مع حبيبك إمام....".

"هراء يا أحمد. إنني أكثر حكمة من أن أتدخل في شؤون بيت امرأة أخرى".

لم يجبها أحمد. فإما أنه وجد لحم الخروف طيباً جداً، أو أنه احتفظ برأيه حول المسألة لنفسه...

"يا زوجي"

"نعم يا زوجتي؟"

"أرجوك أن لا تستعمل معي هذه النبرة اللعوب يا أحمد. إذا سمحت لي بالتشاور معك... من بعد إذنك...."

تنهد. فقد كان عمله في نقل الأعلاف لتخزينها ذلك اليوم مضنياً وكل عظامه تؤلمه. فهو لم يعد صغيراً كما كان في الماضي...

"إذن اتركيني أتناول طعامي أولاً. في هدوء".

مع أن تسيما كانت جائعة إلا أنها كانت قلقة، فاكتفت بمجرد الجلوس ساكنة، وقد عقدت يديها بتوتر، تراقب كل لقمة يتناولها. فهي مطيعة بطريقتها الخاصة. لم يستطع أحمد أن يتحمل هذه المعاملة لمدة طويلة، فجلس في نهاية الأمر متكئاً على وسائده.

"حسناً، ما هي المشكلة؟".

"كنت أعتقد أنك قلت بأن الكبار قد تخلصوا من البوهيميين. إنهم ما زالوا هنا. لقد رأيتهم اليوم".

"آه، سوف ينصرفون بحلول الغد، إنهم لا يتحركون بسرعة – أتوقع أن يحتاجوا إلى التذكير. ولكن – ماذا بحق الشيطان كنت تفعلين هناك، يا تسيما؟ أنت لست من الغباء بحيث– ".

"اجعلهم يقرأون لي كفي؟ يدرسون لي عظمة كتف خروف من باب العرافة؟ طبعاً لا".

"ما الذي جعلك تلقين عليهم نظرة؟"

"إن بعض الفتيات الخادمات يشعرن بالفضول. إنه مظهر سيء، فهن دائماً يتجولن إلى هناك ويرجعن ممتلئات بالقصص عن الغرباء السمر طوال القامة...."

ضحك أحمد وأمسك بيدها "لقد دخل رجل غريب أسمر طويل القامة إلى حياتك في أحد الأيام، ولم يكن مصيرك سيئاً".

"لقد شاهدت نورسان هناك".

نظر أحمد إليها "هذا يفاجئني الآن فعلاً. أن تقوم به فتاة حسنة التربية مثل "النسا" "

"اطردوهم بسرعة. هل ستفعل؟"

"ما الأمر يا تسيما؟ يبدو عليك القلق، مع أنني واثق أن الأمر لا يتعدى قليلاً من السخافة".

"آمل أن تكون محقاً.... لكن أرجوك أن تعمل على ذلك، هلا فعلت يا أحمد؟"

"لا تقلقي نفسك بعد الآن حول هذا الأمر، يا عزيزتي".

قبلته تسيما، وهي مسرورة بحق "أشكرك يا زوجي".

لكن تسيما قضت ليلة قلقة، وكما يحدث كثيراً، لم تدخل في نوم عميق إلا في ساعات الصباح الباكر. فوجئت بإحدى خادماتها تهزها لتصحو "تعالي بسرعة، يا تسيما، إن نورسان مريضة وهي بحاجة إلى علاجاتك".

ارتدت تسيما ملابسها بسرعة وقد ملأتها المخاوف، وأسرعت إلى بيت كازبك. كان كازبك يجوس في غرفة المعيشة بنفاذ صبر. كان يبدو مرهقاً – واضح أنه لم ينم كثيراً هو الآخر.

"أمر طيب أنك هنا يا أمي. لا أستطيع أن أحصل منها على كلمة منطقية، ولدي الكثير من الأعمال.... واضح أن هذا شأن نسائي... إنها لا تسمح لي بالاقتراب منها وقد تقيأت بعنف، لقد أخبرتني خادمتها".

بدا على كازبك الانزعاج الشديد، لكونه غير قادر على أن يهب الراحة لزوجته أو يواسيها. لكنه لم يسمح لنفسه بإظهار تعلقه بنورسان إلا بنزر يسير أمام والدته من خلال تحفظه المعتاد.

"هيا اذهب إلى عملك يا ولدي، سوف يتحسن مزاجك في الهواء الطلق، إنه نهار جميل، يا بني. أنا واثقة من أنه ليس هناك من عارض جدي لدى نورسان... في الحقيقة، يمكن أن يكون مؤشراً إيجابياً...."

رفعت تسيما يداً محذرة، كأنما تقول له "لا تجعلنا نستبق الأمور..."

ارتاحت قسمات وجه كازبك، وانبسطت ابتسامة عريضة مذهلة فوق شفتيه "حقيقة؟"

"لا تقل كلمة واحدة. اترك هذا الأمر علي.."

أسرعت تسيما إلى غرفة نورسان. كانت الفتاة مستلقية وهي تسبح في لجة من العرق، وقد عقدت يديها فوق معدتها.

عندما شاهدت نورسان تسيما، جاء رد فعلها مشوباً بالرعب، صرخت قائلة: "أرجوك اذهبي... أرجوك اتركيني لشأني!" ودفنت وجهها في وسادتها.

تبخرت آمال تسيما على الفور. فهذه المرأة الشابة لا تعاني من المشاكل المعتادة كبدايات الحمل- قليل من الغثيان، قليل من الدوخة. إنها تتعرض للإجهاض - وإذا كانت تسيما تعرف أي شيء عن الموضوع، فقد أدركت أن نورسان قد تعمدته لنفسها.

وجهت إليها تسيما الاتهام مباشرة "لذلك إذن ذهبت إلى "التابور!". فقد أصيبت بصدمة قوية "لقد جعلت تلك المرأة تعطيك محلولاً! بحق الله يا نورسان، ماذا أعطتك؟ ربما تكونين قد سممت نفسك!".

صدر عن نورسان أنين موجع ثم تكورت على نفسها. بحثت تسيما عن شيء من الماء، لمنحها بعض التخفيف.

"لماذا؟ لماذا قمت بهذا العمل الشرير؟"

قالت نورسان مدافعة عن نفسها "لم أفعل شيئاً! إنني مريضة، هذا كل ما في الأمر – تنتابني آلام شديدة أحياناً، وقد ذهبت إلى هناك بحثاً عن علاج لإيقافها. كيف يمكنك أن تتهميني، يا حماتي؟ بينما أنا أعمل كل شيء لإرضائك؟ ما كنت لأرغب في إغضابك أنت وكازبك أبداً، لا بد وأنك تعرفين ذلك..." وانهارت في نوبة من البكاء.

ندمت تسيما على كلماتها الجارحة. فالفتاة تبدو مريضة إلى درجة مريعة، وقد أصبح وجهها الآن يسبح في الدموع إضافة إلى العرق.

"أنا آسفة، يا لها من قسوة مني! إذا كنت قد اتهمتك زوراً، فأنا جد آسفة. سامحيني يا نورسان"

جلست ساكنة لمدة طويلة، منتظرة أن تهدئ نورسان من روعها. هدأت الدموع والآلام تدريجياً. مسّدت تسيما شعر الشابة بلطف "كيف تشعرين الآن؟ هل توقفت التشنجات؟ ما رأيك بقليل من البابونج؟ وإليك هنا بضع نقاط، من صبغة الأفسنتين...."

"أشكرك يا تسيما..."

اقتضى الأمر ساعات عديدة حتى زالت آلام نورسان كلياً. لم تطرح تسيما أية أسئلة، بل اكتفت بغسل جبينها وسقتها جرعات منتظمة من البابونج وصبغة الأفسنتين.

"يجب أن تقابلي كازبك حين يعود من المزرعة. إنه يكاد يجن من القلق عليك" قالت في نهاية الأمر.

قالت نورسان بهدوء "نعم، يا حماتي".

تنهدت تسيما وهزت رأسها، فقد كان واضحاً أن نورسان لا تنوي أن تفضي لها بأسرارها، حتى في ساعة الألم الشديد.

"يجب أن تكوني مطيعة لزوجك، وجزء من تلك الطاعة هو عدم التسبب في قلقه. إن رجال هذه القرية يحملون مسؤوليات ثقيلة... ومن واجبنا أن نخففها عليهم".

ظهر على نورسان الإعياء. جاهدت تسيما للعثور على طريقة توضح بها قصدها، لكنها عدلت عن ذلك، لأن كل ما قالته لم يجد طريقه نحو قلب الفتاة.

في نهاية المطاف، اضطرت إلى المغادرة حتى تشرف على واجباتها المنزلية. استلقت نورسان نصف نائمة، وقد بان عليها الهدوء وزايلها الألم.

في وقت لاحق من ذلك النهار، مرَّ كازبك بتسيما راكباً، فوجدها تعمل بجد في حديقة خضارها. سألها بابتسامة متشوقة "إنني متوجه إلى البيت، يا أمي. هل لديك شيء تودين إخباري به؟".

نسيت تسيما أنها كانت قد ألقت ببعض الملاحظات غير الموفقة. نصبت قامتها ومشت باتجاه السياج المكون من الأعواد المستطيلة. ترجل كازبك واقترب من الجانب الآخر للسياج.

"لقد حان الوقت لكي تخوض حديثاً جدياً مع تلك السيدة الشابة" قالت تسيما بشيء من الحدة، "أنا لا أفهمها على الإطلاق. ولكن هناك أمر واضح تماماً... إنها ليست حاملاً".

أحمر وجه كازبك "ماذا تعنين بكلامك؟".

"لا يحق لي قول المزيد. مجرد ذكر الموضوع أمر معيب".

بدا على كازبك الغضب والاضطراب. قفز إلى السرج وجمع الأعنة، جاهزاً للإغارة على البيت فوراً.

قبضت تسيما على الأعنة ومنعته من التحرك.

"حسناً... فقط اسألها عن هذا الأمر. اسألها لماذا تذهب إلى مخيم الغجر!".

عبس كازبك، وقد تملكته حيرة عظيمة، ثم ركب مبتعداً.

سمعت نورسان بقدومه.

لقد عرفت منذ زمن طويل أن الأمور ستصل إلى هذا، استلقت في الظلمة الباردة لغرفتها وقد أغلقت المصاريع، وقلبها يخفق بسرعة. تأكدت على الفور من خطوات كازبك المضطربة أن ساعة الحقيقة قد حانت.

لكن كازبك دخل إلى الغرفة ونظر إلى الأسفل حيث استلقت بحب عميق، وعلى وجهه تعبير يقترب من الإشفاق. ركع إلى جانب سريرها.

سألها بقلق حقيقي "هل تشعرين بتحسن؟"

قفز قلب نورسان له، وألقت بذراعيها حول رقبته.

احتضنها كازبك بقوة، مع أنه كان مهموماً وغير واثق من الأسلوب الذي سيكمل به الموقف. فقد كانت علاقته بنورسان ثمينة – ثمينة إلى درجة أنهما لم يكونا مضطرين للتحدث بألفة. لقد ظلت مشاعرهما حتى الآن مشتركة، مفهومة، ورغم ذلك نادراً ما بحثا فيها. كانا يشعران بالوحدة بينهما: مراقبة إمام وهو يكبر مجلبة للسرور. كثيراً ما كانا يكتفيان بمجرد النظر إلى بعضهما من فوق رأس الطفل، ليعرف أحدهما مقدار الفرح في قلب الآخر.

تجرأت نورسان على التحدث بصدق "آه يا كازبك، إنني أرى مناظر رهيبة جداً – ليست أحلاماً، إنها رؤى حقيقية!".

"ماذا تعنين؟ متى؟ عندما تكونين وحدك؟" احتضنها بقوة أشد "ربما تشعرين بالحنين إلى بلدك... أهذا ما في الأمر؟"

"كلا، لست أشعر بالحنين إلى بلدي. لقد كان أحمد وتسيما في غاية اللطف تجاهي.. كلا. إنني أرى الأشياء منذ زمن طويل.. لكنني لم أكن أهتم بالأمر كفتاة صغيرة – فقد كان الأمر محرجاً بالنسبة لي. لقد زادت هواجسي منذ أن أصبحت أماً. إنني أرى الخطر يتهددنا جميعاً يا كازبك..."

لم يكن كازبك يهتم بالأفكار الخيالية، فقد علمته عزلته في طفولته كيف يسيطر على عقله بالإضافة إلى عواطفه – أو بالأحرى، كيف يكون منضبطاً في ردود فعله تجاه عقله وعواطفه. لكن كان في طبيعته جانب روحاني عميق، وهو جانب احترمته نورسان بشكل غريزي، وأصبح نصف مدرك لأشباح الإرهاب والعنف التي كانت تترصد عالمهم. الجو الغرائبي لبعض الغابات، حيث يعتقد أن الأرواح الشريرة تكمن فيها، "الجن" الذي يقطن الجبال، الدمى المقنعة لرقصات الحرب القديمة وشعائر الموت... توجد طرق عديدة للتذكير بالجانب المظلم من الحياة. نجح كازبك في أن يبقي هذه الأفكار بعيدة عنه أفضل من نورسان – وهذا كل ما في الأمر.

الواضح أنها قد تصرفت بحماقة، بالتورط في قراءة البخت، وربما حتى استحضار الأرواح... لا عجب أن الكبار يعمدون إلى التخلص من البوهيميين على الدوام، إذا كانوا يتسلطون على النفسيات الحساسة مثل هذه...

أنبها بلطف "ما كنت أعتقد أنك امرأة تؤمن بالخرافات، يا نورسان، إن الشخص الذي يخاف الله يسعى إلى طرح مثل هذه الأفكار الخطيرة جانباً. لقد أخبرتني تسيما بما جرى – إن الأمر لا يتعدى الكلام الكسول من أناس كسالى..."

"أنت لا تفهم الوضع! إن العالم مليء بالأحداث المرعبة! هل تعتقد أنني لا أسمع بما يجري؟ يقوم أنور بالإغارة على خط الجبهة – ويقوم القوزاق بالإغارة ويقتلون الناس! وكل ما نفعله هو

المحافظة على الهدوء! ومع ذلك فأنا أعرف ما هو الآتي – إن تسيما تدأب على مناداة طفلي الحبيب "بالمقاتل الصغير". ويحضر له أحمد "قاما" خشبية – أنتم تريدون أطفالاً ذكوراً فقط، جنوداً صغاراً لأجل الحرب!"

تزايدت عصبية نورسان إلى درجة الهستيريا أثناء حديثها.

أدرك كازبك أن الوضع خطير. لكنه لم يعرف كيف يتعامل معه.

"هذا أسلوبنا في الحياة. ماذا تتوقعين منا أن نفعل؟ نحن شعب مقاتل نبيل. أنت ابنة "وَرْق" – حتماً يعني لك الدفاع المشرف عن بلادنا شيئاً ما؟"

هزت نورسان رأسها بإصرار وقوة "أنا لا أستطيع أن أفعل ذلك" همست له "لا أستطيع أن أربي أطفالاً للمذبحة".

ذهل كازبك من هذه الطريقة في التفكير، مندهشاً من كيفية تمكن زوجته من التفوه بمثل هذه الأفكار المقرفة. لا بد وأنها مجنونة بعض الشيء – لقد وقعت تحت تأثير أحد السحرة الذي استطاع أن يؤثر على دماغها!

لم يستطع كازبك أن يكتم ضحكة صغيرة، لكسر التوتر، مع أنه كان يشعر بالخوف داخلياً.

"ما هذا الهراء! كأنما لا تستطيع عائلة أحمد الكوباني أن تحمي نساءها! أنت تعلمين أننا في حالة سلم مع "الجاور" – أنت يجب أن تبعدي عنك كل هذه المخاوف يا حبيبتي، حقيقة... ولا تذهبي للبحث عن قراء الحظ الذين يملأون رأسك بالترهات".

اعتدلت نورسان في جلستها بحدة ودفعته بعيداً عنها قليلاً. ابيضّت شفتاها من شدة التوتر العصبي "لم أذهب لقراءة كفي. لقد أحضرت أعشاباً تمنعني من الحمل بطفل. أريد فقط أن أحبك يا كازبك، أحبك كثيراً، فلا تطلب مني أن أفعل المزيد..."

أصيب كازبك بصدمة عميقة. إن أحد واجبات الزوجة هو أن تنجب الأبناء: إن مستقبل الأديغه يعتمد على الحياة الأسرية.... السبب الوحيد الذي يمتلكه الرجل لتخليه عن زوجة ما هو عدم تمكنها من إنجاب أولاد له..... لكنه عندما نظر بتعمق في عيني نورسان الداكنتين المتراقصتين، لم يستطع إلا أن يتجاوب مع شغفها وآلامها.

لو أنه يمكن حبس الاثنين معاً داخل الجدران إلى الأبد، وقد احتضن أحدهما الآخر بذراعيه، فإن جزءاً منه يرحب بالتوحد، بذلك الذوبان في جسد واحد، بذلك النسيان.

أمسك بنورسان بعنف وقبلها بلهفة، على شفتيها. سقطا سوية فوق الفراش، وقد أحاطا بعضهما بذراعيهما كأنما يخشيان الافتراق. مسَّد كازبك شعرها الأسود الفاحم اللماع، ورفع وجهها نحوه حتى يستطيع أن يتأمل ملامحها تحت شعاع من ضياء القمر.

اعترف لها "أشعر بنفس شعورك في بعض الأحيان! أجن بحبك! لكننا لا نستطيع أن نختبئ من الحياة. علينا أن نؤدي واجباتنا. ربما أنت خائفة على إمام. أنا أيضاً أحسّ بالقلق، فكل شيء يختلف عندما يصبح لديك أطفال من صلبك يتعين عليك حمايتهم..."

رقدت نورسان في سكون تام، بدون استجابة. حاول كازبك مرة أخرى، وهو يصارع آمالاً من الأهمية إلى درجة لا يمكن التحدث عنها.

"أعتقد أنه عندما يصبح لديك المزيد من الأطفال، فالأرجح أن لا يظل شعورك بهذا السوء. أنا أعرف أن أمي كرهت ذهابنا جميعاً إلى "الأتالق". ولكن في النهاية، أصبحت فخورة بنا..."

قالت نورسان بمرارة "إن أمك تشبه واحدة من نساء الأمازون اللاتي يتغنى بهن العجائز في الجبال..."

داعبها كازبك، مسروراً لأنه حصل منها على استجابة سريعة، على الأقل.

"أنت في مثل شجاعتها. ففي نهاية المطاف أنت تحديت عائلتك لأجل الحب!"

استدارت نورسان مبتعدة نحو الجدار "فعلت ذلك لأجلك أنت فقط، يا كازبك. أنت كل ما أريد.... لا أريد المزيد من الأطفال للمذبحة". جاء صوتها رفيعاً ومتعباً.

نهض كازبك "أنت كل ما أريد أيضاً. لكن ذلك ليس الأمر المهم الوحيد..."

لم تتحرك نورسان. لكن ظهرها تحدث بفصاحة عن مقاومتها لكل كلماته الرقيقة.

عرف أنه محق وأن نورسان مخطئة. أدرك أن هذه لحظة سوف يذكرها لبقية حياته. منذ ذلك اليوم، لن يعود زواجه كما كان بشكل من الأشكال. لأن كلمات مثل هذه لا تنسى أبداً. نظر إلى نورسان الراقدة، إلى جسدها الرائع، إلى شعرها الحريري الطويل، إلى بياض بشرتها، وانسابت الشهوة في جسده. ولكن على الرغم من كل ذلك، راودته أقوى المشاعر بأنهما لن يسعدا بعضهما بعضاً.

***

في أواخر ذلك العام، عندما رقدت الثلوج سميكة على أراضي التيريك المنبسطة، أصاب الفضول أحد جواسيس الجلاخستني لمرأى نيران الاحتفالات الهائلة تشتعل على طول خط الجبهة، ولمشاهدة الحركة الزائدة قائمة في كل "ستانيتزا". ركب عائداً مسرعاً إلى قرية الحابسا. استقبله الأمير عمر، وعندما سمع تقريره عن الأنشطة، استطاع أن يشرح الوضع "أنا أعرف ما الذي يحدث.

إنها الشعائر السنوية لدى "الجاور": ذكرى ميلاد النبي عيسى، يسوع بالنسبة لهم".

"جائز يا"تحمادا". الأجراس تقرع. وهنالك احتفالات".

أجرى أمير الحابسا استفساراته الخاصة، وبنتيجتها استدعى الكبار و "الوَرَق" إلى اجتماع "للمجلس". وأعلن بصوت جاف: "أعتقد أن "الجاور" والقوزاق سعداء بوضعهم، يقول لي المخبرون أنه قد تم طرد الجنرال الفرنسي نابليون أخيراً. وأن القيصر الكسندر يحتفل بذلك في باريس... وكذلك يحتفل معه حلفاؤه، الإنجليز. لكنني لا أظن أن الجنرال العظيم ولينجتون سعيد جداً بأفكار القيصر الغامضة حول حلف "مقدس"، لقد انضمت إليه جميع القوى في أوروبا... بينما يرى الإنجليز، مثلما نرى نحن أن روسيا تزداد قوة على قوتها... ولا أعتقد أنهم يثقون في دوافعها".

قال أحمد "لقد قيل لي أن قوزاق نهر الدون قد استفادوا كثيراً من الحرب، أنهم يندفعون عائدين إلى تشيركاسك وقد تكومت المنهوبات تحت سروجهم. يقول الناس في "الستانيتزات" أن القوزاق لم يركبوا بذلك العلو أبداً".

أبدى الأمير رأيه "لقد كان من مصلحتنا أن انشغل القيصر في أوروبا. أخشى أن يتغير الموقف الآن... ربما هذا هو السبب في أن الأجراس تقرع بتلك الدرجة من الضجيج في "الستانيتزات".

وافقه مراد "سيجيء حتماً المزيد من المستوطنين المتجهين نحو الجنوب، مع عودة مضيفيهم الروس من الحروب في الغرب".

خيم الصمت على أحمد وبقية الكبار، وهم يفكرون في كل البدائل التي يمكن أن تخطر في البال. تتعمق معرفة الأمير ودهاؤه في فهم الأحداث مع مرور السنين. ظل أحمد على الدوام يعجب من كمية المعلومات التي تصل إلى قريته الحابسا الصغيرة هذه. إلا أن مراد كان قد أخبره بسرية مشددة عن أن بعض الأمراء القبارديين، رغم أنهم يعيشون تحت رعاية القيصر، إلا أنهم كانوا يقدمون

الكثير من المعلومات المفيدة لأقاربهم الموجودين إلى الجنوب من نهر التيريك. إن شبكة المخبرين الواصلة من موسكو تمتد نزولاً عبر نهر الدون إلى بحر آزوف، ومن هنالك إلى الكوبان...

تم بحث المناخ السياسي بتفصيل أدق، بأصوات مكتومة. خرجت حقيقة مؤكدة: وهي أن قلة القتال في أوروبا تسمح بنشر المزيد من الجنود لأجل الحملات في القفقاس. لكن الأقل وضوحاً كان ماذا سيكون رد فعل العناصر الموجودة في الجبال.

عاد أحمد إلى البيت ليجد كازبك يعمل بجد في الإسطبلات. لقد بدا عليه انشغال البال مؤخراً، فألقى بجهوده في الحصاد وتخزين المؤن والأعلاف للشتاء كأنما كانت حياته نفسها تعتمد على قيامه بتلك الأعمال. لم يكن من عادات أحمد أن يتطرق إلى المواضيع ذات الاهتمام الشخصي: لذلك بدأ عوضاً عن ذلك بالعمل إلى جانب ولده البكر، مما يعطيه الفرصة للتشاور. لكن كازبك اكتفى بشكره على المساعدة بنبرة عادية، واستمر الرجلان في فرز عدة الخيل التي تحتاج إلى التصليح.

فكر أحمد أن الطريقة الموفقة في الانطلاق ربما تكون سؤال كازبك عن رأيه في الشؤون المحلية. رفع ظهره منتصباً وسأل: "ماذا تقول يا كازبك؟ لقد حذرنا الأمير بقوله أن من الحيوي إبقاء المقاتلين الشباب تحت السيطرة. ما رأيك بالنسبة لأنور؟".

قطب كازبك "أبقه في البيت. واضح بالنسبة لي أنه يفكر في فتاة ما. إن قيامه بالغارات يغريه لعدة أسباب – الأمر يرفع معنوياته، وهو يسعى إلى تكوين سمعة..."

قال أحمد باقتضاب "إنه ليس بحاجة إلى أن ينهب، فأي صداق يريده لأية عروس سيكون جاهزاً".

ضحك كازبك لكن كان لضحكه رنة فارغة "أعتقد يا أبي، أنه حريص على تجنب رفضك فأنت لم تكن سعيداً بالمخاطرة من دفعة عقابية بشأن نورسان.."

نظر أحمد بحدة إلى ابنه "إن زوجتك تستحق ضعفي صداقها، إنها امرأة راقية..."

استمر كازبك في العمل "إنها حقاً غالية، يا أبي، غالية جداً". وأضاف بعد فترة صمت قصيرة "أعتقد أنه ربما يتوجب أن أكون أنا الذي سيقود الأفراس للبيع شمال خط الجبهة للشهرين القادمين. احتفظ بأنور قريباً من البيت. أعتقد أنه سيكون ممتناً لك...".

"سيذهب للتودد! حسناً... وهل تعلم إلى أين سيذهب؟"

"إذا لم أكن مخطئاً... فهي في الجلاخستني. همس باسم نبيل من الحابسا "وَرْق". لم يكن ينظر بعين الرضى إلى الزيجات داخل العشائر، لكن أنور محظوظ: بما أن والده غريب من الكوبان، فهو يحق له اختيار من يشاء من كل المنطقة – حتى بنات جيرانه القريبين.

كان كازبك على وشك أن يكشف المزيد حين دخل "بشله" يركض إلى داخل الإسطبلات ليخبرهم باقتراب قافلة صغيرة من العربات وأن الفارس القائد يسأل عن كازبك.

ترك الأب وابنه عملهما وأسرعا للوقوف إلى جانب بوابتهما، يراقبان العربات الثلاث وهي تتدحرج بتثاقل فوق الطريق المتجمدة المليئة بالحفر المؤدية من ضفة التيريك إلى القرية.

وقف الفارس الوحيد في ركاباته ولوح بالـــ "باباخ" فوق رأسه. كانت العربات التي تسير خلفه مغطاة بقماش أسود، وقد اهترأت المرابط، أما الخيول المربوطة بين عرائش العربة فقد كانت عرجاء إلى درجة لا تكاد معها تأبه لضربات السوط. لقد كانت قافلة صغيرة بائسة لكن شيئاً ما في وقفة الفارس النحيل الصلب جعل قلب كازبك يسارع في خفقانه.

قال لأبيه "لم أفكر أبداً أنني سألتقيه مرة أخرى!" وركض إلى الأمام باندفاع.

ترجل الفارس الغريب وركض إلى الأمام ليحيي كازبك بشوق صبياني. وقف أحمد متفرجاً، يملأه الفضول. كان الرجل أكبر سناً من ابنه: صلب العود، ناحل، ذو هيئة متحفظة. يرتدي أسمال ثياب تاجر تتري من أصل تركي... ولكن عندما انفتح معطفه، التمعت أسلحته على خصره، خنجري كنجال وسيف مقوس. لم يكن في هيئته ما يدل على ممارسته التجارة. إنه مرتد من نوع ما.

"جيد جداً أن أراك يا كازبك – ولكن الحمد لله، فأنت مستقر ومؤسس عائلة هذه الأيام! لقد أخبرني عمالك في الحقول أين يمكنني أن أجدك..." تكلم الرجل اللغة التتارية بأرقى اللهجات.

مال أحمد برأسه حتى يستمع بأفضل ما يمكنه بدون أن يفقد هيبته كرأس العائلة، منتظراً أن يتم تقديمه.

أعلن الغريب بدون مقدمات "لقد جئت أنشد المساعدة".

"لك ما تطلب. أولاً، يجب أن تتعرف إلى والدي... أيها "التحمادا"، هذا هو أصلان جيراي، ابن بهادير، سليل الأسرة الحاكمة لخانات القرم ذوي الأمجاد الغابرة".

"كان يجب أن أخمن! لقد سمعت العديد من القصص الرائعة عن صداقتك لابني! أنت على الرحب والسعة يا أصلان جيراي – إن بيتي هو بيتك... مع أنه لا يقارن بقصور خانات القرم.."

دهش أحمد في سره لأن أصلان بدا مسناً ووجهه مليئاً بالتجعدات إلى تلك الدرجة. فكما يذكر، فقد ضم الولدين إلى بعضهما في التدريب لكونهما في نفس السن.

انحنى أصلان بشدة :"لقد مضى وقت طويل على معيشتي في أي قصر". قال بنعومة "كازبك، أرجو أن تساعدني... إن والدتي موجودة معي. هي لم تعد صغيرة، وقد كانت الرحلة طويلة".

تحرك الرجال الثلاثة نحو العربات المغطاة. نظر أصلان حواليه بحركة آلية كما لو أن أحداً يتجسس عليه، ولكن بما أن

مستوطنة أحمد كانت على مسافة معقولة من مركز القرية، ولكون مراد الجار الوحيد، فقد كان آمناً من التمحيص.

سحب أصلان الغطاء إلى الخلف، فاستندت امرأة في سن متقدمة ولكنها ذات حضور استثنائي على وسائدها المحشوة بالقش. كانت ترتدي ثوباً من المخمل الأزرق أطرافه مشغولة بالذهب تحت شال يغطي جسمها بالكامل وقد تكومت فوق مجوهراتها، كما تدلت العملات الذهبية من سلاسل غليظة، وأطواق جميلة مرصعة بالألماس واللآلئ.... وكان ساعداها ملفوفين حتى المرفقين بأساور ذهبية – لكن أحمد لم يشاهد سوى لمحة، لأن المرأة العجوز رفعت ثوبها الأسود فوق رأسها كلياً وتكورت فوق مكان راحتها المؤقت.

طمأنها أصلان بأن رحلتهما قد انتهت، وأنهما مع أصدقاء، لكن السيدة العجوز ظلت مختبئة. أشار أصلان قائلاً "هنالك اثنتين من خدمها في الخلف هناك" استطاع أحمد أن يشاهد عيونا مزنرة بالكحل وتتقنع بنصف حجاب، تطل عليه من العربة الثالثة، لوجوه خائفة تطل إلى الخارج من خلال الأغطية الشادر. عيون وحشية ومع ذلك فارغة، تشبه أعين الحيوانات الواقعة في الأفخاخ.

قال أحمد فوراً "سوف أستدعي من يساعد" ونادى على أحد الخدم ليحضر له فرسه "سوف أركب أمامكم إلى بيت الأمير. كازبك، اجعل النساء يحضرن الماء للمسافرين... يجب على تسيما أن تهتم بالأم حالاً".

ركب مبتعداً خلال ثواني، وأحيطت العربات بالخدم التواقين لتقديم العون.

وقف أصلان يسد باب غطاء العربة "أرجوكم أن تلتزموا الهدوء. إنها خائفة." استدار وتحدث بهمس إلى أمه التي بقيت صامتة ومنكمشة على نفسها في الداخل.

شرح أصلان حالتها بقوله "إنها خائرة القوى. الملاذ..... ذلك هو كل ما أريده لها".

خرجت تسيما من الساحة وشرح لها كازبك في عجالة بعيداً عن سمع الآخرين، هوية الشاردين. أقنع أصلان أمه بشيء من الصعوبة أن تسمح لتسيما بالدخول إلى العربة وتقديم قليل من "التيزان" المنعش. بعد استراحة قصيرة، انطلقت القافلة مرة أخرى بقيادة كازبك هذه المرة، راكباً مع شقيق الدم لطفولته. بمجرد أن مشيا جنباً إلى جنب في سرجيهما، انطلق الرجلان في اقتسام الأسرار في عجالة، وقد انداحت السنين. فعادا إلى كونهما المقاتلين الصغار تحت التدريب مرة أخرى.

"لقد توفي والدي"

"لا حول ولا قوة إلا بالله..." وتلاشى صوت كازبك في الأدعية والصلوات التقليدية.

"نحن متفرقون اليوم... عائلة الجيراي. ليس لدينا إلا قلة من الأصدقاء. بعد أن تم عزل عمي، الخان الأخير، أبقي فعلياً تحت الإقامة الجبرية من قبل الروس في فورونزه. في نهاية المطاف سمحوا له بالذهاب إلى تركيا. قام السلطان بالعناية بعمي لفترة ما. لكن عندما أعلن الباب العالي الحرب على روسيا، جاء التنديد بعمي شاجين على أنه جاسوس روسي من قبل السلطان. تخلى الروس عنه وتركوه لمصيره. استطاع أن يهرب إلى جزيرة رودس – لكن في النهاية، أعدمه الأتراك بقطع رأسه".

"رحم الله روحه".

شخر أصلان ساخراً لقد كان شاجين جيراي طاغية، ولم يكن رجلاً متديناً، بل كان ألعوبة في يد روسيا. لقد نال ما يستحقه. أما بالنسبة لأبي... فإنه كان سيكون حاكماً أكثر حكمة. لكنه توفي من جراء وباء في أنابا السنة الماضية".

"وأنت يا أصلان؟ ماذا تنوي أن تفعل؟"

"سنتحدث عن ذلك بالتفصيل لاحقاً... لا بد وأن يكون هذا الخادم من بيت الأمير.."

ترجل أصلان جيراي. تمت مراعاة الرسميات: قامت أذرع قوية بحمل الخانم العجوز من العربة وأخذها، وهي ملتفة بأثوابها السوداء، إلى جناح النساء متبوعة بخادمتيها المسرعتين في إثرها. أمر الأمير عمر بإقامة وليمة لأصلان في تلك الليلة، وفي تلك الأثناء، ركب أمير الجيراي إلى بيت كازبك بصحبته، حتى يسر إليه بخططه.

استحم أصلان وبدل ملابسه بارتداء قفطان وثوب صيني من حرير البروكار أكثر ملائمة لمنزلته. أنعشته الراحة والرفاهية بحيث بدا على حقيقته السابقة. جلس مستدفئاً في صالة كازبك، حيث أشغلت نورسان نفسها بدون أن تظهر وهي تقدم الشاي والحلويات. حتى في هذه الأجواء المتمدنة، ظهر أصلان دخيلاً، مبهراً، ساحراً بطريقة غريبة بشاربيه الحريريين الطويلين وملامحه النسريّة. امتلكت نورسان ما يكفي من حسن التربية ما منعها من التحديق فيه بل أن تشبع حب الاستطلاع لديها بطريقة خفية.

حين غادرت نورسان الغرفة، أطرى أصلان جمالها بالطريقة الوحيدة التي يمكن فيها الإطراء بالنسبة لقباردي "أنت رجل محظوظ يا صديقي. لديك بيت، زوجة، وطفل..."

"لقد أكرمني الله سبحانه وتعالى" قال كازبك متفكراً.

"لم يكن سبحانه وتعالى راضياً عن آل جيراي إلى تلك الدرجة، ذلك هو السبب الذي من أجله يجب أن أطلب مساعدتك". بدت على وجه أصلان أمارات الهدوء الجامد لرجل ذي كبرياء، أجبر على طلب المعروف وصالح نفسه عليه.

"اطلب أي شيء... ما عليك إلا أن تسميه".

عقد أصلان ذراعيه، وهو يكاد يمتنع كارهاً عن الإفصاح عن نواياه السريّة. التمعت عيناه السوداوان كأنهما قطعتي فحم محترقتين.

"إنني ذاهب إلى مكة للحج. أريد أن أؤدي فريضة الحج".

دهش كازبك. لو أن أحداً سأله عما يعتقد أن أصلان كان يفعله خلال كل هذه السنوات منذ أن افترقا، لكان عرف أنه حالف روسيا، ونال الحظوة في البلاط – بكلمات أخرى، اختار أن يخدم لدى الجهة الفائزة....

قابل أصلان نظرته المحدقة "نعم، لقد أديت مدة خدمتي في البلاط في سانت بطرسبرج. لكن بلادي فقدت – لم يعد هناك بصيص أمل في إعادة تنصيب الخانات بعد أن تولى الكسندر السلطة. لقد هرب الناس إلى تركيا، خوفاً من قسوة "الجاور"... لم يعد وطني على ما كان عليه".

استذكر كازبك بحيوية وصفاء خط السماء الذي يشبه قصص الجنيات، الأبراج الصغيرة، المآذن، الينابيع والنوافير، أسواق باكتشي سيراي المزدهرة المكتظة بالناس. بات صعباً عليه أن يتخيل الحقول ذات المصاطب مهجورة بدون رعاية والقرى الريفية في شبه الجزيرة وقد أصبحت نصف خالية.

داهمه دافع عابر لأن يذهب إلى الحج مع أصلان، لكنه أدرك أن ذلك غير ممكن. لأن ذلك سيكون مجرد تجنب لقدره الحالي. سوف تتحسن نورسان ببركات الله تعالى، إضافة إلى ذلك فهناك ميراثه وعائلته اللذين يحب حمايتهما. ومع أن الحج واجب على كل مسلم في رحلة ما من حياته، إلا أنه مطمح ما زال بعيداً بالنسبة له.

سأل "متى تغادر؟"

"بمجرد أن أحصل على إذن أميرك بأن أترك والدتي هنا للحفاظ عليها".

نهض كازبك واقفاً "سوف أكلم والدي. أعرف أنه سيسعده أن يكون "الكوناك"، الحامي لها.

"أشكرك يا كازبك". ظهر على أصلان الارتياح لأول مرة منذ وقت طويل. "لقد اختبأنا لدى بعض تتار القرم في كيزليار لفترة من الوقت. لهذا السبب وصلنا إلى هنا في حالة مزرية... لقد نصحونا بالسفر متنكرين. ليست لديك فكرة عما يعنيه لوالدتي أن تعيش في مثل هذه الظروف التعيسة. أتمنى أن تنعم بالسلام والأمن على الأقل في أيامها الأخيرة".

لم تبق لدى كازبك سوى أقل الذكريات الغامضة عن النساء في قصر جيراي – مخلوقات واهنة تهمس في حدائق الورد، أو أشكال براقة تضحك خلف الجدران المعرشة لقسم الحريم. لم يتمكن من البدء في تخيل مقدار حزن الخانم المنفية.

لكن نورسان استطاعت. فقد استرقت السمع لهذه المحادثة وشعرت بأحاسيس شبيهة بالإثارة تتحرك في داخلها. في نهاية المطاف غادر الرجال لحضور المأدبة لدى الأمير عمر.

آوت نورسان إلى جناحها، وهي تحاول أن تتذكر كل القصص الرائعة التي رواها لها كازبك في ليالي التذكر الطويلة حول رحلته إلى قصر آل جيراي في شبه جزيرة القرم، عندما كان صبياً صغيراً. لقد كانت لديها صورة متسلسلة واضحة التعريف عن كل الأحداث – لكن لم تكن لديها أية فكرة عما يمكن أن تبدو عليه الخانم.

لم يمكث أصلان سوى أيام معدودات. فقد اتخذ القرار بأن يوفر الأمير نفسه الملاذ للخانم. لم يعرف هوية القادمين الجدد إلا قلة من الناس في القرية، وجعل أمير الحابسا أهل بيت أحمد يقسمون اليمين على مراعاة السرية، كمسألة أمنية. كانت الخانم طاعنة في السن وضعيفة الجسم، ومن غير المحتمل أن تغامر بالابتعاد عن الساحة الملحقة بمقر الأمير. لم تكن تلك المرة الأولى

التي جاء فيها الناس الذين جرى أجلاؤهم عن أملاكهم إلى أودية القفقاس باحثين عن ملاذ، ولن تكون الأخيرة.

فكر كازبك في مغادرة أصلان. فقد سبب له الوقت الذي قضياه سوية بعض الارتباك - ذكره بفترة في حياته حمل فيها مثاليات نقية غير ملطخة، آمالاً عظيمة، عواطف لم تتحرك بعد في دخله. خرج إلى الحقول المتجمدة وأجهد نفسه في العمل بلا توقف، بينما ظل يحاول أن يتعايش مع تعاسته.

عملت نورسان على إدارة شؤون بيته بشكل مثالي. بعد مغادرة أصلان، بدا أنها تعرف أن كازبك يعاني من الحنين إلى الماضي، لذلك جلست إلى جانبه لأمسيات عديدة متواصلة أمام وجاقهما، وهي تطرح الأسئلة المتصلة عن أيامه الغابرة مع "الأتالق".

تكلم كازبك بلا توقف، وهو يحس بسحر الألفة معها مرة أخرى. كانت نورسان تأخذه إلى فراشها في بعض الأحيان، حيث ينعم بحنانها.

لكن الأمر ظل بلا فائدة. استلقى إلى جانبها في إحدى الليالي، وقد غمرته المعرفة القاسية لأفكارها الداخلية المغرقة في السرية. لو أنها حملت مرة أخرى، فكيف سيقنعها بأن لا تفعل به أي شيء؟ لكنها فهمت هذا الأمر أيضاً "لن أتناول الدواء يا كازبك. أعرف أنني مخطئة - أنا - أنا فقط أقلق إلى حد....".

احتضنها بقوة وقد فقد القدرة على الكلام. أحسّ جزء منه بالانفراج، لكن اللجزء الآخر أحسّ بنوع من الغضب الخامل.

همست له مرة أخرى في الظلمة "كازبك، هل يسمح لي بزيارة الخانم؟"

استدار نحوها وقد فوجئ "لديها رفيقاتها. إنها ضعيفة لحد الوهن... من المحتمل أن تشعر بالعصبية من استقبال الغرباء".

"هل تطلب لي الإذن من الأمير؟ أرجوك أن تنقل طلبي... الأمر هو هذا، لأنها امرأة من النبلاء، أعتقد أنها ستشعر بالوحشة بدون عائلتها، بدون سيدات بلاطها".

استلقى كازبك إلى الوراء، وقد سحرته نورسان مرة أخرى بطرائقها الغريبة. ربما كانت المرأة الوحيدة التي يمكن أن تشكل مثل هذا الرأي العميق والمليء بالخيال في قرية الحابسا.

"إذا كان الأمر يسعدك يا نورسان، فسوف أنقل رغبتك في المقابلة".

بعد بضعة أيام، سمح لنورسان بزيارة الخانم في جناحها الخاص. عادت إلى البيت وهي تحس براحة نفسية عميقة: شعر كازبك بالغموض، وسمع كل التفاصيل وهما جالسين إلى جانب النار.

"لديها أفخر السجاجيد والمعلقات على الجدران... لقد أعطاها الأمير شقة صغيرة، لكن خدمها رتبن كل شيء بطريقة مثالية. لديها مصابيح فارسية وسماور شاي من الذهب الخالص. لديها كذلك ساعة حائط إنجليزية – لم أشاهد واحدة قبلاً أبداً يا كازبك! إنها تعمل بواسطة جنزير وثقل بطريقة ما... تكلمنا باللغة التتارية: لقد تلت لي بعض الأشعار. غنيت لها وعلمت الفتيات تهويدة قباردية – تلك التي كان إمام يحبها عندما كان صغيراً جداً. يفترض في أن أزورها مرة أخرى غداً".

"لم لا تأخذين إمام معك؟"

"كلا، إنها أكبر سناً بكثير من أن تتحمل طفلاً مشاكساً. سوف تكون تسيما مسرورة بوجوده لديها بدلاً من ذلك".

الأمر أسعدها على الأقل. اقتنع كازبك بهذه النتيجة. لكن بمرور الوقت شعر بالندم لأن زوجته تستمتع بساعات عزلتها مع الخانم العجوز بنفس مقدار استمتاعها برفقته. لم يكن هناك خطأ

فيما تفعله نورسان. فقد كانت مطيعة، متعاطفة، محبة. لكنها لم تحمل بعد ذلك أبداً. صدقها عندما أقسمت بأنها لا تقوم بأي عمل خاطئ. ومع ذلك فقد كانت الشكوك تعذبه. ربما فقدت طفلاً، في ذلك الوقت الذي مرضت فيه، وأدى ذلك إلى حدوث خلل لديها. قد تكون سممت جسمها بالأعشاب السحرية. ربما كانت خائفة ببساطة من أن تنجب الأولاد، ولكونها حساسة، فقد جسمها قدرته...

حمل كازبك خيبة آماله لوحده، كان حبه عظيماً إلى درجة أنه تعاطف مع مخاوف نورسان أكثر مما يجب، ولم يعترف بمشكلتها لأحد خارج جدران غرفته الأربعة. تقبل قدره، ولم يتوقف عن حب زوجته بطريقته العميقة الخاصة، أبداً.

***

الفصل السابع

تحققت أمنية الجنرال اليكسي بيتروفيتش ييرمولوف. على أثر عودة القيصر الكسندر الظافرة إلى موسكو من حصار باريس عام 1814، كوفئ الجنرال الذي أسهم إلى درجة كبيرة في نجاحه بتسليمه القيادة المنفردة لجيش القفقاس، وتعيينه سفيراً فوق العادة لبلاد فارس.

شعر ييرمولوف أنه يستحق التعيين كلياً، فهو وحده يمتلك الرؤية والفهم لتحقيق اكتساح المنطقة الجنوبية. وكذلك فقد استفاد من العمل مع رجال يفهمونه، وذوي شخصيات حميدة – مثل ايفان الكسندروفيتش فيليا مينوف، الذي اكتسب مهاميزه في معركة اوسترليتز وحارب بشجاعة إلى جانبه في باريس. كان ييرمولوف يتوقع فيليا مينوف في هذه الساعة.

جعل ييرمولوف قاعدته في الوقت الحالي في جورجييفسك، وهي مستوطنة روسية صغيرة نسبياً وذات إدارة فاشلة إلى الغرب من ايكاتيرينوجراد، إلى الشمال من نهر التيريك، ما بين نهر المالكا إلى الجنوب وروافد نهر الكوما في الشمال. كانت مقاطعة تابعة للنوغاي حتى زمن سوفوروف. وهي بلدة – حصن صغير قذر مليء بالمستوطنين الروس الفقراء وبقربها المستوطنة المعتادة لقوزاق الحدود التي تعج بالكلاب والخنازير. تنحصر أهميتها بالنسبة لييرمولوف حالياً في كونها واقعة في نقطة انتصاف خط الجبهة تقريباً، وهي مكان يستحب التواجد فيه لجهة كونها نقطة ارتكاز للاستخبارات.

على أية حال، لن يستمر هذا الوضع طويلاً. فقد كانت نية ييرمولوف تنحصر في تأمين المتوازيين الأولين، خط نهري

التيريك والكوبان، ثم الاندفاع إلى الأمام باتجاه الجبال، لإنشاء خطٍ ثانٍ عند نهر المالكا أولاً، ثم العمل تدريجياً نحو نهر السونجا. كما سيتم تقدم مماثل باتجاه الغرب، في مناطق البزادوغ. أحد نواياه الأخرى كان حفر ممر داريل الضيق خلال الجبال، وإنشاء طريق عسكري صلب هناك بدلاً منه، ملائم بما يكفي لإيصال العربات، وواسع بما يكفي لمرور الجياد بسرعة. مما سيضع نهاية للشحن البطيء المتعب بالعربات التي تجرها الثيران، مما يجعل أية تحركات من الشمال إلى الجنوب أو بالعكس، مكشوفة تحت رحمة الجبليين. كان يفكر في تجنيد ألوية من قوزاق جريبنتسكي لحراسة بنائي الطرق، بقايا النوغاي، ولكي يفهم الشيشان أنه هو، ييرمولوف، موجود هناك ليبقى.

لم يكن ييرمولوف يطيق الانتظار حتى يباشر بالعمل. فقد كانت حياته كلها مكرَّسة للامبراطورية، لتحقيق أعظم طموحاته. لم يريد أن يضيع الوقت في صالونات جلوس البلدات الحدودية: أراد أن يكون ملتفاً بمعطفه الكبير هناك على الخط الأمامي حيث كان العمل ينتظر...

وصل فيليا مينوف، وهو رجل طويل ضخم الجثة ذو حضور بدني أخرق. حياه الجنرال بقوله:

"ادخل ادخل، فلا رسميات بيننا، أيها الصديق القديم! أهنئوك على تعيينك – أنا سعيد لأننا سنتمكن من أن نكون معاً مرة أخرى".

أومأ برأسه بحزم إلى فيليا مينوف ليختار كرسياً يجلس عليه: انحنى الضابط حسب الأصول واتخذ مجلسه قبالة قائده إلى جانب النار المتوهجة. ناوله ييرمولوف كأس فودكا مترعة وشرب هو جرعة كبيرة، ثم دوى صوته "كأس الأيام القديمة".

أجابه فيليا مينوف بصوته الراقي ونبراته الموزونة "بصحة الأيام القديمة، لأوروبا، لباريس..."

كان الرجلان يحبان ويحترمان بعضهما بعضاً كجنديين، لكن كانت هذه هي المناسبة الأولى لهما ليعملا سوية، وذلك أمر يتطلب معرفة وألفة أعمق. تمعن فيليا مينوف في الجنرال. إذ كان معجباً به أكثر مما تستطيع أن تعبر عنه الكلمات. فقد كان يبرمولوف قاسياً، لا يعرف الخوف، متوحشاً (لقد أتم تدريبه تحت إمرة سوفوروف ونال وسام صليب القديس جورج وهو في سن السادسة عشر الغضة) وإلى جانب ذلك مخطط تكتيكي صاحب قرار. خلافاً للآخرين الذين يمتلكون هذه القدرات، لم يكن بارد الأحاسيس أو غير راغب في دخول المعترك، وهو السبب الذي من أجله كان الجنود يهيمون به. فهو يأكل مثل فلاح، ينام مرتدياً ملابسه، ويتجول بين خيام الجنود مستمعاً إلى شكاويهم وآرائهم، بدون أن ينقص ذلك مثقال ذرة من سلطته.

عرف فيليا مينوف أن لديه شيئاً يمكن أن يقدمه إلى هذا الشكل العملاق. فهو أصغر منه بسنة واحدة فقط، ولديه نفس خبراته، وحتى أفضل منه كمخطط تكتيكي. يعرف تاريخه العسكري بعمق أكبر منه، وربما يمتلك دماغاً متفوقاً، تعليماً أرقى حتماً. بالطبع فإن يبرمولوف هو الضابط الأعظم. كان فيليامينوف ينزعج من هذا التميز لكنه يقبله. يعرف عن نفسه أنه غير متحيز، وقادر حتى على القسوة أحياناً. لكنه فقط لا يمتلك موهبة يبرمولوف مع الناس، مهما كان ذلك يعني... هو حتماً مقل في الكلام مقارنة بالغول الجالس أمامه، يجرع كؤوس الفودكا بنهم وعلى استعداد للثرثرة لساعات.

سعل يبرمولوف، فقد علقت في حلقه زمجرة رهيبة من غبار وضباب القفقاس "ليس هذا في مثل جودة البراندي الفرنسي الذي شربناه في باريس. لكن له تأثير بنفس الطريقة". أعاد ملء كأسه، لكن فيليامينوف لم يكن قد شرب من كأسه إلا رشفة واحدة.

قال فيليامينوف بدون مقدمات "أنني أتوق للوصول إلى تفليس، واستعراض الجنود في جورجيا. متى ستذهب إلى بلاد فارس؟".

فرك ييرمولوف عينيه، وكأنه يجرش قبضته الكبيرة مثل آلة في محجر عينه. ثم قال بلهجة تنم عن احتقار مطلق "يجب أن أنهي التفتيش العام هنا أولاً، كان الجنرال رتيتشيف أحمقاً، ولم يكن قائداً. لقد انتهج السياسة المغلوطة كلياً".

كانت نبرة ييرمولوف متعالية ورافضة كالعادة. استطاع فيليامينوف أن يفهم بوضوح لماذا تحتقر زمرة المستشارين العسكريين في البلاط – ومعظمها من الألمان – ييرمولوف وتعتبره غير جدير بالثقة، متبجح غير مصقول، تسلطي مثل الأسود. قصير وسمين، وغير مهتم بالأصول المرغبة في تصريف الأمور، وهو حتماً يفتقد إلى اللباقة. إلى جانب "مشكلة" الجبليين الصغيرة، كانت الأوامر قد صدرت من القيصر إلى ييرمولوف بالذهاب إلى بلاد فارس وإقناع الشاه أنه من "مصلحته" السماح لروسيا بالاحتفاظ بالخانات التي "أمنتها" روسيا إلى الجنوب من جورجيا. بات فيليامينوف يعجب كيف سينجح هذا الوحش السيء الطباع. سبر إلى عمق أكثر قليلاً حول نوايا ييرمولوف في القفقاس أولاً، قبل أن يتطرق إلى الموضوع.

قال فيليامينوف بنبرة تحمل التأكيد الهادئ "سوف نعالج هذه المشكلة قريباً. إن ما يقلقني الآن هو العصيان الجديد للإنجوش. لقد هاجموا "ستانيتزا" صغيرة على نهر السونجا".

أجابه ييرمولوف "لا يفاجئني شيء مما يحدث في الكافكاز. يجب تلقين الشيشان والأنجوش درساً. ذلك كل ما هنالك. هؤلاء الناس متوحشون. أنت بحاجة إلى أساليب وحشية للتعامل معهم".

"نحن متفقان في هذا، يا صاحب السعادة. أمر واضح أن الثوار ليست لديهم أية فكرة على الإطلاق عن حجم وقوة جيشنا. يجب أن نرهقهم بكل وسيلة متاحة تحت تصرفنا".

"لا دبلوماسية. ولا عروض سلمية. سوف أقدم لهم "هدايا"، قال ييرمولوف، وهو يرفع كأسه في نخب ساخر: "النار والسيف. هؤلاء الجبليين آسيويون في قرارة أنفسهم. وهم يفهمون شيئاً واحداً

لا غير: القوة. سوف تتم معاقبتهم حتى الخضوع. تلك ستكون سياستي. ضع السيف على رقابهم وأحرق قراهم إذا عصوا. تلك هي اللغة الوحيدة التي يفهمونها".

لم يعترض فيليامينوف على الحدة أو المبالغة في كلمات ييرمولوف – ربما كان هو سيصوغ العبارات بقدر أقل من الجرأة لكن ييرمولوف عبر عن رأيه بالضبط. بعد أن شعر بالاطمئنان على هذه القضية، تحدث بدرجة معينة من الاهتمام الاستكشافي عن القضايا الأكبر.

"أقول لك، لقد كنت أفكر.... نحن الجنود نقاتل وننزف الدماء للحصول على المزيد من المقاطعات لأمنا روسيا وقيصرتنا. ثم يجيء حقير ما بعدنا ويتخلى عنها كلها مرة أخرى بالسهولة التي يتبول بها. لقد حدث هذا الأمر مرات عديدة في ماضينا. انظر إلى معاهدة السلام التي وقعها القيصر مع تركيا في بوخارست قبل أربع سنوات. كل ما غنمه القواد قبل جودوفيتش وبما فيهم هو بالشجاعة والصعوبات، تمت إعادته بجرة ريشة. لماذا نستمر؟ هل الأمر يستحق المشقة؟

لم يفاجأ ييرمولوف بأفكار فيليامينوف. فقد كشفت له عن العيب الوحيد في شخصية الضابط الذي يليه مباشرة في القيادة. إنه يفكر أكثر مما يجب.

مال إلى الأمام ولمس بيد الرجل الآخر بقوة، وكأنما يريد أن يحقنه بقليل من أسلوبه الخاص بالدم والأمعاء: "أعدك يا فيليامينوف. إن ذلك لن يحدث مرة أخرى. يجب أن نخضع هذه المناطق مرة واحدة وإلى الأبد ونحتفظ بها إلى الأبد. هذه هي روسيا". قال وهو يلوح بيد مالكة في الهواء، وكأنه يمتلك النـفَـس الموجود داخل رئات الجبليين: "يجب على الناس الذين يعيشون فيها أن يطيعوا قوانين قيصرتنا. لا يهمني إن كانوا مسلمين أم وثنيين، عليهم لعنة الله. إنهم يعيشون على أرض روسية".

امتعض فيليامينوف من كلا الموضوعين: فهم بيرمولوف الضحل للقضايا التي يبلغ عمرها قرون طويلة، ومن الألفة التي حملتها لمسته ليده.

"قد لا أتفق مع فهمك لقضية الجغرافيا، لكنني طبعاً أتفق مع سياستك. يجب أن لا تسمح لمؤامرات البلاط في تفليس أو سانت بطرسبرج أن تتدخل في عملنا. لقد خسرنا كل شيء غنمه جودوفيتش لروسيا تقريباً".

بدا لئيماً، مستاءاً. ليس هذا هو نوع الدوافع التي تحرك بيرمولوف، الذي سخر منه بأسلوب عرضي متعمد.

"ذلك جنرال أحمق آخر، لم يكن جودوفيتش شيئاً. لقد دمَّر ابن السفاح العجوز بعض السير الناجحة ونسب إنجازات ضباطه لنفسه بحيث تلقى الثناء عليها. حتى معركة جومري كانت من إنجاز نيسفيتسوف في الحقيقة، ولم تكن إنجازاً له".

أثار ذلك اهتمام فيليامينوف، فهو يحب أن يجمع الحقائق...

"إذن! هذا هو سبب فرارك من الخدمة!"

زمجر بيرمولوف غاضباً: "يا للجحيم، أنا لم أهرب! عندما استبدل ذلك القيصر الخائر بول، زوبوف ووضع مكانه جودوفيتش الخرف المتأتئ، عاد كثير من ضباط زوبوف إلى بيوتهم على أن يخدموا تحت إمرة مثل ذلك الكيس من الزبالة. لقد كنت واحداً منهم – هذا كل ما في الأمر. بالإضافة إلى ذلك، فإن المتعة الحقيقية كانت متاحة في أوروبا، وليس إضاعة الوقت في القفقاس تحت قيادة ذلك العجوز المتعالي الذي أفل نجمه. بإمكان الجبال أن تنتظر – لقد عرفت ذلك، وكنت على حق".

"إذن... ماذا عن سوء الفهم؟ ماذا عن سجنك؟..."

حدَّق بيرمولوف في فيليامينوف، الذي كان يدفع بذلك الاتجاه ليختبر ولاءه بشكل واضح. كيف يجرؤ على ذلك...

"لا دخل لذلك بخدمتي العسكرية، يمكنك أن تطمئن إلى ذلك يا فيليامينوف. كل ما هنالك أنني اختلطت بصحبة سيئة على الجبهة الأوروبية".

اعتدل في جلسته وأشعل سيجاراً. "إذن. هل اقتنعت؟ هل هناك أمر آخر تريد أن تعرفه؟"

لم يكن فيليامينوف من نوع الرجال الذي يبيض وجهه خوفاً أو يحمر خجلاً. رشف كأسه إلى نهايته بأناقة ثم لعق شفتيه ليجففهما من طعم الكحول.

سلّم بعد بضع ثوان من التفكير "كلا، لا أقصد أن أتطفل، لكن من الأفضل أن يكون كل شيء مكشوفاً في العراء، هذا رأيي. إنني أنوي أن أخدمك بنزاهة وكفاءة، يا اليكسي بيتروفيتش. نحن يمكننا أن نحقق الكثير هنا، إذا لم يوقفنا أحد. بدءاً بعدم عادة أية أملاك إلى الشاه!"

بدا الأمر مسلياً ليرمولوف. إن فيليامينوف جندي جيد، لكن فكرة "كل شيء على المفتوح" مع رجل على هذه الدرجة من التفكير المتفحص الجدي، كانت تدعو إلى السخرية من قبله. سوف يدعمه فيليامينوف فقط لأنه يتفق مع السياسة التي شرحها له. هناك المجد أمامهما، وهو واثق من ذلك.

قال بنبرات كسولة كأنه حاكم شرقي "أنا لست في مزاج أعطاء أي شيء. حتى لو أن قيصري حدد لي مثل هذا المسار في العمل. أنا سعيد لأنك توافقني. على أية حال يجب أن نبقي الشاه بعيداً عن ظهورنا. فهو بدوره يريد أن يستعيد بعض المناطق القفقاسية لإمبراطوريته. لن أتخلى عن فيرست واحد. لكنني لا أريد أن اضطر إلى إثبات رأيي بقوة السلاح. لدي هنا الكثير على الخط الشمالي من عمليات التنظيف لأقوم بها بدون أن يتم توريطي في حرب فارسية أخرى".

بدا على فيليامينوف أنه مقتنع جداً بهذه الخطة. نهض واقفاً وتفض ذرات غبار وهمية عن زيه العسكري الخالي من التجاعيد. "يفترض أن أقابل ضباط الأركان في الصباح الباكر. سيكون قادة الحامية كلهم موجودين. هل هناك أية تغييرات أو أوامر جديدة لخطط العمليات؟".

ابتسم ييرمولوف. فقد كان فيليامينوف متعطشاً إلى القتال بطريقته الخاصة.

"كلا، فلنبدأ بتطبيق السياسة الجديدة على الفور. أريد أن يعرف الجبليون أننا قد وصلنا".

كانت نار الفودكا قد فعلت فعلها في بطن ييرمولوف، وكان السيجار ينشر نشوة ممزوجة بالنشاط والحبور خلال جسمه الضخم". أخبر القادة أن لا ينتظروا حتى تحدث الغارة عليهم ليتخذوا الإجراءات. اجعلهم يقومون بقليل من الإغارة أنفسهم. أريد أن يتم إحراق بضعة قرى وتسويتها بالأرض".

"بطاقة زيارة".

"نعم، حقاً. لدي رغبة في أن يحرس الرعب من اسمي حدودنا بقوة أكبر من سلاسل الحصون".

وجد فيليامينوف تلك العبارة مصوغة بشكل مرضي، واستأذن في الانصراف سعيداً.

***

بينما كان تيمور وبعض أصدقائه عائدين من الصيد قبيل الفجر في يوم صافي الطقس، لمحوا ثلاثة خيالة يقتربون من قرية الحابسا. وكما هي عادتهم، غيَّرت المجموعة طريقها على الفور لمواجهة الأغراب والتحقق من أنهم أصدقاء وليسوا أعداء.

صاح تيمور عبر الريح لرفيقه في الصيد حميد: "يبدو وكأنهم شيشان. يحتمل أن يكونوا من أصدقاء أنور، هذا رأيي....".

على الرغم من ذلك، سحب تيمور، وحميد والقبارديون الشباب الآخرين سيوفهم وركبوا عدواً بأقصى سرعة لهم نحو المواجهة، جاهزين للتحدي وشجعاناً بأسلوب غير عدائي كلياً.

فوجئوا عندما توقف المقاتلون الثلاثة، ولوحوا بأيديهم تلويحاً عريضاً وكأنهم يستسلمون. صاح أحدهم "شيشان، شيشان": استطاع تيمور أن يفهم ذلك، ثم قال الثالث، والذي كان رأسه ملفوفاً بعصابة وسخة بصوت أجش: "مراد؟ مراد الحابسا؟"

أصيب تيمور بالذعر. هؤلاء الشباب هم في مثل سنة هو ورفاقه، لكنهم كانوا بحالة رهيبة، شعورهم متلبدة وقذرة، وجوههم مخططة بالدماء والقذارة، وقد اختلطت روائح الدم وعرق الخيل برائحة أخرى أشد نفاذاً لم يكن قد خبرها لكنه فهم غريزياً أنها رائحة الحرب: الخوف، الكراهية، العنف العشوائي... تخاصمت هذه الروائح النتنة مع خياشيمه حتى حبست أنفاسه في حلقه. اختفت الأنسام الطازجة من ذلك النهار.

استدار تيمور نحو حميد "اذهب وأخبر أبي أن لديه زواراً من الشيشان. سوف اصطحبهم إلى البيت بنفسي".

طرد حميد جواده مبتعداً، وهو خائف لكنه يشعر بالإثارة، بينما أشار تيمور بقدر أكبر قليلاً من الكبرياء، إلى الشيشان حتى يتبعوه إلى عزبة أبيه. استرخى الخيالة الثلاثة في سروجهم وقد عثروا فجأة على الأمان، وتحركوا إلى الأمام بسرعة لا تزيد عن المشي.

استيقظ مراد ووقف عند بوابته، جاهزاً للإمساك بعنان فرس الخيال الأول. مدّ يده متحدثاً إليهم باللغة الشياشنية "أنا لا أعرفكم أيها الشباب. من أين جئتم؟"

قال الخيال الأول وهو يمسح وجهه بيده القذرة "ألا تذكرني، يا مراد؟" وكأنما يرجع صفات الزمن المكتوبة عليه إلى الوراء: "أنا ليتش، الخادم الذي ركب معك في معركة كيزليار..."

أصيب مراد بالصدمة، هل مرَّ ذلك القدر من الزمن؟ لقد كان وقتها مجرد طفل، وها هو الآن مقاتل متمرس... انزلق ليتش خارج سرجه، متمسكاً بمقدمته بقوة حتى يثبت وقفته.

قال الخيال الثاني: "أنا زيلمخا" وهو رجل ممتلئ الجسم، تعلوه سيماء الشراسة، في أواخر عشرينات عمره – أصغر من أبناء مراد... طبعاً! تذكر مراد الاسم فجأة.

"أنت ابن آتي! أهلاً بكم في بيتي! فلندخل إلى البيت، قبل أن يراكم أحد...."

لم يكن مراد يفكر فقط في الشائعات والجواسيس، بل كان يفكر في زوجته، الخانم. سوف ينتابها حزن عميق، وهي تفكر بالخطر المحدق بوالديها المسنين.... كان بحاجة إلى أن يخبرها بالأمر بلطافة.

"دعوا خدمي يهتمون بجروحكم، وسوف أرسل خبراً إلى أنور وأبيه أحمد، ليحضروا ويقدموا احترامهم. أمر جيد أن أراكم، أمر جيد أن أراكم..."

عانق مراد كلاً منهم وصافحهم بقوة ثم قادهم إلى جناح الضيوف بسرعة.

وهكذا، فقد كانت الشائعات صحيحة. لقد تحرك القوزاق مهاجمين. أنصت مراد بوجوم بينما كشف المقاتلون عن الفاجعة قليلاً قليلاً.

ركب مراد فيما بعد، المسافة قصيرة إلى مزرعة أحمد، حيث كان صديقه القديم يراقب أنور وهو يدرب حصاناً في إحدى الحظائر.

تحدث إليه مراد بهدوء، متكئاً على السياج إلى جانب أحمد وكأنه حضر لمجرد حديث صباحي عادي:

"إنني سعيد لأنني سأتمكن من إحاطتك بأخباري أولاً – قبل أن يتمكن ابنك المتحمس هذا من أن يسمعها... لقد وصل ثلاثة من الشيشان لتوهم. أحدهم هو ابن آتي –"

ظهرت المفاجأة على وجه أحمد "هل زيلمخا هنا؟ ما الذي حدث؟"

"غارات القوزاق على الشيشان. إنهم بحالة رهيبة – واضح أنهم لم يناموا منذ أيام".

"ماذا عن أقاربنا! الملا! عائلة الخانم!".

هدّأ مراد من روعه "لقد هرب الملاّ وكثير من القرويين إلى أمكنة أعلى في الجبال. وكذلك بالنسبة لعائلة الخانم. إن جنود بيرمولوف يحرقون القرى ويدمرون البيوت والمحاصيل أينما ذهبوا. إنهم يقتلون كل من تصل إليه سيوفهم. الأمر يبدو سيئاً".

تجهّم وجه أحمد الملوّح الذي خططته السنين. لقد أدرك كلاهما أنه مهما طال الزمن أو قصر، فأنه سيعود إلى هذا الوضع مرة أخرى.

سبَّ مراد وعقد يديه على بعضهما "أتمنى لو كان هناك شيء يمكننا أن نعمله. لقد اقترح تيمور أنه ربما يركب صعوداً مع العربات لينزل بأقاربنا إلى هنا. بإمكان أنور أن يذهب معه".

هزَّ أحمد رأسه رافضاً "لا أدري إذا كان ذلك ينطوي على الحكمة. يمكن أن يشكل خطورة شديدة في الوقت الحاضر... رحلة خطيرة جداً، فهم قد لا يصلون إليهم بدون أن يعترضهم القوزاق"

وقف الرجلان في صمت محاولين أن يفكرا في طريقة يقدمون فيها المساعدة بدون المخاطرة بأمن عائلتهم المباشرة الهش.

أضاف مراد "لم أقل شيئاً لمدينا بعد"

وافقه أحمد "الأفضل أن لا تخبرها، قبل أن يتسنى لنا الوقت للتفكير في حل ما".

لكنهما كانا أحمقين إذ إعتقدا أن بإمكانهما السيطرة على الموقف. خرجت تسيما من المنزل الزراعي حاملة فنجانين كبيرين من العصير لهما. كان وجهها شاحباً جامد الملامح.

"سمعت أن لديك ضيوفاً، يا مراد" قالت مستفسرة.

تبادل الرجلان نظرة دالة. حاول مراد أن يخفف من وقع الأزمة. "ألا نستطيع أبداً أن نخفي عنكن سراً أيتها النساء؟" قال بلطف "نعم، لدينا زوار. إنهم شيشان، ولكن لم يتسن لنا الوقت لنتحدث إليهم بطريقة لائقة. إنهم نائمون منذ لحظة وصولهم إلى هنا - إنها رحلة طويلة جداً".

لم ينطلِ الأمر على تسيما. نظرت إلى وجه مراد مطولاً وبقوة، ثم استدارت نحو أحمد قائلة بهدوء "أرجوك يا زوجي، إنني أرغب في التحدث إليهم، إنني قلقة على عائلتي".

لم يستطع أحمد أن يحتمل القلق المرتسم على وجهها "طبعاً يا امرأة. سوف نتحدث إليهم كلنا عندما يحين الوقت".

لحظتها أدركت تسيما أن أمراً خطيراً يدور. ابتسمت لمراد بلطف، ثم عادت إلى بيتها وقد قررت أن تؤجل النقاش فيه.

هزَّ مراد ذراع صديقه "لقد عرفت زمناً كان يمكن أن تقول فيه "نعم يا تسيما يا حبيبتي... أوافق على أي شيء تقولينه يا روحي!".

بان على أحمد الندم "ما أسرع ما عدنا إلى شخصياتنا الأديغه. لست متأكداً من أنني لم أكن أكثر سعادة هناك فوق في الجبال. كنت حراً... بدون تقاليد زائدة عن الحد".

نظر مراد حواليه إلى الحقول الخصبة الغنية الخضرة، الحظائر، الخيل السمراء الداكنة بجلودها اللامعة، وقال له، وهو الفصيح عندما يضطر إلى ذلك "أنت تتكلم بهذيان، نحن ما نحن عليه".

راقب أنور وهو يمتطي الفلو الذي كان يدربه ويعسفه. "ذلك الصبي موهوب مع الجياد. إنه أفضل حتى من أبيه. وماذا عن كازبك؟ لقد مضى أسبوع لم أشاهده فيه – إلى أين ذهب؟"

"يقوم كازبك حالياً بتوصيل قطيع من عشرين جواد إلى بلدة "بسة كوابه". أتوقع أنه سيغيب مدة أسبوع أو عشرة أيام أخرى على الأقل. إنها سفرة بعيدة من هنا".

لم يكن أي من الرجلين مضطراً إلى الإفصاح عن الخوف الجديد – أن أي شيء محتمل الحدوث.

تقع بلدة بسه كوابه، الينابيع الدافئة أو بياتيجورسك بالنسبة للروس، إلى الغرب من نهر التيريك، وهي البلدة المصح المفضلة عند الحامية الروسية المعسكرة في جورجييفسك القريبة... تلا كلاهما صلاة حماسية صامتة لأن يعود كازبك سليماً معافى إلى بيته.

أشغلت تسيما نفسها طيلة النهار، وهي تنتظر أن يجيئها أحمد بالتفاصيل الكاملة من الزوار الشيشان. مع حلول أواخر ظهيرة ذلك اليوم، وبعد أن استبد بها القلق، حاولت أن ترسل خادمة إلى مزرعة مراد، حتى تستطلع ما إذا كان يمكن استئناس شيء من الثرثرة بتلك الطريقة... لكن الفتاة عادت بدون أن تكون قد حظيت بمجرد لمحة من الزوار.

همست لها الخادمة "أعرف أن واحداً منهم جريح، يا سيدتي، لأنه كانت هناك خرق يجري حرقها، ورأيت خيل الغرباء في الإسطبل، واحد منها مصاب بجرح في كفله...."

أدركت تسيما فجأة السبب في تكتم مراد إلى تلك الدرجة. منتهى الحكمة: ستطير الإشاعات عبر القرية، ويصبح شعب الحابسا في حالة عصبية – حتى عدائيين، تجاه زوار ثائرين مثل أولئك.

"اسكتي يا بنية. ربما كانت تلك الإصابة نتيجة حادثة أثناء الصيد! لا تتنفسي بكلمة من الأفكار الخيالية لأي مخلوق – هل تسمعينني؟"

ابتعدت الخادمة باتجاه غرفة الغسيل وهي مرتبكة إلى حد ما، فقد كان لديها فهم في منتهى الوضوح بأنه يفترض فيها أن تتجسس. فإن تسيما ليست سيدة يمكن إغضابها...

أخبرها أحمد بالحقيقة الكاملة في وقت متأخر من تلك الليلة بعد أن أويا إلى الفراش. استلقت تسيما بين ذراعيه، متعبة وتشعر بالشيخوخة إلى درجة أنها كادت تتمنى لو تموت. بكت بصمت. استطاع أحمد أن يشعر ببكاء جسدها، لكنه أكثر حصافة من أن يلاحظ دموعها.

فليست تلك هي الطريقة للتسرية عنها.

رقد وقد جافاه النوم، وهو يحتضنها حتى آلمه ذراعاه. لم تنم تسيما هي الأخرى. سمعت تسيما بومة تنعق في مكان ما من أعماق الليل، واستمر نقيق الضفادع في البعيد، بين سيقان القصيب، على ضفة النهر.

قالت له "الأسوأ في طريقه إلينا، أليس كذلك، يا زوجي" وهي مدركة تماماً أن أحمد بدوره يسمع كل الأصوات.

"يرمولوف، ذلك الشيطان...."

"نحن لا نعرف ماهية الآتي. إن التكهن لا يفيد. يجب أن نحاول أن نبقى هادئين، ننام، نأكل جيداً، نحيا حياتنا بسلام ونمط طبيعي بقدر ما نستطيع. لا تحدثي أحداً بهذه الأخبار".

"كلا يا زوجي"

"تسيما، لقد نجونا عدة مرات، إذا كانت تلك هي إرادة الله فسوف ننجو مرة أخرى".

"نعم يا زوجي"

لم يكن هناك في الحقيقة المزيد ليقال، لا معتقد آخر للتعلق به. تعلقت تسيما بأحمد وشعرت بجسمه الهائل يسترخي ناعماً بين ذراعيها في نهاية المطاف. نام لبضع ساعات قليلة، لكنها لم تنم.

في اليوم التالي، كان لدى تسيما عمل في قسم الألبان لتشرف عليه، وبذلت أقصى جهدها لإشغال نفسها حتى لاتدع القلق يهزمها. بقيت في جناحها طيلة ما بعد الظهر وحتى حلول المساء، حيث كانت نورسان زوجة كازبك الشابة تعمل إلى جانبها، في الحياكة. تحدثا بكلمات قليلة، أكثر من التبادل المريح للكلمات حول لون الصوف أو عن إحضار المشروبات أو الطعام أو أي إلهاء آخر لابن نورسان البكر، إمام.

كان طفلاً أشقر، تعلو رأسه كومة من الشعر الأشقر الباهت، ونفس عيني أمه البنيتين الواسعتين، وكان المفضل بامتياز لدى جدته.

أجبرت تسيما نفسها على التركيز علىالعمل، ولم تسمح لعقلها أن تغزوه الذكريات القديمة للجبال: ذلك المهووس الشيخ منصور، الذي كان يتحدث بألسنة من لهيب واقفاً فوق النار الاحتفالية بليلة زفافها: الطبيب الروسي الحاد الملامح- باسل، وهو يلمس بطنها، ثم وهو يحمل السكين ليقطع بها ساق رجل..... شقيقها الحبيب حمزات، يركب مبتعداً إلى الحرب ولفحتها الزرقاء الحريرية مربوطة إلى حلقة.... ولا يعود.

ألقت تسيما نظرة باتجاه نورسان، وهي تعجب مما تفكر الفتاة فيه طيلة النهار، وهي تعمل بذلك القدر من الصمت والاستمرارية

على حياكتها. كانت تبدو في منتهى الهدوء، وهي جالسة على الأرض وقد وضعت النول ذي الملقط مفتوحاً أمامها، بينما يسقط نور المصباح الخافت على تصميمها ذي اللونين الأحمر والأسود.

يحتمل أنها مشتاقة إلى كازبك، الذي قاد الخيل باتجاه الغرب إلى بلدة الينابيع الساخنة، "بسه كوابه". تمنت تسيما لو أنه باق في البيت – فهي تريد وجود جميع أولادها في البيت معها هذه الآونة، في حالة ساءت الأوضاع....

قالت نورسان بخجل "هل هذا أفضل، يا حماتي؟" وقد رفعت رأسها بحيث أضاءت عيناها البنيتان الواسعتان في ضوء المصباح، بنداء واضح يطلب التشجيع.

سحبت تسيما نفساً عميقاً وحاولت أن تبقي على هدوئها. هي تحب نورسان، لكنهما كانتا متباعدتين تباعد القطبين في الطباع. فحيث تسيما تنافسية وقوية الشخصية، فإن نورسان حساسة، طيبة القلب، وقد حظيت بالرعاية والحماية في صغرها بحيث أقبلت على أي واجب بيتي بتركيز كما لو أنه تحدي هرقلي.

"إن شغل الإبرة الذي تقومين به متميز حقاً، أيتها البنت العزيزة. على الأقل ما أستطيع رؤيته منه...! لا تستطيع عيناي العجوزتان تمييز الألوان بشكل جيد في هذا الضوء الخافت".

استمرت نورسان بتدقيق شديد. "لم أقصد أن أرهقك في العمل. بإمكاننا أن نعمل المزيد في الغد إذا أردت." وهمت بالتوقف.

"كلا، لم أقصد ذلك" أحست تسيما فجأة بالاضطرار إلى أن تبوح بسرها إلى شخص ما، حتى لو كانت هذه "النسا" الخجولة التي – بالكاد تعرفها. فهي من عائلتها في نهاية الأمر. "أنا – أنا فقط قلقة على عائلتي في بلاد الشيشان. إن والدي طاعن في السن الآن ويقول الشيشان الذين جاءوا أنه هرب إلى ارتفاع أعلى في الجبال".

"إنني واثقة من وجود شخص ما يعتني بهم. أتمنى لو أن باستطاعتك أن تنزليهم هنا في القاردا" تجرأت الفتاة على الكلام بخجل.

تنهدت تسيما. "تلك هي أمنيتي في الحقيقة. ربما أطلب من كازبك أن يعيدني إلى الجبال لإنزالهم إلى هنا عندما يعود".

"نعم، أنا واثقة أن ذلك هو أفضل إجراء. كثيراً ما يتحدث كازبك عن أقاربه. إنه مشتاق إلى رؤية الجبال مرة أخرى".

ثار فضول تسيما، لأن كازبك كان على الدوام الصبي الذهبي في الحلبسا. أما الذي ظل دوماً يتعاطف مع الصراع فهو أتور...

"لقد كنا سعداء في بلاد الشيشان. كنا صغاراً جداً في ذلك الوقت. كثيراً ما رغبت في العودة لكن "التحملدا". نفضت تسيما كتفيها من استحالة إقناع أحمد بالانتقال إلى هناك مرة أخرى.

قالت نورسان بثقة "سوف يعيدك كازبك إلى هناك، ربما حتى أرافقك. فأنا لم أعرف سوى بلاد التشيجيم وهذه الحلبساي!"

فوجئت تسيما، ربما يوجد لدى نورسان من الجرأة أكثر مما أعتقدته موجوداً لديها. ففي نهاية المطاف، لقد سمحت لنفسها بأن يتم اختطافها. لكن ليس لديها إلا طفل واحد حتى الآن لإظهار إخلاصها لكازبك..... لقد أقسم كازبك أنه لا توجد أية خلافات بينهما، لكن من الناحية الأخرى، فلا يوجد المزيد من الأطفال..... حملت تسيما حفيدها بين ذراعيها. "تعال أيها الطفل الرائع! إن المقاتل الرائع مثلك يحتاج هو الآخر إلى النوم! سوف آخذه إلى فراشه، يا نورسان، لقد تعدى الوقت موعد نومه....."

"تصبحين على خير يا حماتي"

قبّلت نورسان ابنها برقة واستمرت في عملها في وحدتها الهادئة. كان ظهرها يؤلمها، وقد تصلب كتفاها، لكنها لم تشأ أن

تتوقف بعد. كان تشكل آمالها من خلال ألوانها، الأحمر والأزرق والأسود، تحيك تعويذة.

لم تكن لدى تسيما أية فكرة عن متاعبها.

عرفت نورسان أن كازبك في خطر. لقد كانت قواها الحدسية قوية على الدوام – أكثر من ذلك- كانت عبئاً عليها. حاكت على أطراف نسيجها نجوماً بيضاء تعبيراً عن القبلات التي تبادلتها مع كازبك تحت أشجار البلوط في التشيجيم، وزهوراً زرقاء عن السعادة في بيتها بجوار نهر التيريك. عملت حافة من اللونين الأسود والذهبي، تعبيراً عن شجاعة شباب الحابسا، وكررت في وسط الحافة الرمز الذي تحبه أكثر من غيره: بالأحمر، شجرة الحياة.

***

أقام قوزاق التيريك معسكرهم في منتصف صبيحة يوم مشمس، لقد ارتحلوا جنوباً من خط الجبهة الممتد من نهر الكوبان إلى نهر التيريك تحت جنح الظلام وحصلوا على ساعتي نوم قبل انبلاج الفجر.

قدم كشاف يعدو بجواده مسرعاً عبر صفوف الرجال الذين يحملون عدول خرجهم استعداداً لامتطاء جيادهم. وألقى بنفسه من الركابات خارج خيمة العقيد مباشرة.

قال جندي التشيرنومورسكي "لأتامان الستانيتزا" تقرير الاستطلاع، يا سيدي".

شدَّ العقيد حزام سرجه بينما هو يتلطف بإلقاء نظرة باتجاه الكشاف "تكلم يا رجل. هيا خلـّصني".

"القرية هادئة وغير مدركة. لا توجد تحركات منظورة لأية أسلحة".

"هل من شيء آخر؟ هل الرائد مقتنع؟" سأل العقيد.

"سيدي... شوهدت مجموعة من ثلاثة رجال وهم يقودون قطيعاً من الخيل خارجين من القرية باتجاه الغرب. لقد رحلوا في الصباح الباكر. ولم يتدخل الرائد بهم. لقد أصبحوا خارج المنطقة الآن".

قال العقيد "حسناً. يمكنك أن تعود إلى وحدتك. أخبر الرائد أننا سنشن الهجوم خلال ساعة".

ابتعد الكشاف عدواً بنفس السرعة التي ظهر فيها. التوتر يعم المكان وينتشر في الجو. الدماء فائرة. عرف القوزاق ما يتوجب عمله: بعضهم كان متحضراً لها، والآخرون في مزاج سيء. بعضهم كان يستمتع بالإغارة، بسبب سفك الدماء: تمنى الآخرون لو أن سادتهم يدفعون لهم أجوراً أفضل، بحيث لا يضطروا إلى البحث عن طعامهم بين القمامة لسد رمقهم.

انحنى ملازم باقتضاب "سيدي، لماذا سمح لجائزة مثل هذه أن تفلت من بين أصابعنا؟ إننا بحاجة دائمة إلى الجياد".

عدّل العقيد من وضع لباس رأسه الطويل المصنوع من الفراء، وقال "لأنه يا عزيزي الملازم، لا يكشف الضابط الكفؤ عن موقعه إلى العدو بسبب بعض الجياد. نحن لم نحضر إلى هنا لسرقة الجياد. لقد جئنا لكي نلقن القبارديين درساً. إن عنصر المفاجأة ذو أهمية عميقة الأثر. لقد تعلمت ذلك في معركتي يينا وأيلاو – أتوقع أن ذلك كان قبل مولدك".

وضع العقيد طاقيته مائلة إلى حد جانبي لحيته الكثة وسالفه.

"نعم يا سيدي. عام 1807 على ما أعتقده يا سيدي. تهانينا".

امتطى الرجال جيادهم. ارتدى الرجال في الميدان القليل مما يميزهم عن أعدائهم: طواقي فراء هائلة، سترات تشيركيسكا، جيوب صدر ممتلئة بالخرطوش. الفارق الوحيد الذي يمكن

ملاحظته هو الحالة السيئة لخيلهم – كان القوزاق مشهورين بمظاهر حيواناتهم التعيسة. رغم ذلك كانت خيلهم واثقة الخطى وقادرة على الركض السريع لمسافات قصيرة. لم يكن ممكناً سماع طرقعة لجام: مثل سائر القوزاق، لم يكونوا يلبسون زراً واحداً على ملابسهم أو وصلة جنزير في أي جزء من عدة خيلهم.

كما هو الحال في الفاجعة الطبيعية، في الزلزال أو الانفجار البركاني، فقد كان أول شيء أدركه قرويو ترام عن موتهم المحتوم هو صوت ذبذبة الأرض وهي تهتز نتيجة تقدم هؤلاء الخيالة الجزاريين الرهيبين.

سحبت الصفوف الأولى سيوفها استعداداً للهجوم. غمست وحدة ثانية مشاعلها المصنوعة من الخرق المغرقة بالقار في نار صغيرة. مجرد شعلات قليلة تكفي لجلب الموت إلى المكان بكامله.

جهزت وحدة المدفعية الثقيلة من الجنود الروس مدافعها على منحدر فوق القوزاق. بإشارة من الرائد، أطلقوا الصلية الأولى، وبدأت بيوت قرية ترام تتطاير متناثرة، القش، الحجارة، الطوب، والأجساد، طارت كلها مشكـلة غيوماً رهيبة.

ركض القبارديون إلى شوارع قريتهم بالمئات، وقد ذهل الأطفال والنساء والشيوخ، بينما سعى الشباب يائسين إلى أسلحتهم وخيلهم وحاولوا إبداء نوع من الدفاع. لكن لم يتوفر لهم الوقت لامتطاء جيادهم. لأنه عند بداية الفوضى الناتجة عن الذعر والارتباك، هجم القوزاق مباشرة نحو قلب ترام وقطعوا كل ما هو بشري إلى شرائط. بحلول ظهيرة ذلك اليوم المشمس، لم تترك نفس واحدة حية في ترام، ولم تنجو بناية واحدة من اللهيب.

***

كان كازيك ومساعديه عائدين ركوباً من الينابيع الساخنة. لقد تمت عملية بيع القطيع بسعر طيب، وكانوا أكثر من سعداء بمباشرة رحلة العودة باتجاه البيت.

كان كازيك بشكل خاص يتطلع بشوق إلى العودة لزيارة قرية ترام. فقد تم الترحيب به وبرجاله أجمل ترحيب في رحلة الذهاب، وقد أبدى نبيل لطيف رغبة في شراء جياد أخرى من اسطبل أبيه، في رحلة أخرى قادمة.

ومع ذلك لم يكن ذاك السبب الوحيد. فهذا يوم رائع الطقس ولدى النبيل ابنة حسنة الوجه، كولالا، في نفس عمر ابنه إمام.

تعلق قلب كازيك بالطفلة، لأسباب يفهمها هو ولا يهتم في طمسها داخل نفسه. شعر بالتعب، وبالسعادة لأنه منح نفسه هذا الترف الصغير: ربما شيء من العاطفة. فقد اشترى للبنت لعبة من بياتيجورسك، لها عينين زجاجتين تغمزان من بين أهداب مطرزة، ومريلة من الحرير. كان يتشوق إلى تقديم الهدية، ليشاهد عيني الطفلة العسليتين الجميلتين تضيئان باتجاهه، وقد أحبتاه كما تحبه نورسان، وتبثان في قلبه السرور ببراعتهما، كما تفعل عينا ابنه.

عندما كان كازيك مقيماً في ترام أثناء رحلة خروجه، وقد أحسن النبيل وفادته بالطعام الشهي وكولالا جالسة على ركبته – خطرت له فكرة غير رجولية مفادها أن الابنة يمكن أن تجلب المسرة. إذ ما زال يأمل أنه ونورسان سوف يسويان خلافاتهما بمرور الزمن – وأن معجزة ما ستقع وتعيد الأمور إلى نصابها. ربما حتى كان هناك بصيص أمل في قلبه بأنه قد يغير قدره القاسي، بعلاقته الحسنة بكولالا...

كان مساعداه، اينال ووسمان، يسبقانه نزولاً في الطريق، توقفا فجأة، ولحق بهما كازيك. سأل"ماذا هنالك؟"

شاهد الرجال على البعد خيطاً رفيعاً من الدخان يرتفع فوق أشجار الزان في قباردا.

قال إينال "يا "تحمادا"، أليس ذلك المكان قريباً من ترام؟"

مات الفرح داخل كازبك في تلك اللحظة "ذلك المكان ليس قريباً من ترام. إنها ترام نفسها تحترق. هيا بنا".

عدوا بخيلهم بشدة وكل ضربة من حوافر خيلهم يحسون بها تضخ الرصاص في مجاري دمهم. لقد كانوا بحاجة إلى هذا الروع المخدر، لأن المنظر الذي صدم أعينهم في ترام كان يبعث على الغثيان. دون الإنساني.

استلقت الجثث المحترقة في طريقهم بغير انتظام. أبدان بلا رؤوس، أدمغة مندلقة، وجوه محطمة. جذوع نصف محترقة، نصف مختفية تحت الردم المحترق: انحدار للحياة إلى أحط مستوى من الرماد، القشارة، البرك، العظام، والغبار.

تقطع صوت إينال أثناء تكلمه "لماذا؟ من؟ من يفعل هذا الشيء؟"

ركب كازبك بسرعة جنونية نحو بيت مضيفه. قفز مترجلاً وركض صاعداً الدرجات. كانت جثة الرجل ملقاة مشوهة عبر المدخل، جرح هائل سال منه الدم بغزارة عند رقبته المكسورة. رقدت خلفه زوجته وخادمة له، بلا رأسين.

لحق وسمان وإينال سيدهما. اختفى كازبك في الداخل بضع لحظات، ثم خرج متعثراً وهو يحمل جثة كوللا الصغيرة بين ذراعيه. وجهها الذي كان مرة أبيض جميلاً، منفوخ من الاختناق نتيجة تنشق الدخان وملطخ بالدم من تفجر الأوردة. كانت ألسنة النار قد لسعت ثيابها، واحترق ساقاها، فتشوهت قدماها الجميلتان وأسودتا.

إنهارت ساقا وسمان تحته. سقط إلى الأمام على يديه وركبتيه. صرخ "إنهم وحوش، متوحشون دون البشر. كيف يمكنهم أن يفعلوا هذا بالناس الأبرياء. الأطفال. أين هو فخار المعركة في هذا العمل!".

تعثر كازبك في مسيره نحو الباب فقد كانت رائحة الموت داخل البيت أقوى من أن يحتملها. جلس على العتبة، محتضناً كوللا كما فعل سابقاً...

"قصة؟ هل تروي لي قصة؟"

سمع صوتها، وجوابه غير الملائم.

"آه أيتها الفتاة الصغيرة، أنا لست رجلاً بارعاً في سرد القصص"

"جدي يروي لي القصص".

"أمر طيب منه! لكنني سأحضر لك هدية. مفاجأة..."

"قل لي عنها، قل لي!"

"إذا فعلت، فلن تعود مفاجأة..."

"متى؟"

"غداً، في طريق عودتنا"

"غداً؟ عدني"

"أعدك. أعطني قبلة إذن"

"أنت صديقي. قبلة. قبلة"

"نعم ، أنا صديقك"

بدأ كازبك يهتز جيئة وذهاباً، وهو يحتضن الفتاة. لقد تحولت إلى صورة مزيفة لما كانت عليه، دمية مكسورة. زجاجية العينين، تتدحرج... كان المنظر مرعباً.

استمر في احتضانها، راغباً في الأمان لها، يصلي أن يكون الموت قد أتاها سريعاً، ولكن مدركاً لأن لحظاتها الأخيرة قد امتلأت

بالإحباط والألم المعتّب صار يرتل. "لماذا؟ لماذا؟"الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر".

بكى وسمان الذي رقد متمدداً على الأرض خلفه حتى اختلطت دموعه بالتراب، وأثنى بقوله "لا إله إلا الله..." بقي كازيك على وضعيته وقتاً طويلاً. لم يكن لديه إحساس بالساعات التي تمر: وحده طنين الذباب كسر الإحساس بالصمت الأبدي واللاشيء. ولكن في نهاية الأمر، دخلت مجموعة من القباردييين القادمين من مستوطنة قريبة إلى وسط المذبحة.

عثر أحدهم، وهومزارع قوي الجسم في خمسينات عمره، على الشباب الثلاثة، وقد غطاهم الدم وهم يحلقون فيه مذهولين، كأنما ليست لديهم أدمغة يفكرون بها.

قال المزارع بخشونة "هيا بنا" مدركاً أن عليه أن يسترد هذه الأرواح الشابة من حافة يأسهم: "هلموا بنا، هناك عملية دفن يجب أن نقوم بها، نحن بحاجة إلى مساعدتكم. انهضوا".

سحب المزارع جثة كوللا الصغيرة من قبضة كازيك المعدومة الإحساس. لم يكن قادراً على النطق. استطاع وسمان أن يقف على رجليه واستند إلى المدخل، ممسكاً برأسه بقوة حتى يوقف الدوار بداخله.

سأل بصوت شبحي "ماذا عن بقية القرية"

هز المزارع رأسه بأسى "هناك تسعون جثة في حقول الذرة. حوالي ثلاثمئة في القرية. ليس هناك من ناجين في ترام. لا أحد".

"لا أحد، لا أحد" كرر كازيك، وفيما هو يقول ذلك، ضرب بقبضته في حضنه الفارغ.

استغرق الدفن وقتاً طويلاً. اشتغل الرجال وكأن بهم مس من الجنون، لم يكن للنهار أو الليل أي معنى – لأن الاهتمام الملح هو

دفن العائلات مع بضعها، قريبين من بعضهم بعضاً، في الموت على الأقل.

كان المزارع وأصدقاؤه ذوي أكتاف وأذرع راغبة في العمل. حفروا عدة قبور جماعية: قام كازبك: وسمان وإينال بإحضار الجثث إلى القبور. حدقوا في كل الوجوه بدون الحاجة إلى التشاور... منتبهين إلى ضرورة مراعاة واحترام القرابات.

"انظر، هذا هو الأخ"

"لا بد وأنها زوجته"

"هذا الرجل يلبس خاتم زواج. لكن لم تعد له جثة".

دفنوا مجرد ذراع رجل مع امرأة".

أحياناً، عندما لم يتمكن كازبك من العثور على جثة رجل، كان يجمع حفنة من تراب المنزل، آملاً أن تختلط روح صاحب البيت بأرواح أتباعه، وأن يستريحوا كروح واحدة.

أنجزت المهمة. عرض المزارع عليهم فراشاً وبعض الطعام، ولكن مع تسوية آخر كومة من التراب فوق آخر قبر، فإن كل ما أراده كازبك والآخرين هو الانصراف مبتعدين.

ركبوا في طريقهم، وقد تورمت أفواههم وحلوقهم من الألم، بينما تعاني أبدانهم من نوع جديد من الألم الذي لم يكن بدنياً على الإطلاق.

أدرك كازبك أن هناك علاجا واحداً لا بديل له للمعاناة التي يحس بها. أبقى عينيه مسمرتين على الآثار المتروكة أمامه، إلى أن اخفقت الوسيلة التي يلجأ إليها القوزاق الماكرون بربط جذوع من الشجيرات خلف عجلات عرباتهم في إخفاء آثار القتلة. فقد لمح آثار عربة مدفع وقد حفرت عميقاً في التربة الطرية.

سحب عنان فرسه وانزلق نحوالأرض. راقبه وسمان بعصبية، ثم تجرأ على الكلام:

"يحتمل أنهم عبروا نهر المالكا بحلول هذا الوقت، يا كازبك. يجدر بنا أن نعود إلى التيريك! لن نستطيع أن نفعل الكثير حتى لو لحقنا بهم. هذه مدفعية – وهي تعني أن هذا جيش متحرك. نحن لا نستطيع أن نقاتل جيشاً...".

حدجه كازبك بنظرة قاسية ولم يجبه، ثم عاد إلى امتطاء فرسه وانطلق وراء الأثر.

ركبوا بهذه الطريقة طيلة النهار، بدون أن يتكلم كازبك، ووسمان يحاول أن يدخل بعض العقلانية في رأس سيده. لكن الأمر ذهب سدى: فقد كان غضب كازبك يخدمه بطريقة لا يمكن تفسيرها، فقد بدأ وكأنه يمتلك حاسة سادسة فيما يتعلق بالتواءات وانحناءات مسلك الجنود القوزاق، كما أن سني التدريب الطويلة لدى "الأتالق" قدمت له فائدة جمة. حصل على جائزته بحلول الليل: لمحة بعيدة لنار معسكر، والتمتمة الخفيضة لأصوات الجنود، الذين يستعدون لاستراحة الليل.

ضوء القمر: بريق من الحوافر، خط من خيل القوزاق ترتعد في مرابطها. لديها سبب مقنع للارتعاش، لأن كازبك ورفيقيه كانوا يزحفون إلى الأمام باتجاه الخيام البيضاء المنسقة النظيفة، وخطوط المدفع تلتمع مع أفواهها الوحشية السوداء، المفتوحة على الدوام، الجائعة إلى أن تطعم. هناك خفير، يستدير بآلية في ممشاه، غير مسرور لأنه سحب القشة القصيرة بعد تلك المذبحة الجهنمية...

قشة قصيرة جداً. فقد انغرزت "قاما" كازبك بسلاسة في خاصرته، وتهاوى جسم الخفير بين ذراعي قاتله. سحبه كازبك إلى الخلف وسط شجيرة شوكية.

رجاه وسمان "يكفي ذلك، هلم بنا نخرج من هنا!"

لكن عين كازبك انجذبت، مثل عين ثور غاضب إلى الراية البيضاء المثلثة العائدة إلى "أتامان" القوزاق. فقد ملأت عملية القتل الأولى شرايينه بسائل خارق للطبيعة، وليس الدم، بل اندفاعة الانتقام. سوف يفعلها. سوف يقتل الشخص المسؤول.

زحف إلى الأمام، وهو يضرب الأرض بيديه في غضب وسواد أي وحش مفترس ضخم. فهد، نمر، أسد، تعرَّت كل نهايات أعصابه وتحفزت لتقوده عبر الساحة الخالية. وصل إلى حوالي منتصف المسافة بين خطوط الحد الخارجي ومبيت "الأتامان"

أو هكذا ظن، لكن خفيراً ثانياً لمح الشكل الداكن. "قف – من الذي يتحرك هنا؟" صرخ الرجل. رغم هذا، لم يشعر كازبك بالخوف، فقد كان غاضباً إلى درجة أن الغضب أعماه. رقد ساكناً حتى اقترب الخفير إلى مسافة كافية لأن يخزه في ظهره، ليختبر ما إذا كان سكراناً حد الثمالة أو –

تدحرج كازبك، سحب الرجل إلى الأسفل وأغرق "القاما" في بطن قوزاقية أخرى. صفرت الطلقات، تبعتها الصرخات – أسرع بالوقوف على قدميه وهرب.

عندما لم يستطع أن يركب فرسه، واضطر وسمان إلى دفعه كلياً إلى فوق عبر سرجه، وقتها فقط أدرك كازبك أن لديه جرح رصاصة مفتوحاً حد التحديق في ساقة اليمنى. هرب القبارديون الثلاثة نحو عمق الليل الأسود الآمن.

***

الفصل الثامن

وصل كازيك إلى البيت وتحققت أسوأ مخاوف نورسان. داوى أحمد بسرعة الجرح في ساق كازيك. أخرج الرصاصة لكن كازيك سقط في نوبة هذيان استمرت عدة أيام.

وقف أحمد فوقه، منزعجاً بعمق من انعدام المقاومة لدى ابنه.

تمتم بقوله: "لا أستطيع أن أفهم، صحيح أنه خسر الكثير من الدم، لكنه قوي البنية، والجرح نظيف إلى حد ما، والأعشاب التي استخدمتها تعمل بشكل جيد..."

أمسكت نورسان بيد كازيك في هدوء. "أن مرضه ليس بسبب جرحه، يا "تحمادا". لقد رأى أشياء...! تلك هي التي سببت له المرض".

ذهل أحمد. لقد سمع بالمذبحة من أينال ووسمان. وكذلك سمع بها أمير الحابساء وقام في الحال بتحريك إجراءات لعقد اجتماع للأمراء القباردييين.

لقد تم التنبيه على إينال ووسمان بعدم نشر القصص عن ترام. لكن نورسان لم تكن على إطلاع بهذه الأعمال. وقد قرر جميع الكبار أنه ليس من الحكمة نشر الحقيقة، خوفاً من إثارة الفزع، أو الأسوأ، وهو تدمير الروح المعنوية بين سكان الإقليم.

"كيف تعرفين، يا نورسان؟ هل هو يهذي من تأثير الحمى؟" سأل أحمد مندهشاً.

هزت نورسان رأسها نفياً "كلا، ليس بكلمات يمكنك فهمها. لكنني أعرف أنه شاهد أشياء مرعبة. سوف يستغرق انحسار

صدمتها بعض الوقت. الحقيقة هي أن كازبك وأنا قريبين جداً من بعضنا. لا نحتاج إلى الكلمات حتى يفهم أحدنا الآخر. لقد علمت قبل أن يعود أن أمراً رهيباً يحدث له".

انزعج أحمد "يا "نسا"، لا يجب أن تكلمي أحمداً بهذا الخصوص... هل تفهميني؟ لا أريد خيالات، ولا تهيؤات!".

أحنت نورسان رأسها "نعم يا "تحمادا" بينما تقاطر الدمع في عينيها.

بقيت نورسان إلى جانب كازبك. ولم تسمح إلا لتسيما أن تريحها لفترة قصيرة كل مساء.

استمر كازبك في وضعية الاستلقاء لعدة أيام، ثم عادت إليه القدرة على الكلام تدريجياً، فبدأ يدمدم، بأمور مختلطة، لا يمكن فهمها، في إحدى المرات، حين عادت نورسان إلى موقعها سألتها تسيما بحزن : "من هي كوللا؟ هل تعرفين عمن يتحدث؟"

قالت نورسان ببساطة "إنها فتاة صغيرة أحبها في ترام، لقد توفيت، هكذا أخبرني وسمان".

عبست تسيما "ما الذي يحدث لابني؟ إن حزنه بليغ جداً..... يا نورسان. ما هو الأمر الرهيب إلى تلك الدرجة الذي يجعله يكتئب ويفقد قواه".

خافت نورسان من النطق بالحقيقة، ولم تجد جواباً.

نهضت تسيما مسرعة. "يجب علينا أن نعمل على تحسين حالة كازبك. إن الجلوس إلى جانبه ومشاركته في أحزانه لا يفيد، أيتها المرأة الشابة. ما يحتاجه كازبك هو التزاماته، عمله في العزبة، عائلته – فقط لو أنه كان لديه من المزيد من الأطفال من صلبه! إبنة له، إذا دعت الحاجة، وليس ابنة شخص آخر افتتن بها!"

كانت تسيما محبطة، وربما تكلمت بتسرع، لكنها كانت قد اختزنت هذه الأفكار لبعض الوقت ولم يجبرها على النطق بتلك الطريقة غير اللائقة سوى قلقها على ابنها.

امتلأ وجه نورسان الشاحب بالأسى والندم "سامحيني يا حماتي. إنني أفشل في مهمتي واطلب منك العفو عني... ربما بعد بعض الوقت، عندما لا يعود هناك أي قتال...."

"بحق الله يا نورسان، لا تأخذي كل شيء أقوله بتلك الحرفية! أحضري الحساء ودعينا نحاول أن نقنع كازبك بالخروج من كآبته. أحضري إمام أيضاً، سوف يجلس مع أبيه لفترة، وسوف نغني له أغاني ونخلق جواً من المرح".

جاست تسيما في أرجاء الغرفة في محاولة لتهدئة عجالتها. ومع ذلك فقد عرفت أن كلاً من كازبك ونورسان يخفيان عواطف هي في نفس الوقت مستترة وعميقة. ذلك هو السبب في أنهما يحبان بعضهما بذلك الشغف المتميز. أما هي فقد كانت معجونة من طينة أكثر صلابة، لكنها تذكرت حساسية شقيقها الحبيب حمزات وسببت لها رؤية بعض من نفس المعاناة الجسدية لدى كازبك حزناً أعمق.

لم تكن لدى إمام الصغير أية فكرة بأن أباه مريض. فقد ركض إلى داخل المنامة سعيداً بأنه سيسمح له أخيراً برؤية أبيه. ألقى بنفسه فوق كازبك، بحيث استقر فوق صدره مباشرة، وهو يضربه بسرور صارخاً. "أبي! استيقظ!" استدارت نورسان نحو الجدار حتى لا تكشف دموعها. رقد كازبك بلا حراك، أسيراً لأحلامه الشرسة.

قال تسيما "إن أباك متعب جداً، لأنه كان في رحلة طويلة. لكنه سيكون سعيداً إذا كنت بجانبه حين يستيقظ، يا إمام".

قادت نورسان بحزم إلى خارج الغرفة، وتركت الصبي ملتفاً على نفسه داخل ذراع والده، بقي يمص إبهامه وينظر إلى النجوم

فوقه من خلال الشباك ذي المصاريع نصف المغلقة، وهو يحس بالأمان من الدنيا في المكان المفضل لديه.

أدت تسيما ونورسان صلاة العشاء مع باقي النساء في المنزل وغنين أغاني الأمل. كان هذا هو اليوم السادس من نوم كازبك، اليوم الذي يسبق اليوم المقدس. صلت تسيما ودعت "فلتكن إرادة الله أن يعود كازبك إلينا معافى في يوم الصلوات".

كانت أفكار نورسان تختلف كثيراً عن أفكار حماتها "يا الله، إعفني من حمل طفل آخر. أنا لست لائقة لهذه المهمة.إنني جد خائفة مما سيحدث لنا.. أرجوك أن تتجينا من المزيد من سفك الدماء.... المزيد من القتال... أرجوك اجعل زوجي يتقبل كوني لا أستطيع أن أفعل المزيد..".

في هذه الأثناء أصاب الملل إماماً بحيث كور نفسه داخل جسم أبيه. أخذ يحدق في السوالف النابتة على ذقنه والتي جعلت هذا الرجل الضخم الرائع يبدو غريباً وشرساً. لاحظ وجود رائحة غريبة على جسم أبيه، واكتشف وهو يزحف متجولاً، العصابة المربوطة حول ساقه ورائحة الدم والأعشاب المختلطة على جسمه. بدا كازبك له مثل عملاق، مثل "نارت" يستريح، كجبل بإمكان إمام أن يتسلقه كما يتسلق سميّه العظيم، القمة المغطاة بالثلوج غير البعيدة عن بيته...

تعربش إمام على الجسم حتى جلس مقتعداً الصدر، مثل جبلي بلغ القمة وأخذ يقفز مرحاً. أخذ كازبك يئن تحته، تماماً مثل قصص جدته حول الرعود والزلازل حينما يصطدم النارتيون أثناء العراك حتى تهتز الأرض نفسها.

"آه... آه...." صار كازبك يتأوه وفتح عينيه "آخ يا صدري!اتركني أتنفس!" وندت عنه تنهيدة هائلة، أسقطت إمام بين ذراعيه.

"آي، هذا أنا، لا أحد غيري! استيقظ، هيا العب معي!"

احتضن كازبك الصبي بقوة، وتغلبت للمرة الأولى منذ أيام عديدة، رائحة الحياة على نتانة الأموات. وبدأ الرعب الذي تورم باستسقاء حول قلبه بالتراجع.

***

اجتمع أحد عشر أميراً قباردياً مع مرافقيهم بالإضافة إلى أمير الأمراء الحانقشوقا، على ضفة نهر الباخسان. بلغ مجموع الحضور عدة مئات، مرتدين أفخر الملابس المتنوعة من الأزياء التي تفضلها عشائر القباردي المختلفة. نصبت الخيام للأمراء على مسافات محددة من بعضها فوق المرج المحاذي للنهر، وعلى كل منها أعلام مثلثة تتطاير مع الأنسام، إضافة إلى الظلات ذات الألوان البهيجة والبسط الممدودة تحتها. سهرت جيوش من الخدم على العناية بالخيول، تقديم المآدب وخدمة النبلاء. في البعيد، تحدى صغار التابعين ومرافقي المندوبين بعضهم بعضاً في ألعاب الفروسية أو جلسوا للتجادل حول المسائل السياسية في جو أقل تكلفاً من المجلس الكبير نفسه.

تسلق بعض الصبية الذين جيء بهم كخدم "للأتالق" الذين يدربونهم، الأشجار، للمراقبة والاستماع إلى الحدث العظيم.

كانت نواة المؤتمر هي "المجلس" المنعقد بشكل منعزل والمؤلف من الأمراء القبارديين الأحد عشر العظام. فقد نصبت خيمة كبيرة واحدة خصيصاً لهذه المناسبة، قادرة على إيواء عدة عشرات من الرجال – المندوبين ومستشاريهم. جلس في وسط المؤتمر أمير الحابسا الشاب، عمر، وجلس إلى جانبه الوزير الأول المسن، تيمرقان. جلس مراد وأحمد خلف هذين الاثنين. شعر مراد بحساسية حادة تجاه أخيه: فهذه هي المرة الأولى التي يضطر فيها إلى تمثيل الحابسا في مثل هذا التجمع المتميز منذ أن تسلم القيادة. افتقد كل من عمر وتيمرقان بحدة الحكمة التي كان أمير الحابسا العجوز سيأتي بها إلى المداولات.

انحنى مراد إلى الأمام. "تشجع يا أخي، سوف ندعمك...".

منحه عمر نظرة امتنان لكنه لم يجب. فقد كان الأمير الحاتقشوقا يتحدث في هذه اللحظة بالذات.

".... كلنا يعلم بقوة القيصر الروسي. سيكون التفكير في القتال ضرباً من الحماقة. يقاتل الإنسان عندما يكون هناك أمل في الفوز! لكن هنا، الآن، لا يوجد مثل هذا الأمل. هذا هو استنتاجي، أيها الأخوة...".

تحدث بعده الأمير سيرابي، أمير الميسوست، وهو المعروف منذ زمن بعيد لمراد وأمير الحابسا بكونه الوسيط لعودة مراد إلى عائلته: "أعتقد أن مقاتلة ييرمولوف ستكون انتحاراً! فهذا ليس جنرالاً عادياً. ولا يشبه الضباط الآخرين الذين شاهدناهم في الماضي بشيء. فقد منحه القيصر الصلاحية الكاملة لعمل ما يريده كما يريد في الكافكاز. هذا جندي صلب وذكي. نحن حتماً لسنا أنداداً له".

لكن أمير القانوقا لم يستطع أن يسيطر على نفسه "إنه جزار. هو كلب مسعور! وقاتل النساء والأطفال..."

لم يأتِ أحد على ذكر مذبحة ترام أو الإشارة إليها مباشرة من باب الاحترام للموتى، لكن الحادثة ألقت بظلال سوداء على أفكار كل فرد من الحضور.

تحدث أمير القانوقا، وهو يلقي في هذه المرة بنظرات ذات معنى باتجاه وفد الميسوست المعروفين بصلاتهم الوثيقة بالسلطات الروسية.

"ربما يعتقد بعض الموجودين منكم هنا والذين قضوا وقتاً طويلاً في سانت بطرسبرج أنه جندي عظيم، يجب الخوف منه. حسناً، أنا أقول لكم أن هذا هو السبب تحديداً الذي من أجله قام بهذه

العملية الوحشية ضد شعبنا. حتى يرعبنا بحيث نخضع. ويبدو الآن أنكم تفكرون بما يريد بالضبط".

قوبل تعليق أمير القانوقا بصمت مطبق. إن الدستور غير المكتوب للمؤتمر يقر بوجوب إعلان كافة وجهات النظر، وعدم مقاطعتها. وكان يتم التوصل إلى قرارات مثل هذه الاجتماعات حسب العادة بحرية تامة وبدون إجبار أو تسويات، مهما طالت المداولات.

رفع أمير القانوقا يده ليشير إلى موقفه بالتحديد "أنا لن أخضع. لن أوقع على هذه الوثائق السلمية التي اقترحتموها. لم أكن أبداً خادماً للروس ولن أبدأ بذلك الآن".

احتدم النقاش في هذه اللحظة. بعدها ساد صمت مؤقت على الجمع، ولكن، كما هي العادة دوماً، بدأت الأعصاب تشتعل. فهذه العشائر قد عانت من تلقي المضايقات لوقت طويل، وقد تعالت مشاعر الاستنكار حول مذبحة ترام. بدأ الأمراء يتناقشون مع مستشاريهم : بدأ المستشارون يشرحون مواقفهم المختلفة إلى نظرائهم في العشائر الأخرى بشكل غير رسمي خارج دائرة المراكز العليا. لكن تمت المحافظة على القواعد: عندما يقف رجل ليعبر عن رأيه، فإن كل المؤتمر يصمت – خاصة عندما حان دور الرجل التالي في الكلام، تيمرقان، فهو المعترف به كأقدم السياسيين وأكثرهم خبرة في قباردا.

بدأ يتكلم بصوت لا يعلو كثيراً عن الهمس، مما أجبر الجميع على تهدئة أنفسهم والاستماع بتركيز.

"يا أمرائي، يا سادتي، يا أخوتي: عندما كنت مجرد مراهق صغير السن، تحداني أشقائي أن أمتطي أشرس حصان في ساحة أبينا. كنت أعرف أنه حصان عجوز مجنون وخطير لكنني وافقت على ركوبه رغم ذلك. سرعان ما بدأ الحصان العجوز يقفز إلى الأعلى والأسفل ويرفس بشكل مخيف باذلاً أقصى جهوده ليقتلني.

بدأ أشقائي، وقد أدركوا الخطر الذي وضعوني فيه: يقدمون لي النصائح لإنقاذي، بأن أمروني بإلقاء نفسي إلى الأرض".

أخذ بعض المندوبين يتململون، وهم يعجبون إلى أين ستؤدي بهم ثرثرة الرجل العجوز، لكن أمير الحابسا أشار إلى الجميع بالانتباه إلى وزيره الأول، وسماع ما لديه حتى النهاية.

استطرد تيمرقان الكلام، وقد بدأ صوته يأخذ نبرة أكثر ثباتاً " لم يتسن لي الوقت لأفكر في نصيحتهم، ولا احتجت إليها، لأن الحصان العجوز سرعان ما رماني عن ظهره وداس على عظامي".

توقف تيمرقان لالتقاط أنفاسه، تمهيداً لإلقاء استنتاجه بأقصى ما يستطيع جمعه من الطاقة.

"أيها الأخوة، إن غضبنا اليوم على ما فعله ذلك الرجل الشرير شبيه بذلك الحصان العجوز. إنه غضب قديم. لكننا إذا امتطينا ذلك الغضب الآن، فنحن مسوقون إلى السقوط على وجوهنا مباشرة. نحن نعرف ما ستكون عليه نتيجة الحرب. ليست هناك حاجة لأي شخص لأن ينصحنا كيف نسقط". تلفت تيمرقان حواليه في الصيوان ببطء في محاولة لقياس تأثير كلماته على الاجتماع. شاهد الشكوك والانقسامات باقية، وأقلقه ذلك الأمر.

أصر على رأيه بقوله "ما نحن بحاجة إليه، يا أمرائي، ليس سبباً للرغبة في مقاتلة يبرمولوف. يعلم الله أن لدينا أسباباً كافية. لكن قبل أن نقرر أن نفعل ذلك دعونا نفكر بقوة في النتائج المحتملة. ما هو الثمن الذي سندفعه – أو، الثمن الذي نحن راغبون في دفعه!"

جاء رد فعل أمير الحاتقشوقا على كلمات تيمرقان إيجابياً وأومأ برأسه بقوة، ثم أسرع بإضافة تأييده:

"سيتم حتماً إحراق قرى كثيرة مثل ترام وتسويتها بالأرض: وسيقتل آلاف كثيرون من شبابنا. لكن الأسوأ هوا أنهم قد يحتلوا بلادنا القباردا ويصادروا كل ما يعجبهم عندنا بدءاً بحريتنا العزيزة علينا في أن نكون أسياداً على أراضينا. لقد تمكن أجدادنا من الاحتفاظ لنا بهذا القدر عبر السنين عن طريق الدبلوماسية والحكمة".

أمير الميسوست، سيرابي، كان أكثر الخطباء للحاضرين فصاحة. لم تكن لديه مشكلة في الاستحواذ على انتباه كل الحضور بآرائه. تحدث ببطء واقتناع كبير.

"ما يعرضه ييرمولوف كبديل هو السلام. ليست لديه خصومة مع القباردي! إن ترام رسالة بعث بها إلينا، واضحة وصريحة. طبيعي أنه استخدم بعض الأعذار، مثل الاتهام بالسرقات لتبرير فعلته. لكننا يجب أن نقرأ الرسالة بالشكل الصحيح. حسب رأيي، فأن ييرمولوف لديه ما يكفيه بسبب حربه ضد الشيشان والقبائل الجبلية. إنه بحاجة إلى تطمينات بأنه لن تحصل له متاعب مع القباردي. دعونا ننفذ هذه الاتفاقية مع جنرالاته، وبعملنا هذا نجعل بلادنا القباردي آمنة، ونحافظ على السلام.

مرة أخرى هدرت الموافقة وهدر الرفض خلال الاجتماع. لم يعد أمير الحابسا قادراً على السيطرة على أعصابه. فبرغم صغر سنه (أي بالمقارنة مع النبلاء الحكماء الجالسين على جانبيه)، فقد عرف عمر ما كان سيقوله والده، وشعر أنه لا بد وأن يقال.

"أيها الأخوة، لست أكن حباً للروس أكثر من أي واحد منكم هنا. إن قلبي ينشدّ إلى شهداء ترام وأن دمي ليغلي مطالباً بالانتقام. لكن كل هذه المشاعر الشخصية لا توفر لي القوة التي أحتاج إليها لدحر الروس في القتال. يجب علينا نحن كأمراء، أولاً وقبل كل شيء، أن نحمي مصالح القباردي – شعبنا. هذه هي الأمانة التي عهد بها الله إلينا وهذا هو واجبنا".

توقف للحظة "لا يزال أخونا العزيز تيمرقان وبعض الكبار منكم يذكرون المعركة الأخيرة في "خو مبالي" حينما حرق "الجاور" بولغاكوف أكثر من مئتين من قرانا ودمر حقولنا. لقد تطلب الأمر من كبارنا حكمة عظيمة ومقداراً رهيباً من الصعوبات حتى شفينا من الكارثة. إن قوة روسيا طاغية. نحن لسنا نداً لها لا في الأعداد ولا في القوة النارية. لقد اتهمنا جيراننا نحن "جلاخستني" منطقة نهر التيريك بأننا نتعاون مع العدو لأننا نعتمد على الدبلوماسية في الحفاظ على شعبنا. ومع ذلك، فهم الذين تركوا يعانون الويلات بلا مأوى. إننا نعيش كما عشنا دوماً. "أديغه" أحراراً بسبب حكمة أجدادنا".

هدأت التمتمات تدريجياً. لأن الحضور بدأ يدرك لب المشكلة: هل "القباردي" تعني الأرض أم أهلها - وهل الاثنين غير قابلين للتقسيم؟

"لقد قدمنا التنازلات في الماضي وأقمنا الترتيبات، ووقعنا الاتفاقيات. ليس في ذلك ما يعيب. لقد أجريت هذه الترتيبات لضمان سلامة شعبنا. إننا مضطرون مرة أخرى لأن نتخذ قراراً حول أسلوب عمل بالغ الأهمية. يجب أن يسود المنطق والحكمة. آمل أن يرى أخوتي ذلك. أعرف أن البعض منكم يأمل في أن يجيء السلطان التركي لمساعدتنا. يا أخوتي، لا يمكننا أن نستمر في خداع أنفسنا. لن يساعدنا لأنه ليس نداً لقوة القيصر. لقد حارب أجدادنا وناضلوا لسنوات عديدة بناءً على الوعود التركية. ويجب علينا الآن أن نعتمد على حكمتنا نحن".

بدأ مد الرأي يميل لصالح عمر. إلا أن مجموعة من الأمراء وقفت على حدة، وهم يتشاورون بوجوه شاحبة، بدون أن تبدو عليهم الموافقة على هذه النتيجة. كان المتحدث باسم هذه المجموعة هو الأمير قيتوقه.

"من الصعب إيجاد الخطأ في حكمة أميرنا الشاب من الحابساي أو مستشاره القدير. لكنه من الواضح أيضاً أننا لا نستطيع أن نتوصل إلى الاتفاق المرغوب فيه. نحن لا نستطيع أن نقبل بشروط ييرمولوف. ولكن ليست لدينا الرغبة في إيذاء بقيتكم. لقد فكر بعض أخوتي في الوسيلة التي لا نؤذي فيها كل القباردي نتيجة لأعمالنا..." استدار الأمير للحظة إلى الخلف نحو رفاقه، حتى يتأكد من رغبتهم في إعلان قرارهم على الملأ. لقد كان إجراءً قاسياً: "الطريقة الوحيدة التي نظل بها أحراراً وخارج السيطرة الروسية هي في أن نرحل مبتعدين. سوف نغادر القباردي. سوف نرحل عشائرنا إلى ما وراء نهر اللابا".

قوبل هذا الإعلان بصمت ذاهل. ثم بدأت همهمة من عدم الموافقة ترتفع، نصفها اعتراض، ونصفها الآخر أنين حزن بينما أصبح احتمال الانشقاق حقيقة واقعة.

عقد أمير قيتوقه يديه على بعضهما للتأكيد على نواياه الجدية. "لقد اعتبرنا هذا الأجراء الأكثر أماناً بالنسبة لكم والأكثر تشريفاً لنا نحن الذين نرفض التعاون مع "الجاور". لقد أكد هذا الاجتماع صدق مشاعرنا. هذا هو الإجراء الذي يليق بنا اتخاذه".

تحدث الأمير سيرابي بمشاعر يكاد لا يسيطر عليها. "لكن ذلك جنون يا أخي. ليست لدينا أية رغبة في أن يغادر أي منكم بلاد أجداده. أرجوكم أن تعيدوا التفكير!".

لكن أمير قيتوقه جمع أرديته حول شخصه، وبعد أن أدى انحناءة احترام وإيماءة برأسه إلى حلقة الكبار، استدار واتخذ طريقه نحو فتحة الخيمة. تبعه العديد من أمراء العشائر الأخرى، بمن فيهم أمير القانوقا.

ألقى مراد بوجهه بين يديه: فقد كان أمير القانوقا صديقاً قديماً لعائلته، وأراضي أسلافه قريبة من بلاد الحابسا. تنامى هاجس شر

في صدر مراد، بأن هذا التفرق للقبارديين هو البداية والنذير لأمور أسوأ بكثير، كثير جداً قادمة.

راقب أمير الحاتقشوقا بحزن عميق حتى غادر آخر الرافضين ومساعديهم الاجتماع. تعلق فوق الصيوان صمت ذاهل، فقد بدا أنه لا توجد أية كلمات تلائم هذا الانقسام التاريخي المفجع. في النهاية، خاطب الأمير حاتقشوقا المندوبين الباقين:

"لا بد وأن أخبركم أيها الأخوة، بأنه كانت لدي معرفة مسبقة بهذا التطور. نحن نعلم بوجود خطط لترحيل بعض القبائل عبر نهر اللابا... ليست لدى روسيا أية مصالح عسكرية هناك حتى الآن، لكن هؤلاء الناس المساكين يعتقدون أن هذا الوضع سيستمر إلى الأبد".

ألقى عمر بلمحة إلى مراد وأحمد خلفه. أفضى تعبير وجهه عن استنتاج واحد لا غير. لم هنالك مفر فعلاً. حتى الهروب لا يحقق سوى تأجيل المواجهة مع "الجاور" في نهاية الأمر. بدا الوضع وكأن الرجال الثلاثة شكلوا تحالفاً، في تلك الساعة وفي ذلك المكان، بأن يقودوا شعبهم بأقصى ما يستطيعون من الحكمة والشجاعة، ضمن معرفتهم الواثقة لمصيرهم النهائي. الحل الوسط بينما هم متمسكون بثبات بأفكار بعضهم بعضاً. تحدث الأمير حاتقشوقا بهدوء وبشجاعة قدرية.

"دعونا الآن نعود إلى الموضوع الجدي المتعلق بصياغة الرد على مطالب الشيطان ييرمولوف".

***

أرسل الاضطراب العنيف الذي أحدثته "الهجرة" موجات من الصدمة خلال بلاد القباردي كلها. تبع عدة آلاف من الشركس أمراءهم إلى المنفى – تاركين خلفهم أراضي خصبة معتنى بها جيداً. ركب بعضهم ظهور الجياد مبتعداً، وضع بعضهم عائلاتهم في عربات، لكن كثيرين منهم اضطروا إلى الخروج من بيوت

آبائهم سيراً على الأقدام، تخفق قلوبهم في تناغم حزين مع ارتفاع خطوات أقدامهم ونزولها. حملت الأمهات أطفالهن عالياً لإلقاء نظرة أخيرة، تلويحة يد إلى دغل لعبوا فيه، جدول استحموا فيه، خط معين من الأفق حيث كانت شمسهم تشرق منه أو تغيب.

وقع الاختيار على أنور في أعقاب مذبحة ترام، في أن يقوم بالرحلة إلى بلاد الشيشان، ليحاول أن ينقذ جده الملا. استغرق شفاء كازبك وقتاً طويلاً، بحث أصبحت قدرته على القيام بالرحلة موضع شك. بات أنور راغباً في الذهاب: فقد شعر بأنه يتوجب عليه أن يقوم بهذا الجهد الأخير من أجل والديه قبل أن يولي اهتمامه لشؤون أقرب إلى قلبه: الاختيار النهائي للزوجة.

في هذه الأثناء، بلغ أنور نهاية عشرينات عمره. وقد أخره حق الأولوية في الزواج لكازبك في زواجه. والغريب في الأمر، أنه بعد أن تحرر بزواج شقيقه من نورسان، صار أنور يجد صعوبة في استقرار رأيه على فتاة ليحبها.

كان أقل رومانسية من كازبك، لكنه بنفس الوقت كان يوازي شقيقه في صعوبة الإرضاء. أراد أن تكون له زوجة لأنه بطبيعته البدنية رجل ممتلئ بالشغف: وأراد في نفس الوقت أن يحتفظ بحريته في القتال. في الواقع كان سعيداً بهذه الفرصة لأن يركب مرة أخرى إلى بلاد الشيشان، ويتحقق بنفسه إذا كان شن الحرب لا يزال ممكناً. فقد ظلت القضية أكثر أهمية من سعادته الشخصية على الدوام.

ارتحل ليتش وزيلمخا عائدين معه إلى الجبال. تستغرق الرحلة بالوسائل العادية يومين أو ثلاثة، ولكن بسبب الأنشطة المتزايدة لدوريات القوزاق، فقد اضطر المقاتلون إلى القيام بحركات التفاف ودوران خلال أحراش أشجار القضبان والتزموا بالممرات الأقل استعمالاً.

كذلك فقد أخرت الجياد تحرك الرجال الثلاثة: فقد أخذ أنور معه عشرين رأساً من أفضل أفراس وفحول أبيه، لإعادة تزويد المقاتلين الشيشان. حملوا معهم كذلك عشرين بندقية، من أحدث ما أصدره الجيش الروسي، والتي حررها أنور في غارة له أخيراً على خط جبهة التيريك.

كان الرحلة مألوفة لأنور. فقد مر من هذه الأنحاء "بالأتالق" وعندما هرب من الطاعون. ولكن بينما كانت الجبال تنغلق عليه وعلى رفيقيه، أحسَّ بنوعية جديدة من السكون في الهواء. كان أنور مدرباً بدرجة عالية في فنون القتال والصيد. لم يستغرقه الأمر أكثر من يومين من الحركة حتى يدرك بشعور متزايد من الرعب أن الغابات قد تعرت من حيوانات الصيد بشكل كلي تقريباً، وأن القليل جداً من الرعاة أو الصيادين يحتمون في مبيتات مؤقتة في أي مكان حوله. إن أحراش بلاد الشيشان تتحول إلى أراضي أشباح، أصقاع معزولة من الأشجار تتخللها سفوح تلال حرجية حيث حفر القوزاق طرقاً عسكرية أثناء مسيرهم لنهب المستوطنات وإحراقها. لقد كانت علامة ييرمولوف ظاهرة في كل مكان، تمثل خطراً دائمياً داهماً.

"خطر" – وهي كلمة مناسبة "ليرمول" كما هو معروف لدى الجبليين، كان قد قرر أن يتقدم لاحتلال خط جبهة ثاني، قاعدته في جروزني على نهر السونجا قرب قلعة روسية و "ستانيتزا" قوزاقية. كانت هناك قرية "أول" شيشانية صغيرة فيها عدد قليل من السكان قريباً منها.

ومن السخرية فإن هذا الموقع قريب من حيث أغار أنور ورفاقه في إحدى المرات على قافلة عربات الجنرال رتيتشيف. والآن، يقوم الجنرال الروسي بالبناء هنا، بكل الأبنية الأساسية، حتى يكون في قلب منطقة التقدم. أما كلمة جروزني نفسها، فتقول الإشاعة أنها تعني "خطير" باللغة الروسية. هناك جلس ييرمولوف، شبيهاً بالأسد بشعره الكثيف الطويل ورأسه الضخم، وكتفيه الشبيهين بكتفي الدب، غير مبالٍ بتغيير البياضات أو المائدة الفخمة:

يتحدث بخطط رهيبة حول حرب الاستنزاف التي ينوي شنها على كل القفقاس.

عندما اقتربوا من قرية الملا، تباطأ جواد زيلمخا في خطوه حتى أصبح مشياً عادياً. ثم توقف إلى جانب أنور.

قال له "كن مستعداً للصدمة، يا صديقي... عندما غادرنا، كانت القرية ما تزال مشتعلة، وكان العديد من الأقارب يحمّلون الخيل استعداداً للهروب. لا أدري الآن، ما الذي سنجده".

مدّ أنور يده وأمسك بكتف صديقه بقوة.

"أنك تظهر صداقتك في قلقك من أجلي. ولكن بالنسبة لك، يا زيلمخا – وقد فقدت كل عائلتك، فإن هذه العودة أصعب بكثير".

هز زيلمخا رأسه بعنف: "إنني أحضر البنادق. إنني عائد ومعي وسائل الانتقام!" وهزَّ قبضته في وجه الهواء الفارغ.

بقي ليتش صامتاً خلفهما. كان يعتقد أن والديه قد هربا نحو التلال مع الملا. ولكن عندما ظهرت القرية للعيان، تهاوى قلبه. لا بد وأن احتمالات الهرب كانت قليلة جداً... لا بد وأن القوزاق لاحقوا المسنين بعد أن شجعتهم رؤية الدمار.

لم يشاهد أنور منظراً يوحي بالانبهار إلى هذه الدرجة أبداً. صحيح ن القرية الشيشانية لم تكن جميلة في الماضي: فقد ظلت على الدوام مكاناً بسيطاً، حجرياً، رمادياً، مع بقعة صغيرة من العشب في موسمه، الكلاب الضامرة تتحرك بكسل، مع وجود غمامة دائمة من الدخان الرطب. لكن هذا....

كل بناية محترقة. تحولت إلى أكوام من الأخشاب المدخنة السوداء. الهياكل العظمية للماشية والدجاج نصف المدفون في النزاز المتشكل من حوافز الخيل المهاجمة، الطاحنة. لم يترك شيء واقفاً. بضع جثث: وهذه، وقد مرت عليها أسابيع بعد المذبحة، لم تعد قابلة للتمييز على الإطلاق، مجرد أكوام غير مميزة باللون

الرمادي. بعضها يبدو وكأن الحياة تدب فيه، لكن ذلك كان الفعل الغاضب للديدان على اللحم الفاسد المتحلل. الطاقة الوحيدة المتبقية في هذه الجثث هي القدرة على إنتان المكان برائحة الموت النابضة.

***

انزلق أنور إلى الأرض وتقيأ. ظل ليتش صامتاً. لكن وجهه كان مغموراً بالرماد والدموع. وحده زيلمخا امتلك الشجاعة الكافية ليمشي إلى الأمام ويقف في منتصف فعل التدنيس.

فجأة، خرج رجل مسن بأعجوبة من كوخ غير قابل للاحتراق، لأن نصفه مبني من الحجر والنصف الآخر مختبئ تحت التراب العشبي لمنحدر جبلي، يتعثر بعماه لخطوة أو اثنتين.

"الحمد لله! قريبي العجوز ايلدار!" ركض زيلمخا إلى الأمام وركع على الطين. أمسك بركبتي الرجل العجوز وقبلهما، وهو يتمتم بصلاة شكر على نجاة الرجل الكفيف. اقترب أنور بدوره: لقد كان هذا الراعي المهيب عجوزاً عندما كان هو صبياً: لقد تعدى الزمن حتى أصبح من ثوابت القرية: موجود هناك دائماً، جالساً على كرسيه الصغير أمام مدفأته الصغيرة، حاضراً ليروي قصة بفمه الخالي من الأسنان، ويتلقى إحساناً من أية يد محسنة.

صرخ أنور في يأس "أحمد الله على كونه أعمى!" قام هو وزيلمخا بمساعدة الرجل المسن نحو بقعة طرية في النور الدافئ.

صرخ الرجل العجوز "ذهبوا.... كلهم ذهبوا، لكنني تخلفت. كان بإمكانهم قتلي، لم أهتم لذلك، لكنهم نسوا.... الآن، والحمد لله، هل سوف تعثرون لي على الطعام؟ إنني بحاجة إلى شيء من الطعام".

تحسس وجوه المقاتلين، ثم تلمس صدورهم، باحثاً عن علامة فارقة. فجأة، اشتد وجهه الخالي من التعابير "هل أنت، زيلمخا؟

الحمد لله، أحفر لي قرب جدار بيت الملاّ... أعرف أنه يوجد مخزن للذرة مخبأ هناك..."

"كم مضى عليك من الوقت وحدك، أيها العجوز الطيب؟"

سأل زيلمخا وهو يحتضن الراعي بحرص كأنه طفل صغير

"لست أدري، لا أعلم متى حدثت. لقد كان الأمر مفاجئاً جداً، وبعدها أصبحت وحدي، لقد ذهبوا إلى الجبال، خلف الصليب..."

كان هذا هو المعقل السري لشيشان الجبال هؤلاء. كل قرية لديها ملجأها، بعضها يعود في تاريخه إلى أزمنة الأساطير.

قال أنور بحدة "يجب أن أتقدم، أنا لا أطيق الانتظار. هل أنتم آتون أم باقون؟"

بقي زيلمخا مع الرجل العجوز "سوف أبقى وأعتني به. ليست لدي عائلة هناك.. مثل ليتش. سوف ألحق بكم مع الراعي عندما يصبح لائقاً بما يكفي للقيام بالرحلة".

"لا تتعب نفسك من أجلي، يا زيلمخا، أحضر لي ماعوناً من الذرة، وبعدها انطلق في طريقك... هنالك قتال عليك أن تخوضه..." حدقت العينان الفارغتان بما يشبه الغاية في منقذه.

ألقى أنور بندقية إضافية وعدة علب من الذخيرة إلى زيلمخا. بدون إضاعة الوقت، أخذ هو وليتش عنان الفرس الأولى من القطيع واستمرا في التسلق المضني لمرتفعات الجبال. في نهاية المطاف مرا من خلال متاهة صخرية حيث قامت الرياح والأمطار بحفر الحجر الجيري حتى أحالته إلى أشكال تشابه الأعمدة الطويلة، مشكـّلة ما يشبه المعبد الوثني الذي تتجاوب فيه الأصداء.

بعد اختراق هذه الواجهة الصخرية، خيم الفارسان وخيولهما في مكان رطب، متلفع بالغمام الجبلي. مع نهاية اليوم الثاني لهما، وصلا إلى ملاذ الملاّ.

من قرية تعدادها مئتي نسمة، لم يصل إلى الأمان سوى اربعين. ركض ليتش بين الحشد المنتظر حتى التقى بذراعي أبيه "لقد عدت يا أبي! أين هي شقيقتي؟ أين أمي؟ أين أمي؟ لم يستطع أبوه أن يجيبه في البداية، فقد طغى فرحه على أحاسيسه، ثم تحدث بجهد واضح، لكنه حاول أن يفعل ذلك بابتسامة "إنهما ميتتان يا ولدي! لقد أعفيتا من المزيد من الألم! الموت أكثر سعادة لهما، إنهما في رحاب الله الآن".

بهت ليتش بطريقة تعايش والده مع هذه الخسارة إلى درجة أنه لم يجرؤ على البكاء.

أخذ أنور إلى حيث جلس الملاً، أمام نار مدخنة محزنة، يردد الصلوات التي لا تنتهي لشعبه. لم تعد لحيته باللون الرمادي الحديدي، الفولاذي الذي يوازي عزيمته. بل استحالت إلى النعومة واللون الأبيض.

"يا جدي، لقد جئت لآخذك إلى حيث الأمان، أنت ووالدي مدينا - حنيفا- أين هي؟"

هز الملا رأسه بأسى "لقد ماتوا. ماتوا كلهم ما عدا هؤلاء الذين تراهم".

قاوم أنور حلول الغضب العارم. ثم قذف الكلمات "لقد أحضرت لك البنادق، يا جدي! سوف نثأر لهم! سوف نثأر!"

استمرت شفتا الملا في الحركة بدون صوت. توقف لهنيهة، كأنما قد فاجأه أنور...

"ما فائدة البنادق يا أنور، إذا لم يكن لدينا شباب ليحملونها؟ انظر بنفسك. لا يوجد غيرنا - الناس المسنون... أولئك الذين تمكنوا من النجاة قد هربوا، للانضمام إلى شخص ما، في مكان ما، للقتال إلى جانبه، اذهب أنت أيها الفتى".

أدرك أنور بجلاء يدعو إلى الغثيان أن مذبحة القرية كانت متعمدة ودقيقة. وحدهم العجائز قد نجوا من الموت لأنهم لا يشكلون تهديداً. أما القادرين، الأصحاء، والذين يمكن أن يشكلوا تحدياً، والأطفال، فقد قتلوا جميعاً بحد السيف أو باللهب. لم ينج إلا القلة القليلة.

أخذ أنور بيدي جده بين يديه وتوسل إليه في يأس "دعنا إذن نغادر هذا المكان الملعون، ستموت هنا حتماً، إذا بقيت في الشتاء! دعني آخذك إلى البيت عند تسيما. سوف ترعاك – أنك تستحق بعض الراحة والأمان بكل تأكيد!".

لم يفكر الملا بهذه الخطة لثانية واحدة. بل قال

"كلا، أنا لا أستحق ذلك" بقليل من حدته السابقة.

"سوف أعود إلى القرية بعد أن ينهي الجنود عملياتهم في هذه المنطقة. سوف أموت في بيت أسلافي، حتى إذا لم يبق منه سوى المدفأة المكشوفة، وإناء – وشريحة من الحجر. انظر".

وأشار إلى سلة مصنوعة من الأغصان الطرية وقد ملئت ببعض اللوازم الثمينة مخبأة تحت صخرة جرانيتية.

"إن الله سبحانه وتعالى قد أنعم علي! لدي جنزير الوجاق لأجل مدفأتي. إنه مقدس بالنسبة لي ولعائلتي.... وسوف أشعل النار في وجاق والدتي مرة أخرى وسوف تدفئني".

مستحيل. لقد تحول لون بشرة الملا إلى الأزرق الرمادي من شدة البرد، ومع ذلك فقد كان يبدو عديم الإحساس بالمعاناة. بينما كان أنور يلقي نظراته حواليه بعنف باحثاً عن شخص يساعده على إنقاذ جده، رأى نفس التعبير البطيء المتعمد في وجوه جميع الأرواح المتكومة إلى سفح التلة. لم يكن هناك أي خوف لديهم: لا استسلام. سمع ضحكة لطيفة، مشاركة هامسة بالأسرار، واهتمام بطيء ثابت بين هؤلاء الناس ذوي المصير البائس الذين يكادون

يموتون جوعاً، لقد تم الانخراط في المعركة الأخيرة بحيوية وإقبال. سيموت الشيشان حيث اختاروا أن يموتوا، وقد امتلكوا الأرض بجثثهم، إذا لم تكن إرادة الله تقضي بأن نبقي على حياتهم.

***

الفصل التاسع

يسافر الجنرال اليكسيس بيتروفيتش ييرمولوف باتجاه الشمال خروجاً من تيفليس في جورجيا، ويقرأ آخر التقارير من الجبهة، إنه يواجه أدلة متنامية على أنه لم يحقق الاستسلام الكلي والدائم لشمال القفقاس. لذلك كان في حالة نفسية بشعة جداً. لقد شن الحرب على الشيشان، القبارديين، الآفار إلى الشمال لعدة سنوات، إضافة إلى العديد من الخانات والبيكات المسلمين المخادعين صغار النفوس على الحدود إلى الجنوب بين داغستان وبلاد فارس. لقد جاء وقت، قبل خمس سنوات في عام 1820، كتب فيه إلى إمبراطور عموم روسيا، القيصر الكسندر، قائلاً أن إخضاع داغستان، الإقليم الجنوبي الشرقي من الجبال، قد استكمل. لقد قدمت له المساعدة بكل كفاءة في هذا الإنجاز، من قبل التالي له في القيادة، الجنرال فيليا مينوف، الذي كان بارعاً في الخطابة بحيث أثر في السكان المحليين. كان أسلوبه يتحلى بالبلاغة العالية، وهو شكل من الدعاية، ساعد على إقناع الثوار بأن روسيا لا تقهر. ما الذي قاله فيليا مينوف إلى بعض الزعماء القفقاسيين العصاة؟ "ما الذي تأملون فيه؟ ألا تدركون أنه لو سقطت السماوات، فإن روسيا قادرة على دعمها بحرابها؟"

إن النصر قائم في العقل بقدر ما هو مادي.

كان ييرمولوف يفهم ذلك جيداً، وقد حاول أن يباشر عملاً يشير إلى الثوار بأنه لا سبيل إلى تهدئةالروس. ولتحقيق هذه الغاية بنى خطاً من التحصينات يمتد من معاقل جروزني على نهر السونجا، باتجاه جنوبي شرقي عبر بلاد الشيشان إلى فيزنابايا،

بحيث يمنع المرور ويسيطر على الحركة وصولاً إلى سهل داغستان المركزي بفعالية. وقد تحركت قواته من هناك بعد بعض الوقت باتجاه الشرق باستمرار وأضافت حصن بورنايا، المرتفع على الصخور المشرفة على بلدة تاركو التي تتمتع بمنظر مشرف حتى بحر قزوين. لكنه أغفل شريطاً من الأرض قليل الأهمية في قلب بلاد الشيشان، والآن لديه تقارير مفادها أن تعليماته الواضحة، بتدمير القرى، وشنق الرهائن، وذبح النساء والأطفال، لا تؤدي التأثير الإخضاعي الذي توقعه هو وفيليا مينوف في هذه الأنحاء. أن شعوب القفقاس يشبهون الهيدرا ذات الرؤوس المتعددة: ما أن تقطع قسماً متلوياً منها حتى ينتشر اثنان أو ثلاثة آخرون ويفحون عليك بالسم....

في الواقع، لم يكن ييرمولوف غاضباً فقط، بل كان مندهشاً. فقد جمع بيانات مفادها أنه توجد أكثر من ستة آلاف عائلة في بلاد الشيشان. لم يكن عدد كبير من هؤلاء الناس من السكان الأصليين فعلياً بل هم لصوص وقطاع طرق من أمكنة لا يعلمها سوى الله، يحتمل انهم هاربون من العدالة، وقد اختاروا أن يختبئوا في ثنايا الجبال ويستمروا في أنشطتهم غير القانونية. أكدت التقارير أن بلاد الشيشان عديمة النفع فيما يتعلق بالفلاحة – وذلك هو السبب في أن النشاط الوحيد الذي يمارسه سكانها هو السرقة.

كان فيليامينوف قد اتفق معه بأنه يجب تبني سياسة الذبح والإحراق، لأن معظم الإقليم لا يصلح للفلاحة، بسبب كثافة أحراشه... إذا دمروا الغطاء، فأنهم سيتمكنون من إخراج أعشاش الثوار. أصدر ييرمولوف أوامر للقوات الروسية والقوزاقية بتدمير الإقليم بكفاءة، بالاندفاع إلى الأمام بثبات، وبتطهير المنطقة.

ومع ذلك، بات يفكر، إذا كان عدد السكان ستة آلاف عائلة، وقد تم ذبح مئات كثيرة منها في غارات مختلفة، فكيف تتجدد هذه المقاومة؟ لديه معلومات من مصادر موثوقة أنه في الهجوم الأخير على حصن أمير حاجي يورت على نهر التيريك، فقد نزلت عصابة

مخلطة من "ألفي" رجل لتحاصر الحامية. ظهر من التقارير أنه بعد قتل ثلثي القوة الروسية، فقد تجمع الرعاع من "خمسة آلاف" رجل للمشاركة في النصر في المستوطنة القريبة المحصنة المسماة "غيرزل أول". طبيعي أن القائد الروسي قد أصبحت له اليد العليا عندما وصلت التعزيزات. تبخر الثوار العصاة عبر الحقول، في الأخاديد العميقة التي خلفتها السيول، صعوداً في الشعب الصخرية. جرى أعدام ثلاثمئة قروي من أقصاي القريبة بحد السيف في عملية انتقامية...

ولكن النتيجة النهائية هي أن الأرقام غير صحيحة. لقد كان هناك من الثوار أكثر مما حسب بكثير.

تأرجحت عربة ييرمولوف بعنف فوق الحفر على طريق مضيق داريل. كان يشعر بغثيان رهيب، وبات غير متأكد على الإطلاق من قدرته على إكمال رحلته إلى جروزني بدون أن يتوقف.

نبش بين أوراق حقيبة تقاريره وأعاد قراءة الرسالة الأخيرة التي تلقاها من الإمبراطور، وعلى لسانه طعم من المرارة"... وبما أنه يوجد اليوم أكثر من 60000 رجل تحت السلاح في الكافكاز، وهو رقم لم يتحقق قبل هذا مطلقاً، فـــأنه من المؤمل والمعتقد أنهم سيكونون كافين لإعادة تثبيت الأمن والنظام..."

بصق بشدة إلى خارج الشباك. هو الآخر يأمل في ذلك. لكن أرقام القيصر الكسندر لا تقول الحقيقة الكاملة. فإن لديه فقط عشرين ألف جندي روسي وبالكاد ضعفي هذا العدد من القوزاق، وكلهم تنقصهم المعدات ولا يأكلون ما يكفيهم. إلى جانب ذلك، فإن لدى القوزاق أراضيهم التي يتحتم عليهم العناية بها، إلى جانب القتال.

توقفت عربة ييرمولوف ومجموعة الجنود المرافقين له في دار للبريد في ممر كريستوفوي قبل أن تدخل الجزء الأضيق

النازل من مضيق داريل. رغم أن الوقت كان منتصف الصيف، إلا أن الهواء هنا كان بارداً جداً. والمكان فيه مجرى هواء، وتعمه الفوضى، فيه بضعة خيول نصف ميتة تتأرجح في وقفتها أمام سياج المربط، وكان هناك بضعة رجال من الأوسيتيين يعتمرون قبعات من جلد الغنم أنزلوها إلى مستوى أعينهم من فوق الرؤوس، يقطعون الوقت وهم يتجولون على مهلهم، ويدخنون فوق درجات النزل. ثلاثة كلاب ضامرة تتجول في دوائر عند أقدامهم، يتشممون كل شيء بحثاً عن الفتات. تنهد بيرمولوف في يأس على مقدار الفاقة في المشهد، حيث كل شخص وكل شيء كئيب معوز في التقييم الأخلاقي.... لكن شيئاً لم يقلل من شراسة الحشرات التي كانت تحط مثل الجنادب فوق خديه وتسحب دمه بكل وقاحة. طفق بيرمولوف يضرب يمنة ويسرة، حتى صرخ في النهاية مغضباً على مساعده قائلاً "بحق الله، احضر لي قصعة حساء ودعنا نخرج من هنا!".

أسرع الجنود في تبديل جياد العربة، وبعد ما بدا وكأنه عمر بكامله، استأنفت القافلة مسيرها. رشف بيرمولوف قليلاً من الحساء المدهن الذي يملأ القصعة، لكن ذلك جعله يحسّ بالغثيان أكثر من ذي قبل. ألقى بها خارج الشباك بعنف وأنزل الستارة ليمنع دخول الغبار.

عندا وصل إلى فلادي كافكاز، أدرك أنه لن يتمكن من الاستمرار أبعد من ذلك. أنتظر حتى أنزل أحد المرافقين الدرجات من عربته وهو يسبح في العرق من جراء الحمى. حاول أن ينزل بدون مساعدة لكن رأسه كان يعاني من الدوار حتى تقوست ساقاه تحته.

"لعنة الله على هذا الوضع، سوف احتاج إلى مرافق لقضاء هذه الليلة". زمجر قائلاً، وتم اقتياده، نصف منهار، إلى الثكنات المبنية من اللبن الطيني المطلي بالأبيض، مقر قيادة قوة قوزاق التيريك، القريبة من مركز البلدة.

قدم الضابط المسؤول عن الحامية نفسه: رجل أنيق، حليق الذقن إلى حد النعومة وذي شاربين في منتهى التأنق كعادة أفراد اللواء – وهو يبذل أقصى جهده ليبدو أنيقاً برغم الرقع المتعددة على حذائه وطبيعة سترته المهترئة....

قال "سيدي" وهو يؤدي التحية بأناقة. مجرد النظر إليه جعل ييرمولوف يحس بإعيائه الشخصي، وقرقرت أمعاؤه بدرجة مسموعة. بذل أقصى ما لديه من جهد. ثم غمغم: "كل شيء منتظم... استرخ في وقفتك. بإمكانك أن تدخل لي مساعدي.... بيوتر".

اضطجع ييرمولوف على السرير وأرخى ثيابه. خلال الوقت الذي استغرقه مساعده لتقديم نفسه، كان الجنرال قد تمدد على السرير، يقاوم التشنجات المعوية.

"ابعث إلى فيليامينوف خبراً، يا بيوتر، ألا تفعل؟ إنه موجود حالياً في ايكاتير ينودار على الكوبان. أريده أن يتسلم مسؤوليات الجنرال ليسانييفيتش، هذا الأحمق الذي قتل في غرزل أول. يفترض فيه أن يتولى القيادة الشخصية المباشرة لإقليم التيريك – سوف أبعث له بخبر آخر ليقابلني في جروزني، في أي يوم قريب – وعلى فكرة– قل للخدم الملاعين أن يحضروا لي وعاء أكبر للتبول".

أومأ بيوتر برأسه وغادر ليبعث بالأمر، لكنه أضاف رسالة من طرفه لفائدة فيليامينوف "من غير المحتمل أن يكون القائد العام قادراً على السفر لعدة أيام.. إنه يعاني من الحمى.... ومن اضطراب في المعدة..."

خاف ييرمولوف من أن يكون مصاباً بالهذيان. وحده المرض يمكن أن يسبب نوبات الغضب والاستياء السخيفة التي تجتاح جسمه بينما هو مستلق سابحاً في العرق في فلادي كافكاز.

كان ينهض متعثراً من فراشه أحياناً ليطلق نيران الجحيم من أمعائه النارية. كان يستمع أثناء أنينه وتخبطه في الخلفية الأوامر المقتضبة "لاتامانات" القوزاق: ضحكات الجنود الخشنة، وأحياناً دقات أجراس كنيسة الحامية.... صوت حزين تتجاوب أصداؤه عبر الامتداد المنبسط للبلدة، الجالسة بأسلوب منظم على ضفتي مجرى التيريك. تمتد الطرقات المتعامدة على زوايا قائمة من الشارع الرئيس، مع وجود أبنية الثكنات وبعض الأكواخ المطلية باللون الأبيض أو واجهة مباني قيصرية حكومية موزعة على عرصات عشوائية. ينفتح الموقع إلى الشمال من البلدة، أما من الجنوب فإن البلدة محمية بتلال حرجية بينما ترتفع فوقها مرتفعات القفقاس الفسيحة.

كان ييرمولوف يدرك كم كان موطئ القدم هذا في الجبال حيوياً ومع ذلك معرضاً للخطر الداهم: فهو الطريق الوحيد الذي تتمكن العربة من السير فوقه خلال الجبال بين أنابا ودربند. لقد أسس بوتمكين هذه البلدة، لكنه هو ييرمولوف الذي أمن لها طريقاً عريضاً. وحق الله، أنه سيترك بصمته على القفقاس!

سببت التقارير الأخيرة الكثير من القلق لييرمولوف، فقد ظلت تطن داخل رأسه مثل حشد من الذباب. لقد طعن الجنرال ليسانييفيتش من قبل قروي عاصٍ هناك في وسط حصنه اللعين! هل هناك شيء أسوأ إدارة في الدنيا من ذلك – كان الأحمق المغرور قد جمع القرويين من أقصاي ووبخهم على انضمامهم إلى الثوار في حصار جيش صاحب الجلالة الإمبراطورية – كأنما هؤلاء الكفار هم مجموعة من الأطفال الذين يمكن تعليمهم، وليسوا ثواراً بدون ضمائر – وقد قفز واحد منهم ببساطة إلى الأمام وغرز نصلاً في بطنه!

سيكون تأثير هذه النكسة هائلاً. لقد انتشر النبأ. يعرف ييرمولوف ذلك، سوف تمتلئ الجبال بالشائعات المتفاخرة.

في حمأة إصابته بالحمى، أعتقد أنه أحسّ بأصابع ناعمة، أظافر صغيرة حادة تنغرز في ظهره. كان عقله يدور بدوخة، ويذهب رغماً عن إرادته، إلى ذكرياته عن مختولي في الداغستان، حيث قضى شتاء فاخراً قبل سنتين (بعد ثورة خريفية)، محشوراً في قرية جبلية. هنا، حصل هو وضباطه على "زوجات" محليات لتمضية الأيام والليالي الطويلة الرمادية المتجمدة.

"كلا، كلا" كانت العاهرة الصغيرة المفعمة بالحيوية تهمس له، وهي تسمح له أن يقضي وطره منها، ومع ذلك لا تسمح له على الإطلاق بأن ينزع عنها خمارها "أنك تجبرني على الركوع على ركبتي... هاك جسدي – إنها إرادة الله أن تحصل على متعتك مني. إنني مجرد امرأة. لكن أقربائي الرجال لن يستسلموا أبداً. في كل مرة تتواصل فيها معي، أنت تعطيني شيئاً من قوتك... تعال إليّ" تغيظه بهذه الطريقة، وتغمض عينيها السوداوين، ويتدحرج رأسها إلى جانب "هل تستطيع أن تقاومني، يا "يارمول"؟ لا، لا..."

لم يكن ذلك "قاما" ثائر تحديداً، لكنها طعنة مجازية في الظهر. لقد سخر منها في حينها، وأمضى ساعات عديدة مرحة في صحبتها. ما كان يصغي لنصف ترهاتها. لكنه أدرك الآن، أنها بسلوكها حسب قانونها غير المقدس، البدائي، قد أعطته لمحة مما سيأتي: لقد كشفت عن نوع من الكراهية الشاملة إلى حد أنها سمحت لنفسها بإغوائه بأسلوبها المتميز وبإهانته في نفس الوقت. سوف يمر عليه وقت طويل قبل أن يسترد عافيته... فقد بدأ يقع في الأخطاء.

رغم أن يبرمولوف قد حاول أن يتعلم أن يلجم لسانه إلا أنه لم يستطع أن يتعلم أن يسيطر على غروره لقد كان يعتقد فعلاً أنه أكثر ذكاءً من أي شخص قابله تقريباً –بمن فيهم القياصرة، الأمراء، وبكل تأكيد، الجنرالات...

ولن تتمكن أية عصابة من الجبليين أن تتحداه لوقت طويل.

استغرق الأمر الجنرال أياماً عديدة حتى يشفى من جولة الحمى. في نهاية الأمر، استكمل شكل أكثر هزالاً بكثير وأكثر تجهماً، الرحلة إلى جروزني. بينما هو يقترب من خط الحصون الأصغر ما بين نازران وجروزني على نهر التيريك، قرر ييرمولوف أن الشيء الوحيد الواجب عمله هو التخلي عنها، أصدر تعليماته قائلاً:

"سوف ننسحب، ونركز قواتنا في الحاميات الأكبر، لن أرضى بوقوع المزيد من الرجال والمدافع بين ايدي الأعداء. لقد تعلم أبناء السفاح كيف يستعملون مدافعنا، الله وحده يعرف كيف.." حتى وعربته ما تزال سائرة، بدأ الجنود يفككون المدافع ويحملون العربات في عجالة بالمؤن القيمة، الذرة، ملح البارود، الملح، والبنادق. لو أن ييرمولوف قال أن هذا العمل غير آمن، لما أضاعوا الوقت في المجادلة، ذلك أمر مؤكد.

وصل ييرمولوف إلى جروزني وبعد بضعة أيام وصل فيليامينوف لإجراء المشاورات في غرفة قيادة ييرمولوف الواقعة تحت الأرض، الخالية من مظاهر الراحة إلا روائح الفودكا والسيجار الفاخر. كان كلاهما يشعر بقليل من الكبت أكثر من المناسبات السابقة.

قال القائد العام بصوت خفيف "حسناً، أيها الجنرال. ما زال لدينا عمل نؤديه..."

اقترح فيليامينوف: "كل ما علينا عمله هو زيادة ضغط البرغي".

قال ييرمولوف بنفاذ صبر "إنني مدرك لذلك، لكنني سأحتاج إلى المزيد من الرجال.."

عبس فيليامينوف "إن السبيل الوحيد أمامنا هو استدعاء المزيد من الجنود من جورجيا. إن رجالي هنا منتشرون بالكامل..."

جلس بيرمولوف إلى الخلف في كرسيه، غارقاً في التفكير. غاص رأسه الأكبر من جسمه نسبياً داخل رقبة الياقة لمعطفه الرسمي، مما أورثه منظر دب غاضب.

"ذلك الحل لا يناسبني، لست مرتاحاً إلى نوايا الفرس. لقد ظل فقدان بعض أراضيهم يقض مضاجعهم، وأنت تعرف جيداً أن الإنجليز لم يوقفوا جهودهم في تحفيزهم -تدريب جيشهم- إرسال "مستشارين" ضباط برتب عالية... وحق الله، يا له من خداع! تقول التقارير القادمة من طهران أنه يوجد حديث دائم عن الحرب هناك. لقد وضع ذلك الأمير الصغير عباس عينه على العرش الفارسي، وأنا لا أستبعد عليه أن يجمع جيشاً في أي يوم. الإسلامي المتشدد اللعين... سوف يلوي أذن أبيه الشاه في أحد الأيام. نحن بحاجة إلى الاجتفاظ بحضور قوي على حدودنا الجنوبية".

أصر فيليامينوف "ليس لديك خيار آخر، يا ألكسيس بيتروفيتش، نحن بحاجة إلى عشرة آلاف رجل على الأقل هنا قبل حلول الشتاء، إذا كنا سنعيد تحديد خط الجبهة".

"أعرف ذلك! إن نيتي هي إحراق قرية أقصاي، وبناء حصن آخر أكبر حجماً ليحل محل غيرزل-أول. لقد كان ليسانييفيتش أحمقاً لكن يجب الانتقام لمقتله... لقد علقت رجالاً من كعوبهم لجرائم أقل من هذه، وأقسم بالله أنه سيسعدني أن أفعلها مرة أخرى... أعرف كما تعرف أنت أنه يجب علينا أن لا نعرف الوهن في سعينا للسيطرة هنا. لكنني سأحتاج إلى الرجال، والتموين، وبحق الجحيم، سأحتاج إلى رجال لحراسة التموين!".

وافقه فيليامينوف "التدمير وإعادة التعمير... تلك أفضل سياسة عندنا".

شرب بيرمولوف جرعة كبيرة "إنهم يسببون لنا أكثر مما ينبغي من المتاعب، يا فيليامينوف. أي عدو يتسبب لي بفقدان الرجال يجب تدميره!" ضرب بقبضته على الطاوله للتوكيد. قلما

شاهد فيليامينوف قائده الأعلى في مثل هذه الحالة من الهيجان القريب من السكتة الدماغية، فقد كان يزداد اشتعالاً ولهيباً مع كل لحظة تمر.

غمغم بيرمولوف "إنني آخذ الأمر على منحى شخصي... إن هذا الهجوم هو برهان آخر على الانعدام الكلي للمبادئ عند الجبليين. إنهم حثالة، إنهم يقفون في طريقي، وأنا لن أقبل بذلك!" زمجر غاضباً "لا عفو. يا فيليامينوف، لا عفو عن أحد، هل تفهم؟".

لاحظ فيايمنيوف أن نبضه يتسارع. لم يكن رجلاً يحمل كل هذا الشغف القوي، لكنه يوافق كلياً على حرفية أوامر بيرمولوف وسوف يسره أن ينفذها بنوع أكثر بروداً من القسوة. فهو نفسه لم يكن يفهم ببساطة ما الذي يدفع الرعاع إلى مقاومة حتمية السيادة الروسية في الإقليم. لم تكن لديهم أية قوانين، لم يكن لديهم قساوسة، ولا دين محترم: إنهم يبيعون أسراهم كعبيد –حتى أنهم يخطفون الجنود عن خط الجبهة ويبيعونهم إلى تجار العبيد. إنهم يتحاربون بين بعضهم باستمرار وهم منفتحون كلياً على الرشوة وحتى أرخص من ذلك، على الإشاعات: ينشرون العصيان، ليس العالم بحاجة إلى مثل هؤلاء المنحرفين –وبشكل خاص. لن تكون روسيا إمبراطورية محمية جيداً حتى تتحرر مواقعها الأمامية الجنوبية من هذه العناصر التي تسبب التلوث مثل الشيشان، الإنجوش، الليسغيين. وكلهم...

حث قائده بقوله "يجب أن تطلب من القيصر أن يرسل لك تعزيزات، وفي الوقت الحاضر، أنظر إلى هذه الخطة الأساسية – لقد أرسلت كشافين للاستطلاع وأعتقد أننا يجب أن نعيد بناء حصن غيرزل–أول هنا، أترى؟ مقابل تاش–كينشو. إنها على سهل، بعيدة بما يكفي عن التلال والأحراش... أسهل للدفاع عنها".

أعطى بيرمولوف موافقته "أنطلق يا سيدي. لنأمل أن يرى القيصر مدى جدية موقفنا".

غادر فيليامينوف الـ"زيمليانخا"، وهو لا يشعر بحماس دموي عند هذه النقطة. فقد كان لديه شكوك خفية بأن اليكسيس بيروفيتش بيرمولوف يبدو مريضاً هذه الأيام، مرهقاً. هنالك العديد من الجنرالات مقربين من القيصر سيسرون برؤيته يفشل... ليس الواقعيين في موسكو، بل الحرس النخبوي القديم، على النمط الألماني في سانت بطرسبرج. إن الوقت متأخر جداً عليه هو، فيليا مينوف لكي يربط عربته بنجم صاعد آخر. لذلك فإن السبيل الوحيد المتاح له هو التيقن من نجاح سياسة بيرمولوف.

عمل الجنرال بيرمولوف، فيما تبقى من السنة كلها، وقبل أن تستولي الثلوج على أقاليم الجيوش على تدعيم قواته، بسحب المدافع إلى أكثر الحصون أماناً على خط الجبهة، وبإرسال مجموعات ترتكب المذابح لنشر الانتقام على الشيشان، وبطلب آلاف الجنود من جورجيا لتعزيز الخط المتقدم إلى الشمال من الجبال.

لكن لم يكن الشتاء هو الذي قضى عليه. بل كان الموت نفسه. ليس موته هو: فقد كان القدر أكثر دهاءً من أن يترك "الشيطان يارمول" يقضي نحبه بذلك الأسلوب الرائع فوق أرض المعركة.

لقد مات قيصره الكسندر في بلدة قميئة صغيرة بجنوب روسيا، تدعى تاجا نروج، على بحر آزوف.

عندما تلقى النبأ، كان يتشاور مع فيليامينوف المقهور مرة أخرى في يوم متجمد من أواخر كانون الأول فزمجر فيه صائحاً "ماذا كان يفعل هناك بحق الجحيم؟".

أجاب فيليامينوف ببرود "يفتش على الجنود، لقد سمعت أن قيصرنا الكسندر كان مقتنعاً باحتمال تجدد الحرب مع الأتراك".

أجابه بيرمولوف بجفاء "ليس هم الأتراك الذين كان عليه أن يقلق منهم، إنهم الفرس. أشك في أن يكون شقيقة قسطنطين أسهل في التعامل معه. إن الأحمق يفضل حياة هادئة في بولندا عن أن

يتولى عرش عموم روسيا! كالعادة، يا فيليامينوف، نحن نخدم الأقل منا شأناً".

حدج فيليامينوف الحارس الواقف عند أبواب "زيمليانخا" جنراله بنظرة فاحصة. بقيت نظرته فترة قصيرة ولكنها فاحصة على الرجل، حاملة ذلك الفراغ المخيف المهدد الذي يكرهه كل العاملين تحت أمره. بعد توقف ملفت للنظر، استدار نحو الجنرال.

"طبعاً أنا أفهم، يا أليكسيس بيتروفيتش أنك تبدي تعليقاتك ضمن محتوى الولاء المطلق، وأنا أشعر بالإطراء لكوني محل ثقتك، لكن فكر بعناية.... ليس من المؤكد أن يقبل قسطنطين بتولي العرش".

"ما الذي تتحدث عنه؟ إنه الوريث الشرعي. لقد سبق وأرسلت تأكيد ولائي!"

أغمض فيليامينوف عينيه وتنهد بعمق "لقد فعلت الشيء المتوقع منك، بأن تعلن ولاءك للدوق الأكبر قسطنطين. إن جيش الكافكاز بكامله يقف خلفك. لكن هاجساً يقول لي... لم تصلنا أية أخبار حتى الآن. لقد انقضى أسبوعان... لا بد وأنك سمعت الشائعات عن فقدان التعاطف ضمن بعض القطاعات العسكرية، وبالذات كوادر الضباط الأصغر سناً في موسكو... إنهم متشوقون للإصلاحات. من يدري، فربما يتولون زمام الأمور بأنفسهم، خاصة وقد توفي القيصر الكسندر".

هز ييرمولوف رأسه رافضاً "مثل هذا الشيء لا يمكن التفكير فيه. أعرف أن هؤلاء الرجال قد أدخلوا نظم أوروبا في دمهم. وكذلك فعلت أنا، لفترة من الوقت. لكن هذه هي الإمبراطورية الرومانية المقدسة لعموم روسيا. ربما يكون لدي بعض التعاطف مع مثاليتهم، مع رغبتهم في الإصلاح، لكنني لا أتعاطف مع أية جماعات سرية خيالية. ليست تلك هي الطريقة الروسية. الطاعة،

الاحترام، الفعالية التي تؤدي إلى التطور.... ذلك، يحتمل، أوافق معك. أي شيء آخر هو عصيان نتن.

طفق فيليامينوف ينتظر، وقد أثير اهتمامه، لأن ييرمولوف لم يبد عليه أنه يقدر القوة التي يمتلكها حق قدرها. إذا كان سيقع انقلاب، فسوف يكون لديه تأثير رهيب هنا في الجنوب – إنه يدير المكان وكأنه أحد الباشوات منذ الآن. وكل الناس يعرفون ذلك.

استأنف ييرمولوف قائلاً "إسمع، أنا أعرف أنه يوجد أغبياء بما يكفي في الجيش، وحتى المجرمين. لدى الكافكاز حصته منهم. لكن الولاء لروسيا، الولاء للقيصر يجيء فوق كل الاعتبارات الأخرى المشابهة. يجب أن أعرف. لقد كنت صغيراً وميالاً إلى الثورية فيما مضى وقد دفعت ثمناً ثقيلاً لذلك. بحق الله يا رجل، توقف عن التنظير ودعنا نمضي في عملنا".

أدرك فيليامينوف أن الضابط الأعلى منه رتبة كان في مزاج أسوأ من أن يفكر في هذا التلميح. عرف أيضاً أن ييرمولوف يبحث عن شيء يرضي به شعوره المتعمق بالظلم. لم ترسل له كتائب إضافية من موسكو. والاتصالات بين العاصمة والجبهة بطيئة إلى درجة أن أي شخص يمكنه أن يتكهن بما يجري هناك.

لذلك، فإن كل ما استطاع أن يقدمه، هو تحويل بسيط.

بدأ بنعومة "سيدي، اليكسيس بيتروفيتش – إذا كنت تسمح لي بأن ألفت انتباهك إلى مشكلة صغيرة؟".

كان فيليامينوف قد أجاد فن الانزلاق نحو لهجة المخاطبة الرسمية والخضوع والخروج منها مع الضابط الأعلى منه رتبة. أما ييرمولوف فلم يكن يعلق أية أهمية على الشكليات – الزي العسكري المنمق، الإمارات الخارجية للرتبة والمزايا مثل الفخامة في مقر إقامته أو خدمات طباخ خاص به. لقد كان قلب الرجل هو الذي يؤثر فيه – فقط ذلك.

"لدي ملاحظة هنا تقول أنك لم تتصرف بعد في غنائم غارة على قرية شيشانية في الأسبوع الماضي. ربما تتذكر يا سيدي أننا أسرنا أكثر من مئتي امرأة شيشانية قبل أن تأمر بإحراق المستوطنة"

"نعم، وماذا عنها؟"

سأل فيلياميـنوف ببرود "ماذا تريدني أن أفعل بهن؟" كان بإمكانه أن يصدر الأوامر بنفسه، لكنه تخيل أن شعور ييرمولوف بالرضى من تنفيذ الواجب بنفسه سيساعد على تحسين مزاجه. فكر الجنرال لفترة "أعتقد أن الترتيب الأكثر إرضاءً هو مكافأة الضباط المستحقين في الميدان في ذلك الوقت بزوجة لكل منهم. هذا أمر يرفع المعنويات. اختر أنت الأجمل بينهن، يا فيليامينوف".

نظر إلى صديقه "وإذا كان الأمر لا يسرك، وكلّ الجنرال دافيدوف بالأمر. إنه خبير متمرس بلحم الخيل".

"أمرك سيدي، وماذا عن البقية؟" قالها فيليامينوف وهو يمضغ سيجاره غير المشتعل.

"إجعل ذلك الأرمني المبتلى بالطاعون – ما أسمه؟ إنه يسمي نفسه "ابن ارتونيان" – اجعله يتخلص من الأخريات ببيعهن. لا أكثر من روبل لكل واحدة: لا بد من وجود قلة من رجال القوزاق على خط الجبهة راغبين في شراء شيشانية تتمتع بصحة جيدة.... وإلا، فاترك الأرمني يتخلص منهن حيث يشاء. من يعلم، فقد يفاجئ الرعاع أي عرض للرأفة. سينفعني هذا الأمر... لا يمكن التكهن بكل شيء".

"لا يا سيدي. لا يمكن التكهن".

كان فيليامينوف على وشك الاستئذان بالانصراف عندما أعلن الحارس عن وصول خيال مراسل.

"جيد. أرجو أن يكون هذا تأكيداً على أننا يمكن أن نتوقع التعزيزات".

تفحص بيرمولوف الختم – كانت الرسالة من قبل الامبراطور نفسه.

ما أن فتحها حتى تجهم وجهه وأصبح عاصفاً. نهض فيليا مينوف واقفاً على قدميه بسرعة "ما الأمر؟"

نزل بيرمولوف عن مقعده متعثراً وركع بسرعة على الأرضية العارية للـــ "زيمليانخا" صلّب على نفسه عدة مرات، وتمتم ببعض الكلمات داخل قبضتيه المغلقتين بقوة. ثم نهض بصعوبة بالغة.

"يجب أن نذهب إلى تيفليس لنذيع إعلاناً رسمياً إلى جيش الجنوب. لقد رفض الدوق الأعظم قسطنطين أن يتولى العرش. جرت محاولة انقلابية قادتها بعض جمعيات الضباط السرية. لقد جرى إخضاع الديسمبريين وأعلن الدوق الأعظم نيكولاي بافلوفيتش نفسه قيصراً. يجب أن أحيط الجنود علماً".

قال فيليامينوف بصوت هادئ "سامحني إذا كنت لا أوافق، ولكن في رأيي يفترض فيك أولاً أن تبعث برسول عائداً إلى سانت بطرسبرج وتعلن ولاءك إلى القيصر نيكولاس". لمرة في حياته، بدا على بيرمولوف عدم الارتياح.

"طبعاً، طبعاً. لا أعتقد أنه سوف يساء تفسير أعمالي".

قال فيليامينوف "آمل ذلك، لكنك تعرف ما حدث في باريس. لقد شن الدوق الأعظم نيكولاي حربه الصغيرة الجميلة واتخذ ذلك اللواء الجنرال الشاب الممل صديقاً حميماً له، هل تتذكر اسمه يا سيدي.

ارتفع رأس بيرمولوف ذي اللبدة الثقيلة ببطء، وحدق في وجه نائبه وقد بدأ الفزع يخالطه. ذلك المتسلق المغرور في فرقة الرماة الثانية الجنرال اللواء ايفان فيدورفيتش باسكيفيتش.

***

ركب أصلان جيراي بمحاذاة نهر التيريك معجباً بخضرة المناظر الطبيعية حوله، الحقول المنبسطة الخصبة تحمل غمامة من محاصيل الموسم الجديد الحيوية التي تخفي منظر الأثلام المحروثة. لقد ارتحل من بلاد العرب عبر البحر الأسود: أخذ طريقه من الغرب إلى الشرق عبر الجبال بدءاً من أراضي الأبزاخ، وفي الأودية ما بين نهري اللابا والكوبان، قابل بعض القبارديين الذين هربوا ضمن "الهجرة" مفضلينها على الخضوع لروسيا.

لقد كانت حياتهم مكرسة للنضال، كما أصبحت حياته هو الآن: لكن أصلان جيراي لم يستطع أن يمنع نفسه من الإعجاب بالجمال الآمن للطبيعة في قباردا الصغرى. فقد أجبره هذا المنظر على إدراك مدى الصعوبة التي سينطوي عليها الواجب الذي ينتظره.

وصل إلى قرية كازبك حيث استقبله بعض الخدم لدى عائلات أصدقائه. كانت المستوطنة هادئة إلى حد الاستغراب بالنسبة إلى يوم مشمس من بواكير الصيف.

سأل "أين ذهب كل الناس؟"

"إن كازبك موجود في الحقول – سوف نرسل له من يخبره...".

"هل يمكنك أن تقدم مجاملاتي إلى سيدك وتعلمه بأنني في طريقي إلى أمير الحابسا، لأقدم احتراماتي إلى والدتي..."

قال أحد الخدم "سوف يلحق بك إلى هناك، أيها "الحاج". قبل أن يتفرقوا مسرعين لنقل الخبر. ابتسم أصلان جيراي بكل تواضع تجاه الصيغة الجديدة في المخاطبة. فهو باعتباره "حاجي" أي رجل

أتم رحلة الحج إلى مكة، قام بتغيير لباسه ولم يعد يحمل أية أسلحة. لم يعد لديه أي من مظاهر أمير صغير من تتار القرم، أو حتى نبيل مقاتل. فقد أصبح يرتدي عمامة بيضاء، وثوباً أبيض ناعماً، ومعطفاً سميكاً أسود من الصوف الخشن. وقد استبدل شاربه الحريري الراقي بلحية سوداء مشذبة، مع أنه لم يكن يسمح لها بأن تطول بل ظل يشذبها حتى تظل قريبة من ذقنه. بقيت عيناه السوداوان تشعان ببريق اشتد أكثر في تأثيره السحري، فقد تنامت قوته الجسدية: لم يعد نحيلاً كما كان في السابق، بل أصبح جسمه أكثر تحدياً، أشد صلابة. لكن هذه الصلابة كان مصدرها مركز تصميم داخلي على الغاية أكثر منه أي تغيير خارجي.

انتظر أصلان جيراي في صالة الأمير بينما يتم إعلان حضوره. جاء عمر على عجل.

"الحمد لله والشكر! أهلاً بك! سوف تغمر السعادة والدتك لمرآك، يا "حجي". لقد شرفتني بحضورك. ألا تتناول الشاي معي...؟"

جلس الرجلان على وسائد لتبادل أطراف الحديث.

"لقد غبت فترة طويلة، يا أصلان"

"لقد تنقلت كثيراً في رحلتي إلى الحج.... لقد درست عند العديد من الأساتذة. إن الحصول على الحكمة هو أحد أعلى أشكال العبادة. كما ورد في الوحي أنه قيل "السعي إلى المعرفة لساعة واحدة خير من الصلاة لسبعين سنة".

أحنى الأمير عمر رأسه.

لكن أصلان جيراي سارع إلى إصلاح الانطباع القداسي الذي خلقته كلماته. فهو لم يرغب في أن ينصِّب نفسه أو يساء فهمه. أضاف أصلان باحترام:

"طبعاً، يا صاحب السمو، هناك أنماط جديدة من المعرفة. ولذلك سافرت إلى تلك الأبعاد طولاً وعرضاً. هنالك أمور عديدة يتوجب فهمها، إذا كان الشخص يرغب في أن يخدم ويكون مفيداً".

جعلت الخفة الشائعة في صوت أصلان جيراي قلب الأمير عمر يخفق. فقد تولد لديه حدس بأن هذا "الحاج" الجديد الرائع ليس كل ما يظهر منه، بل المزيد.

قال بسرور وقد أعجبته الفكرة "لدينا الكثير لنبحثه معاً، ولكن في البداية أنا واثق بأنك سترغب في رؤية الخانم. لقد أرسلت من يخبرها بأنك موجود هنا. سوف أترككما لخصوصيتكما، يا أصلان".

سرعان ما ظهرت السيدة النبيلة المسنة بصمت. حتى الحاج الصلب مثل أصلان جيراي لم يستطع أن يمنع نفسه من الإحساس بالدموع تتخز في عينيه عندما تلقى أول لمحة من أمه. لقد ذهبت سنوات اللجوء بالرعب الذي كان يشع من عينيها. ازداد هزالها وضعفها، وزاد انحناء ظهرها، ولكنها كانت كعادتها، ترتدي ثياباً متميزة. زادت روعة ملابسها من إظهار قابليتها للعطب: ظهر وكأن القلائد الذهبية والأقراط تثقل على بشرتها التي تكاد تصبح شفافة. كانت تتكئ بتثاقل على ذراع امرأة جميلة – لم يتذكرها أصلان للوهلة الأولى، لكنه أدرك لاحقاً أنها نورسان، زوجة كازبك.

كيف رتبت نورسان طيات ثوب الخانم بمنتهى الرعاية والاهتمام! نادت على الفتاة الخادمة لكي تحضر المزيد من الوسائد، وبعد أن أجلست الخانم براحة، ابتسمت بخجل لأصلان وكادت تنصرف بمنتهى الهدوء بدون أن تنبس ببنت شفة.

"نورسان، لا تذهبي – كم لطيف منك أن تعتني بوالدتي..".

رفعت الخانم يدها هي الأخرى "يا بني، يجب أن تشكر صديقتي. لقد أنقذت حياتي. سأكون امرأة مستوحشة عجوزاً بدونها..."

ضحكت نورسان قليلاً من العصبية والحرج، "كلا، أنت يا صاحبة السمو التي أدخلت السعادة إلى حياتي المتواضعة الصغيرة... إلى اللقاء يا أصلان، سوف نلتقي مرة أخرى".

قلما شاهد أصلان في كل أسفاره امرأة ذات جمال يضاهيها. لقد لمح في حياته السابقة العديد من النساء الثريات، زوجات السلاطين والباشوات، ونزيلات عدة أمكنة للحريم. لكن نورسان تمتلك تفوقاً طبيعياً على النساء الأخريات لا يمكن لأية كمية من المجوهرات، الأقمشة أو الذهب أو مظاهر الترف الأخرى أن تحسّنه. ولهذا آمن بأن كازبك رجل محظوظ.

"يا ولدي.... إن عينيّ تتمتعان برؤيتك" جاء صوت أمه متهدجاً أبح. "أنت بار بأمك العجوز، حتى تمنحها هذه النظرة الأخيرة إلى ولدها المفضل".

"لا تقولي مثل هذه الأشياء... سوف تعيشين حتى سن متقدمة عظيمة وسوف أراك مرات عديدة".

"كلا، لا أعتقد ذلك. نورسان وأنا نعرف هذه الأمور".

انخفض صوت الخانم إلى ما فوق الهمس بقليل. مال إلى الأمام بحنو حتى يسمعها. "قل لي يا أصلان، إلى أين تمضي من هنا؟ هل ستذهب إلى "الغزوات"؟"

أجفل أصلان "الحرب المقدسة؟ كيف تعرفين أن لدي خطط من ذلك النوع، يا أماه؟ أنا رجل دين.... أنني "حاج"... يمنع على رجل الدين أن يحمل السلاح".

"كل ما علي هو أن أنظر في عينيك لأعرف أنك تبحث عن انتقام مشروع. إنه من طبعك أن تكون مؤمناً، من النوع

المتطرف.... أنك تفرض هذه المطالب على نفسك دائماً... لماذا؟ لماذا؟" بدأت المرأة العجوز تتمايل قليلاً لشدة حزنها.

أمسك أصلان بيديها "لا تتنفسي بكلمة لأي إنسان. فذلك الوقت لم يحن بعد"

أغمضت أمه عينيها وكأنها تتمتم بصلاة "أعرف ذلك أيضاً، يا ولدي".

وجد أصلان هذه المحادثة مختصرة إلى درجة أنه لم يعد يعرف ما سيقوله بعد ذلك. فقد تم التفاهم حول كل شيء.

فتحت الخانم عينيها "لم أكن قادرة على أن أخبرك بهذا سابقاً.... كان هناك مرة رجل، فارسي، حضر إلى قصرنا في باكتشيسيراي وبشر بعلوم نادرة لآل جيراي. كانت معرفة بقيت مدفونة في ثنايا الجوامع، المدارس الموجودة في الجوامع، المكتبات المقدسة للكليات القديمة لرجال الدين.... وقد سمعته وأنا متخفية في جناحي، من خلف ستارة".

اقترب أصلان أكثر، وهمس بالرد عليها: "الشريعة" هي القانون، "الطريقة" هي الدرب، و "الحقيقة" هي الصدق".

طأطأت الخانم برأسها "لقد كان من أتباع الطريقة الأخرى، النقشبندية. وهم يؤمنون بالنار المقدسة والسيف".

عند ذكر هذا المذهب القديم المتطرف الخارج على القانون، مرر أصلان يده برفق فوق فم أمه.

"أنا أعرف عنها أيضاً، يا أماه، وأعرف الكثير أكثر إلى جانب ذلك. لقد جئت فقط لأطمئنك، بأنني بخير وعافية وأنني سعيد، وسوف أستمر في أن أكون باراً بك وسأوفر لك ما تحتاجينه كما أمر الله كل رجل أن يفعل".

ركع أمامها، فلمست رأسه المغطى بالعمامة في مزيج من المحبة والخوف.

"إنني لأعجب مما سيحل بك يا أصلان. أنت أصغر أولادي، أقلهم قوة وشجاعة، ومع ذلك فإنني أعتقد أنك ستتفوق على أخوتك...".

"آمني بقدراتي يا أمي. وسوف يريحك الإيمان".

قبلها بمحبة وإيثار، ثم استأذنها في الانصراف.

وجد كازبك ينتظره في الخارج على صهوه جواد جميل. لم يستطع أصلان لدقيقة أن يتعرف على ما تغير فيه –ولكنه بعد ذلك أدرك. لقد فقد كازبك للمرة الأولى ذلك الإشعاع غير العادي المشبع بالحالة الممتازة التي أسبغتها عليه ملامحه الحسنة على الدوام. فقد كان في الواقع يعكس سنه الحقيقية.

قال أصلان فوراً "صدقني، أن الحياة تحسن إليك صنيعها، يا كازبك!" ليغطي بكلامه على انطباعه الحقيقي "إن كل بوصة فيك هي "وَرْق" قباردي هذه الأيام!".

"أما بالنسبة لك، يا صديقي القديم، فالحمد لله والشكر!".

ذهل كازبك بدوره من مظهر أخيه بالدم، ومع ذلك فلما استمر أصلان في التحدث، وهو يمرر يداً معجبة فوق آخر إنتاج لإسطبلات والده أحمد، أدرك أنه لا يزال الرجل نفسه في الداخل. لقد دأب أصلان منذ زمن طويل على تقمص دور الرجل الذي يختفي دائماً ليؤدي مهمات خطيرة ومع ذلك فهي سرية. كونه أصبح "حجي" لم يطرد عنه الروح الغرائبية المتعلقة به بأي شكل. ربما كان ذلك سببه روعة ملابسه، أو رشاقة حركاته التي تحاكي رشاقة القطط. أو ببساطة الطريقة المكثفة والسرية التي يعبر فيها أصلان عن نفسه.

استتسر أصلان صديقه "هنالك الكثير جداً لأخبرك به يا صديقي"

شعر كازبك بالسرور – فقد أدرك فجأة كم كان يشعر بالوحدة. فهنالك أمور لا يمكنه أن يخبر عائلته بها: تطلعات سرية، خيبات أمل سرية. كان أصلان عزيزاً عليه بطريقة خاصة، ليس فقط لأنهما قضيا طفولتهما سوية، بل لأنه كان أجنبياً، مما جعل كازبك يشعر أن بإمكانه أن يخبره أسراره بدون عواقب. فهو يخبر أصلان بكل شيء في ثقة، لأنه حدثت مناسبات عديدة أودع فيها حياته بين يدي صديقه.

أولم أمير الحابسا لأصلان وليمة فاخرة بكل الاحتفاليات الممكنة في تلك الأمسية، وقد حضر كل كبار القرية، بمن فيهم أحمد ومراد.

"تمنعني عاداتكم "الخابزه" من السؤال عن صحة عائلتك" قال أصلان لصديقه أثناء الوليمة الفاخرة – مع أنه تناول كمية قليلة جداً من الطعام.

ابتسم كازبك "أنت لا يمكن أن تتسبب لي بالحظ المشؤوم، يا أصلان. هل ترى ذلك الشاب الواقف هناك – خلف كرسي أحمد؟"

وأشار إلى فتى جميل الهيئة يقف منتصباً خلف جده، ويحاول جهده أن لا ينظر إلى "الحجي" الغريب، مع أن كل رعشة في أعضائه تنم عن فضوله.

أعلن كازبك في فخر "ذلك هو ابني".

فوجئ أصلان "أنه موجود في البيت معك – ومع ذلك فهو لا بد قد بلغ الثالثة أو الرابعة عشرة– فهل أنهى وقت تدريبه لدى "الأتالق"؟"

زوّى كازبك بوجهه في استياء " لم تقبل نورسان حتى أن تفكر في المسألة. أعتقد أن ذلك كان آخر جدال بيننا. قرر والدي

أخيراً أن بإمكانه أن يعلم الفتى كل شيء يستطيع "الأتالق" تعليمه إياه، وهكذا فهو يعيش معه ومع تسيما. لقد أصبح منذ الآن فارساً خبيراً. لديه موهبة طبيعية مع الخيل – حتى أكثر من أخي أنور".

انتظر أصلان. فإن السؤال أبعد من ذلك الحد سيكون تطفلاً غير مقبول فعلاً.

قال كازبك فجأة "ليس لدي أطفال آخرون. إنها مشيئة الله".

لم يشأ أصلان أن يخبره بأن الله سبحانه وتعالى يسمح للرجل أن يتزوج مرة أخرى إذا اختار ذلك: لأنه يعرف أنها ليست عادة الشراكسة. لكن يجب الحفاظ على الأمة...

تفحص كازبك وجه أصلان وعرف تماماً ما كان يفكر فيه. فقد كان ماضي أصلان الزاخر، إن لم يكن الفاسق ما يزال ظاهراً حين يطرأ ذكر هذه المواضيع. ضحك قائلاً: يا صديقي العزيز. إذا تزوج كل واحد منا امرأتين، فلن يتبقى للآخرين زوجات "خفض صوته وقال بسرعة "لقد أحببت بما يكفي في حياتي. وذلك يكفيني".

وضع أصلان يداً على ذراع صديقه "في هذه الحالة، إذا كنت جاهزاً لكي تنحي هذه الملذات جانباً، كما فعلت أنا.... يا كازبك، فلم لا؟ أنت رجل يصلح لأن يصبح قائداً عظيماً. منذ أيام صبانا، عندما أصبحنا أخوة في الدم، عرف كلانا قدرك. هنالك الكثير مما ينبغي تعلمه. لماذا لا تجيء معي؟ أترك هذه الحياة المسالمة..."

فوجئ كازبك "لأفعل ماذا، يا أصلان؟" حدّق في صديقه بقوة أكبر. "أنت تخطط لأمر جلل. سامحني. ينبغي أن أظهر قدراً أكبر من الاحترام لكونك أصبحت "حجي" لكنني أستطيع دائماً أن أخمن.

قال أصلان "انتظر حتى نصبح لوحدنا" وجمع قطعة صغيرة من المعجنات المنبسطة مع اللحم المعد بالبهارات ولفهما في لقمة رائعة.

بات كازبك يعجب مما يدور. إن حياته صعبة. نورسان تكاد تكون قد هجرته في هذه الآونة: إمام مستقر بأمان لدى جده وجدته. الوحشية المذهلة التي أجبر على مشاهدتها في قرية ترام موجودة معه على الدوام كثقل أسود هائل في مؤخرة عقله. مهما أرهق نفسه في العمل في المزرعة، فهو ما زال يحس بوجود بقعة فراغ في مركز وجوده. وهو يشعر بأنه لا بد من وجود ما يفعله أكثر من هذا، ومع ذلك – فهناك شيء ما يشده إلى الوراء ليمنعه من الخوض في أي حديث مغري أو ملهب للمشاعر من "الحاج" أصلان. فهو يرغب في السلام، في وجود غاية – وليس المكائد.

والآن، أصبح أصلان هو الذي يقرأ أفكاره "أنت لديك التزامات هنا يا صديقي. أنا لست أقلل من شأنها. لديك عائلة رائعة، وسلام هش ينبغي الحفاظ عليه".

رفع فنجانه إلى شفتيه وجاءت عينه في عيني أحمد الجالس قبالته مباشرة، إلى جانب عمر، أمير الحابسا، وشقيقه، الوجيه مراد. ابتسم له أحمد محيياً، لكن عينيه الداكنتين كانتا مليئتين بالغموض. ربما أدرك أن لأصلان تأثيراً تخريبياً على ابنه البكر، رغم أثوابه الدينية. بدا الرجل المسن مشغول الخاطر. حاول صديقه مراد أن يكلمه فلاحظ أصلان أنه لم يسمع كلمة واحدة.

في وقت لاحق، فرغت الصالة من المدعوين، وناول كازبك صديقه أحد أفخر "التشيبوك" عنده، واسترخى على أريكته وقد حضَّر نفسه للتدخين والتحدث خلال الليل بطوله.

"قل لي إذن، يا أصلان، ما الذي حدث عندما كنت في بلاد العرب؟"

مال أصلان إلى الأمام، وهو يهمس بآلية رغم أنه لم يكن هناك أي خطر على الإطلاق في قرية الحابسا من أن تسترق السمع آذان معادية.

"لقد قابلت رجالاً كثيرين ذوي عمق فكري، مفكرين عظام. عرفت الكثير مما يجري في العالم. أهم شيء تعلمته هو أن الطريقة الوحيدة لإبداء المقاومة لغزاة أراضينا هي من خلال الإيمان الواحد الصادق. إذ لا يكفي أن نكون مقاتلين شجعاناً، أن نموت ميتة مجيدة. يعلمنا الإيمان أن كل الرجال سواسية. ومن خلال هذه العقيدة سوف ننهض ونقهر أعداءنا. من خلال نمط واحد نقي جوهري من تعاليم الله نستطيع أن نتوحد ونقهر "الجاور".

هز كازبك رأسه مخالفاً "ليس كل الرجال سواسية. لكل منزلته وعليه واجباته. ما تقوله غير واقعي يا أصلان. ليس هذا هو الفكر الذي يمكن أن يعتنقه شعبي".

أسودّ وجه أصلان من الغضب للحظات. هذه ردة فعل "الوَرْق"، ولكنها ليست ردة فعل كازبك نفسه. على أية حال، فقد سيطر على أعصابه في الحال، واستمر يتكلم بإقناع "ولكنك تتفق معي أنه يجب على شعوب القفقاس أن تتوحد".

هز كازبك رأسه "لا أرى إمكانية ذلك. فهناك ببساطة الكثير جداً منهم، وكل مختلفون وكل منهم يسعى إلى السيطرة. إضافة إلى ذلك، يا أصلان، هذه ليست حربك أنت - كيف يمكن لها أن تكون؟".

غلب الإصرار على صوت أصلان "إنني مجرد رسول. هناك رجال مؤهلون لأن يكونوا قادتنا، ليس فقط هنا، بل في كل أنحاء العالم. لقد قابلت مثل هذا الرجل، واسمه عبد القادر، هو من شمال إفريقيا. سوف ترى يا صديقي. سيصبح هذا الرجل بلاءً على أعدائه ويتحرر من الأصفاد... سوف يحرر شمال إفريقيا من الأصفاد التركية. سوف ينشر الإسلام الحقيقة. ثم هناك عباس ميرزا في بلاد فارس. سوف يقنع الشاه بأنه هو الوريث المناسب لعرشه، وسوف يكسب ملاليه السلطة. كان هناك رجل آخر في مكة المكرمة - شامل من الداغستان- "

شعر كازبك بالانزعاج "لا تخبرني بالأسماء، يا أصلان".

توقف أصلان عن الكلام. سحب نفساً عميقاً وحاول مرة أخرى. ثم اقتبس (من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا) [المائدة 32]. ذلك هو "الجاور"! إن القرآن يحرم القتل غير المشروع. فالبشر مقدسون. هذا هو سلاحنا الأعظم. نستطيع بهذا السلاح أن نبشر بالوحدة – بأن كل إنسان مهم وأن حياته وحريته يستحقان القتال من أجلهما. إن الإسلام هو جذر شجرة الحرية: المؤمنون هم جذعها، والمقاتلون من أجل الإيمان هم الأغصان. وهكذا، فهناك أولئك الذين يخشون القتال، وهم الذين أصبحوا مترفين منعمين. هم الذين يتلقون الرشاوي من الروس. فهل تعتقد أن تعفن واحد أو اثنين من فروعها يقتضي تدمير الشجرة بكاملها؟"

اقتنع كازبك بقوة هذه الكلمات،وكذلك الإهانة الموجهة تلميحاً إلى قومه، فقال "أنا أفترض أنك تتكلم بشكل نظري...." ورمق أصلان بنظرة خارقة.

إن الكلمات سهلة. استطاع بعين عقله أن يشاهد الكهل، الأصم، الأبكم والضرير، يكافحون حتى يموتوا بكرامة في بلاد الشيشان. ماذا يعرف أصلان عن هذه الأمور؟

رفع أصلان يده، وقد فتح كفه إلى الخارج، لإبعاد أية عداوة بينهما، وقال "لا أقصد الإساءة".

قال كازبك، وقد انجرَّ إلى النقاش رغماً عن إرادته "حسناً إذن، إذا بترت الغصن العفن فإن الشجرة الصحيحة تنبت أوراقاً جديدة" قالها بهدوء.

ارتكز أصلان في جلسته إلى الوراء، وقد شعر بالرضى "بالضبط. وإذا ضربت الصاعقة شجرة ما، فهل تحني الأشجار

الأخرى رؤوسها أمام الصاعقة؟ هل تسقط جميعها إلى الأرض خوفاً من أن تضربها الصاعقة هي الأخرى؟"

"كلا"، وافق كازبك مرة أخرى "في الواقع، إنها ستنمو بقوة أكبر لأنه سيكون حولها مجال أوسع لتزدهر فيه... لكن عندما يجعل النسر الروسي عشه في مثل هذه الشجرة الحيَّة، كيف يمكن للشجرة نفسها أن تمنع ذلك؟". ضحك بطريقة غير طبيعية، في محاولة لدحض حجج أصلان. ثم مال إلى الأمام ليطرح سؤالاً أقرب صلة "ولكن عندما تتحدث عن البرق - إنما أنت تتحدث عن ذلك الشيطان ييرمولوف، أم أنك تفكر في بلاء من طراز آخر؟".

لكن أصلان رفض أن يداعبه أحد حتى يتخلى عن أحلامه. فأمسك بذراع كازبك بقوة. "صدقني يا كازبك، قد يصبح من الضروري تعليم الضعيف درساً. إجبار الناس على التوحد. ذلك كل ما يمكنني قوله. إن هذا مجرد إنذار لك".

أصبح كازبك يحس بألم دفين كامن في داخله. جزء منه خوف، من أن السلم الناجز عن طريق التفاوض بين القباردي و "الجاور" لن يستمر إلى الأبد، وجزء آخر - لا بد من أن يعترف - هو حسد. إلى أن يتجه بنفسه؟ كأنما لم تكن هناك أيام كل ما أراده فيها هو أن يحمل سيفه، يقفز إلى سرج بجانب أنور ويركب مغيراً معه ليرتكب الدمار!

لقد ظل أصلان على الدوام رجلاً يحمل مشاعر عنيفة، لكن يبدو أنه وجد قضية يعتبرها تستحق أن يرتبط بها. لم تكن لدى كازبك أية فكرة - ولم يكن يريد أن يعرف - أية عصابة من المتطرفين تحالف أصلان معها. بإمكانه أن يخمن: فقد كانت الجبال تعج بالإشاعات حول نوع من الفوران الديني الحماسي، خاصة في الشرق. كثيراً ما يجيء الأفاريون من الداغستان للمتاجرة مع أبيه أحمد، وفي نفس الوقت يجيئونه بالأخبار.

لا عجب أن أباه لم يكثر من الكلام أثناء الوليمة. لقد عرف بما تحمله الريح، ولم يشأ أن يفقد أولاده لنوع قاتل من "الجهاد".

لم يكن أصلان قد ترك ذراعه. بل صار الآن يهزها، ليحمل كازبك على التركيز عليه. "تعال معي إلى ياراغي. تعال وسوف نستأنف دراستنا معاً – كما فعلنا مع تميروقا، سوف ندرس الصوفية، كتابات الأنبياء، كلمات النبي محمد، صلوات الله عليه..."

نفض كازبك ذراعه وهزها "أنت تعني الانضمام إلى المذهب، مهما كان أسمه– "

"ليس له اسم. هنالك رجل دين كان فيما مضى من اتباع النقشبنديه....."

"لا تخبرني بالمزيد، يا أصلان. إن طريقتي مختلفة عن طريقتك".

استمر أصلان في التمسك بذراع كازبك لوهلة طويلة. أحسَّ كازبك بتيار من الطاقة يتدفق من صديقه. آه يا إلهي، إن الإغراء قوي لدرجة أنه يؤلم. لمجرد توجيه ضربة! لأن يكون حراً حتى يتبع إملاءات قلبه!

لحظتها أطلق أصلان ذراعه "لقد تأخر الوقت، ويجب أن أخلد إلى النوم" قال ذلك وهو يتثاءب باسترخاء، مما أبهج كازبك: فقد كان فعلاً يشعر بالتكريم لأن أصلان يمكنه أن يشعر معه بذلك القدر من الراحة. إنه "حجي"، أمير هارب، رجل أبصر الدنيا. كيف انعكست أدوارهما منذ أيام الصبا!

لن يعرف أصلان أبداً كم اقترب من اكتساب كازبك إلى صفه. فقد أصبح القبول يفيض إلى قلب كازبك منذ تلك اللحظة. إن واجبه هو الوقوف إلى جانب عائلته. أن يحمي شعب الحابسا. تمشى كازبك مع أصلان إلى غرفة ضيوفه. كان الهواء ما يزال

دافئاً. كل شيء هادئ ومسالم. بعكس الحديث الساخن الذي تبادلاه لتوهما.

عانقه كازبك "ليلة هانئة يا صديقي، كان الله معك".

أجابه أصلان بإخلاص "ومعك أنت. لا أعرف متى سنلتقي مرة أخرى، يا كازبك، لكن هذا لا يهم، هل يهم؟ لقد شاركنا بعضنا بعضاً مكنونات قلبينا وأفكارنا. سوف أغادر قبيل انبلاج الفجر".

"أتمنى لك حظاً طيباً" راقب كازبك صديقه أصلان وهو يأوي إلى غرفته. استبد به بالأرق والتململ، فقرر أن يتدرج خلال القرية لفترة ما قبل أن يأوي هو الآخر إلى فراشه. كل ما استطاع أن يسمعه هو أنفاس الدواب الثقيلة، احتكاك الحوافر غير المحذية بالتبن، نعيق بومة أحياناً. خرج ماشياً من القرية نحو عزبة أبيه. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بكثير عندما دخل إلى الساحة واتخذ طريقه نحو بيته.

كالعادة، كان بيته فارغاً إلا من الخدم في الجناح المخصص لهم.

بعد حوالي ساعة فوجئ بنورسان تخرج بهدوء من بين ظلال الممر لتدخل عليه. ركعت إلى جانب فراشه. لم يكن كازبك قد حظي بإغماضة عين من النوم وانقلب على جنبه عندما سمع هسهسات أثوابها.

قالت لمجرد إضفاء الألفة "أنت ما زلت صاحياً"

"لا بد وأن يبدو الأمر هكذا".

سارت نورسان إلى الشباك، فتحت المصاريع لتسمح لشعاع القمر بالدخول. كان الطقس ما يزال دافئاً، استطاع أن يسمع الجنادب والضفادع تصوت عند ضفة النهر.

"عندما تموت الخانم – لن يبقى عندي عذر في البقاء منفصلة عنك. هل ترغب في إعادتي إلى عائلتي، يا كازبك؟"

تضايق من هذا السؤال "لماذا تلقين علي هذه الأسئلة، يا امرأة؟ إنك بهذا تجلبين الانتقاد! إنها طريقة شاذة في الاستمرار، ومع هذا أرى الآن إنها طريقة مؤكدة حتى تحصلي على ما تريدين!".

"وماذا تفترض أن يكون ذلك، يا زوجي؟" جاء صوت نورسان ناعماً لطيفاً، ومع ذلك لم يكن فيه أي دفء.

احتضن رأسه بين يديه في يأس "ليست عندي أية فكرة حقاً. ليس بمقدوري أن أسعدك، ذلك أمر أنا واثق منه". أدرك كازبك فجأة ما قالته – فقد أصبح رد فعله هذه الأيام لا يتغير، فهو ينفعل من أسلوب كلامها، وليس من محتواه. "ماذا تعنين بقولك عندما تموت الخانم؟ إنها بصحة ممتازة – مع أنه ليس هناك شك في أنها إذا أصبحت ضعيفة، ستكونين حاضرة وموجودة للعناية بها..."

بات يكره نبرة السخرية في صوته، لكنه لم يعد يقوى على الامتناع عن توبيخها.

لم ترمش لنورسان عين. بدا الوضع وكأنها تعلمت، عبر سنوات العيش بقربه ولكن منفصلة عنه، أن تقف بعيدة عن كل المشاعر.

"لقد عقدت الخانم مصالحتها مع أصلان. إنها تعرف أي مسار سيتخذه بالضبط. إنني أؤمن بصدق أنها استمرت في الحياة فقط حتى تتأكد من أنه أتم "حجه". سوف تذوي بسرعة بعد هذا – إن قلبها في مثل رقة الزجاج".

"لقد سمعت أكثر مما يكفي ليوم واحد، يا امرأة". استدار كازبك لينام. وهو يعاني من الإحساس بالحصار التام. كان هناك شيء داخل نورسان يدفعها إلى التعلق بالمآسي. كان يكره حدسها في بعض الأحيان، استشرافها المدمر للمستقبل. تمتم قائلاً "سأشعر

بأسف شديد لرؤية الخانم تعاني" وقد أغلقت عيناه، وألقى بذراعه عبر وجهه. "لقد عاشت حياة صعبة... لقد أملت أن تهبها أيامها الأخيرة هنا لدى الأمير بصفته "الكوناك" الشعور بالأمان والراحة!" عاد إلى الجلوس مرة أخرى، وهو يبذل جهداً هائلاً للاحتفاظ بمزاجه سوياً "أنا واثق من أن صحبتك لها قد ساعدتها كثيراً. أعرف جيداً مدى طلاوة أحاديثك، عندما تودين" أضاف بمرارة.

جاءت نورسان مسرعة إلى جانب فراشه وأمسكت بيده. قبلت جبينه بنعومة "سترى في يوم من الأيام غاية الله سبحانه وتعالى في كل هذا. لن أجيء إليك بعد الآن يا كازبك. إلا إذا أمرتني".

"إن الامتناع عن الحب كرجل وزوجة مخالف لكل العادات – "للخابزه" عندنا، لديننا!"

أراد أن يصرخ عالياً، لكنه لم يفعل. فقد كان الأمر بلا فائدة. فقال بجلافة "إن واجب الزوجة هو إطاعة زوجها".

"إذن فأنا الخاطئة. ليس أنت".

"لن آمرك أبداً. لقد أحببتك بعمق أكثر مما يسمح لي بذلك".

"أعرف" نهضت قائمة، وهي تنظر إليه بعينيها العسليتين الواسعتين اللتين أبقتاه في حالة انتشاء ذات زمن. والآن فإن تحديقهما يجعله يشعر وكأنه مسافر في أرض غريبة، لا أكثر.

"إنني آسفة" قالت له، كما في ألف ليلة أخرى، وغادرت الغرفة.

ربما تم استنبات الفكرة داخل رأسه في تلك اللحظة: ستصبح هذه الحياة غير محتملة، طال الزمان أم قصر، وسوف يضطر إلى القيام بعمل ما لتغييرها. أجبر نفسه على تذكر الكلمات المقدسة، في محاولة للتوصل إلى السكينة التي تمكنه من النوم، للتعبير عن العرفان لأن شعبه قد سلم من العنف الذي وقع على الآخرين (هُوَ اللهُ الذِي لا إله إلاَّ هُوَ عَالِمُ الغَيبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ *

هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلاَمُ المُؤمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ سُبحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا في السَّمَاوَاتِ وَالأَرْض وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ) (صدق الله العظيم) آخر أفكاره وهو ينتقل إلى عالم النوم كانت أن أصلان لا يعرف – أنه بالنسبة للشيشاني، فإن قطع شجرة واحدة خطيئة تعادل قطع حياة رجل. يذهب الحطاب إلى الحرش وقد خبأ فأسه تحت معطفه، حتى لا يغضب الأرواح القديمة نفسها التي سكنت في المنطقة قبل مجيء أية ديانة بوقت طويل. وهو دائماً يأخذ أقل القليل من حاجاته، من باب الاحترام.

***

الفصل العاشر
1834-1826

الجنرال إيفان فيدوروفيتش باسكيفيتش يعاني مما سماه فيليامينوف في إحدى المرات بحضور بديهه "جنون الاستعراضات" فهو لا يحب شيئاً أكثر من رؤية أكبر قوة ممكنة وهي تستعرض في الساحة بكامل أسلحتها وملابسها الرسمية.

كان ذلك ضعفاً معروفاً للعامة، يشاركه فيه قيصره، المنتخب حديثاً نيكولاس الأول. لذلك لم يكن مستغرباً أن يشعر الجواسيس فيليا مينوف أن أول تقرير مكتوب من باسكيفيتش إلى قيصره بعد وصوله إلى الكافكاز، كان للشكوى من أن الجنود في الجيش الجنوبي مدربون بشكل سيء جداً وفي حالة مفزعة من انعدام الانضباط.

حاول فيليامينوف أن يحث قائده على إظهار بعض الروح المعنوية بتكراره لتلك الكلمات المهينة. لكن الظاهر هو أن ييرمولوف قد فقد سيطرته: فقد اكتفى بنفض كتفيه وغمغم بشيء عن حاجة باسكيفيتش إلى رؤية شيء من القتال، وأن ذلك سيغير رأيه.

أعتقد فيليا مينوف أن الانتكاسات في الشمال وفي حملة نائب الملك ضد عباس ميرزا والفرس في الجنوب قد حطمت معنويات ييرمولوف بوضوح: ربما كان مريضاً طبياً أكثر مما يسمح لنفسه بأن يعرف: على أية حال، يبدو أن طفيلية داخلية مما يمتص الدم قد وصلت إلى أمعائه، من الناحيتين البدنية و المجازية، حسب رأي فيليامينوف.

كان على طريقه إلى اجتماع حملة في قيادة الجيش الجنوبي في تيفليس، بجورجيا. فقد أرسل باسكيفيتش من قبل القيصر نيكولاس "لتقديم المساعدة" للحملة الفارسية، لكن كلاً من ييرمولوف وفيليامينوف فسرا هذا الأمر على القصد منه - وهو إظهار علني لانعدام الثقة بنائب الملك في القفقاس. أكثر من انعدام البأس عند ييرمولوف ضد عباس ميرزا، كان إعلان الولاء لقسطنطين - السابق لأوانه كما تبين لاحقاً - قد جرى تفسيره من قبل القيصر الجديد على أنه إجراء من قبل رجل لا يستحق الثقة. (تخلى قسطنطين عن أية مطالب بالتاج لصالح شقيقه الأصغر الأكثر كفاءة). لم تساعد الإشاعات والثرثرة التي تقاطرت إلى الجنوب من القصر رجوعاً إلى القفقاس، حول الطريقة التي تسلم بها نيكولاس، إعلان ييرمولوف المتأخر بالولاء. أرادت جوقة الصنائع المحيطين بالقيصر أن يعرفوا "لماذا كان إعلان الولاء بطيئاً إلى تلك الدرجة في القدوم؟ هل كانت هناك معارضة على هذا الصعود إلى العرش، في الجنوب؟"

أجاب المراسل بحماس وحرارة "حتماً لا، إن أليكسي بيتروفيتش محط إعجاب في جورجيا إلى درجة أنه لو طلب من الجرال أن يقسموا يمين الولاء لشاه بلاد فارس لفعلوا ذلك جميعهم على الفور!" أصيب نيكولاس بصدمة شديدة من هذه الملاحظة. كان بإمكان فيليا مينوف أن يفكر في عدة رجال أقوياء سيكونون أكثر من جاهزين لاستغلال شكوك القيصر - خاصة بعد ويلات ثورة الديسمبريين. لقد جرى تطهير الجيش من العناصر الثورية في الرتب المتدنية - ولكن ماذا عن القيادات؟ لم يكن ييرمولوف يتمتع بأية شعبية في موسكو، وقد عمل الحرس القديم على القيصر بزيادة مخاوفة من نائب الملك، لا شك في ذلك.

لقد كان الجنرال المرافق باسكيفيتش، صديق نيكولاس القديم من أيام الحروب الأوروبية، يحظى بالقرب هذه الأيام. فهو محافظ، على الطراز القديم، ضعيف - رجل سيظل يتلقى الأوامر ويسعى

إلى أن يبقى حاصلاً على الحظوة. كان يفترض فيه أن يخدم تحت إمرة بيرمولوف، لكن الرجلين كانا طموحين بأكثر مما يسمح لهما بالتوافق.

علم فيليامينوف أن القائد العام قد استقبل باسكيفيتش لوقت قصير وضمن حدود الأدب لدى وصوله قبل يومين. ولكنه ظل ينتظر مقابلة أخرى بعصبية ظاهرة منذ ذلك الوقت. لا بد وأن يسمح له بحضور هذا الاجتماع: وإلا فسيبدو الأمر وكأنه إعلان حرب داخلية، والاستعلاء على القيصر نفسه.

دخل فيليامينوف مركز قيادة الجيش وألقى بنفسه على مقعد مقابل لسيده.

قال بدون رسميات "نهار جميل، أرجو أن أجدك في صحة جيدة، يا أليكسي بيتروفيتش"

"الأمر كذلك، أنت تجدني بصحة جيدة – يا إيفان أليكساندروفيتش" زمجر بيرمولوف، وهو يدحرج كعب سيجار غير مشتعل عبر أسنانه، كان شاحب اللون، ولكنه في مزاج هجومي.

وبكل تأكيد، ما أن جلست حفنة من أكثر قواد الألوية والفرق دقة في المواعيد حول طاولة بيرمولوف الطويلة، حتى أعلن الجنرال باسكيفيتش عن حضوره.

كان رجلاً أبيض الشعر، نحيل البنية، عليه مخايل الغرور وبعينين زرقاوين خارقتين وأنف دقيق. لم يكن لديه شيء من سحر الشخصية التي جعلت من بيرمولوف إنساناً محبوباً ومهاباً بنفس القدر. ظل فيليامينوف يكرهه على الدوام، ولم يجد فيه جديداً يستحق تغيير رأيه فيه.

كان بيرمولوف قد خلع سترته، أشعل سيجاره ودفع بطاقية جمع العلف التي يرتديها قوزاق خط الجبهة ويرتديها هو لمثل هذه المناسبات، إلى الخلف بعيداً عن جبينه. إنه يحرص على الظهور

دائماً بمظهر "الباتيوشكا" – الأب الصغير للجنود. لأن العسكر الروس، من ضباط وجنود يحبون الأشكال الأبوية – وهكذا فعلوا على الدوام. بالكاد رفع عينيه.

تقدم الجنرال المرافق باسكيفيتش من الطاولة (على الأقل، هذا إجراء صحيح، فهو الرجل الثاني في الرتبة من الحاضرين في الغرفة).

ألقى ييرمولوف بنظرة قصيرة على القادم الجديد، لكنه أبقى يديه منشغلتين في ترتيب الأوراق. ثم قال "كيف حالك، يا إيفان فيدوروفيتش".

سقط على الجمع صمت ثقيل. لا ألقاب، لا مخاطبة تشريف أو تكريم: لا شيء سوى أسمه المجرد واسم أبيه. خلع فيليا مينوف سترته وهو يبتسم ابتسامة عريضة ورفع أكمامه، بينما وقف باسكيفيتش ساكناً في مكانه، وقد هزه لوهلة هذا العرض المركب من الوقاحة.

لم يتحرك واحد من الضباط. لم يعثر على مقعد فارغ للجنرال: في نهاية المواجهة مشى نحو الحائط وسحب مقعداً لنفسه نحو الطاولة.

قال ييرمولوف بدقة وهو يحدج فيليامينوف بنظرته "لعلك يا إيفان أليكساندروفيتش تقدم لنا تقريراً عن أنشطة الأمير ماداتوف في إليزابيث بول".

ابتسم فيليامينوف ابتسامة واهنة. لقد قضى باسكيفيتش اياماً على الطريق، مسافراً باتجاه تيفليس، ولم يكن ليعرف أن الأمير الجورجي قد نجح لتوه في طرد الخيالة الفرس واستعاة البلدة (ولو مؤقتاً). لقد نجح عباس ميرزا، لسوء الحظ، في إعادة احتلالها. لكن يؤمل أن المد يتغير...

بينما انهمك فيليامنيوف في شرْح هذه الأحداث، دخل العديد من الضباط من مختلف الرتب العالية إلى الغرفة. شعر فيليامينوف بشيء من الشماتة وهو يرى بشرة باسكيفيتش تزداد شحوباً مع كل دقيقة تمر. كان العديد من الضباط بدون كتافيات مقصبة، لا يحملون السيوف – حتى أن أحد الملازمين كان يرتدي سترة مدنية ملطخة بالطين.

قال ييرمولوف بعصبية "وهكذا. لو أن القيصر نيكولاس أرسل التعزيزات التي أحتاج إليها، لاستطعنا أن نكسر ظهر الفرس الغزاة" وحدج باسكيفيتش بنظرة قاسية، كأنما هو مسؤول شخصياً.

أجاب باسكيفيتش بنبرة جافة "لقد أرسل القيصر أثني عشرة كتيبة. أنت طلبت أربعة وعشرين: من القليل الذي شاهدته هنا من قواتك، فأنت لست بحاجة إلى أعداد أكبر، بل إلى المزيد من الانضباط لأولئك الموجودين لديك. أن بعضهم لا يعرف حتى كيف يشكل مربعاً أو طابوراً...".

"هل الأمر كذلك..... " أبقى ييرمولوف سيطرة مفاجئة على مزاجه السريع الاشتعال. "حسناً، إذن، ربما يهمك أن تنطلق مع هؤلاء التعساء بنفسك نحو إليزابيث بول، يا صديقي، وترى بنفسك ما يمكنك أن تفعله في الميدان...."

ألقى بنظرة عبر الطاولة نحو فيليامينوف. يستطيع الاثنان فيما بينهما أن يكبحا جماح هذا المختال الأحمق. إن الجنود بحاجة إلى إطعام: لا فائدة من جعل الجيش الروسي يقوم بتمرينات استعراضية في الساحات إذا لم يكن لدى جنوده خبز يجعلونه في معدهم. وقد كان الوضع التمويني غاية في العصوبة.

سرعان ما انحل الاجتماع بعد ذلك. كان يفترض في فيليامينوف أن يتوجه نحو الشمال حتى يستمر في جهوده لإخماد جيوب المقاومة المحلية في شمال القفقاس. بات واضحاً أن ييرمولوف سيبقى في تيفليس، فقد منعه وجود باسكيفيتش من

الحركة بسب انعدام الدعم المعنوي من موسكو، والذي يشير إليه وجوده.

تلكأ فيليامينوف، وهو يشعر بالإغراء لأن يقدم بعض الدعم المعنوي لنفسية سيده مرة أخرى قبل المغادرة. قال بعفوية "على الأقل، فقد هدأ الجبليون قليلاً.... ونحن لا نقاتل على جبهتين. يبدو أن حملتنا الأخيرة في بلاد الشيشان قد لقنتهم درساً".

قال ييرمولوف فجأة "نحن هنا صامدون قبالة عباس ميرزا، الأمر لا يشجع قوة أصغر شأناً على التفكير بأنهم سينجحون إذا قاموا بالهجوم علينا. ولكنني لا ولن أخاطر... لا استطيع أن أخرج لمواجهة الفرس بالقوة المطلوبة. فذلك يترك مؤخرتي مكشوفة. تلك العصابات اللعينة".

قال فيليامينوف بهدوء "سأتكفل أنا بذلك، أعتقد أن هؤلاء الجواسيس الذين ليسوا أكثر من عملاء لدى الجانبين يغررون بك. أنا لا أعتقد أن هؤلاء الليسغيين أو الشيشان أو حتى كل هذا الخليط الذي يغلي قادر على وضع الجيش الذي تخشاه في الميدان. إنك تحمّل مثل هذه الإشاعات أكثر مما تستحقه من الجدية".

رفع ييرمولوف عينه الدامعة تجاهه "لقد تعلموا ليس فقط أن يسرقوا مدافعنا، بل تعلموا أيضاً كيف يطلقونها. ألا تعتقد أنهم تعلموا شيئاً من أساليب قتالنا؟ إذا تمكنوا يوماً من تنظيم قوة مشتركة... لا بد وأنك سمعت بذلك الرجل الذي يقوم بتعبئة الليسغين؟ هل هو متعصب ديني؟ إسمه غازي فلان – وهناك آخر- شريكه في الجريمة، شامل،...."

"إنها مجرد فتن. ثرثرة فارغة. إدعاءات وإدعاءات مضادة. كلما اقتربنا من حكم الحراب، كلما بدأ هؤلاء الناس التعساء في السقوط على ركبهم والثرثرة طلباً لكرة نارية كافرة من نوع ما أن تحتوينا. إذا كنت تعتقد أن خانات القرم وبكوات الفرس يشكلون إزعاجاً وأنهم منقسمون على أنفسهم، فإن ذلك لا يعد شيئاً بالمقارنة

مع الفوضى عند الرعاع القفقاسيين. لن يتم توحيدهم مطلقاً. من السهل جداً المبالغة في تقييم نفسية التشيع لدى الجبليين".

رغم حبه الشديد للتنظير، إلا أن فيليامينوف بدأ يشعر بالضيق تدريجياً وبالميل أكثر نحو التعامل مع الحقائق الحالية. وجد في هذه الحالة من التفكير الشارد لدى ييرمولوف مؤشر ضعف – من يدري، هل هي إشارة على التقدم في السن؟ "سوف أعمل على إعطاء جنود باسكيفيتش مجرد كفايتهم من المؤن ولا مزيد. لن أسمح له بأن يلعب لعبة الجنود التنك برجالي المخضرمين. طالما كنت استطيع ذلك".

"إذا قام الشاه بإرسال تعزيزات لدعم عباس ميرزا – "بدأ ييرمولوف يزمجر بنبرات أقوى، لكنه توقف.

ابتسم فيليا مينوف، وهو يتابع خط سير أفكاره.

"ذلك إجراء أفضل، يا صاحب السعادة – دع الجنرال المرافق باسكيفيتش يخرج ليذوق طعم الاصطدام بالخيالة الفرس".

تصافح قائدا الحملات المتمرسان "أتمنى لك دوام الصحة، يا إليكسيس بيتروفيتش" قال فيليا مينوف وهو يؤدي تحية عسكرية نظامية.

رد عليه ييرمولوف "وصحتك أنت، يا إيفان اليكساندروفيتش" لكن عينيه كانتا غائمتين – وقد كدرهما حتماً الصحة المنحرفة وانعدام الثقة بالنفس، في رأي فيليامينوف. إنه بحاجة إلى انتصار.

ارتحل فيليامينوف إلى الشمال، وهو غير مرتاح البال حول الوضع الذي تركه خلفه. أثناء عبوره لمضيق داريل، بدأ ينظر بلهفة إلى الواجب الأسهل نوعاً ما، الواضح الذي يقع أمامه. كانت نيته أن يقوم بإجراء مسح لنتائج أعماله وأعمال ييرمولوف، التدمير الواسع لقطاعات هائلة من غابة جويتن في بلاد الشيشان، وتأسيس شبكة الطرق التي تكفي لعبور وسيطرة الجنود عبر الإقليم المدمر،

بدون أية عواقب عليهما. لم تكن الندوب التي حفروها خلال الأحراش أعرض من أثر طلقة بندقية، على جانبي ممر الجنود. يمكن، حسب رأيه الحفاظ على الاتصالات بسهولة إذا تم بناء الحصون في مواقع أكثر كفاءة، والاستمرار في سياسة التفريق والحكم (فرق تسد) في القفقاس. لقد كان النجاح في متناول اليد. الإخضاع شبه التام لبلاد عبر القفقاس.

كان قد ابتدأ في إجراء المسح عندما وصله الخبر من تيفليس.

"بعد مجرد أسبوعين من وصوله إلى جورجيا، تمكن المرافق الجنرال باسكيفيتش من هزيمة الجيش الفارسي في منطقة اكستافا، على بعد ثمانية عشر ميلاً إلى الغرب من اليزابيث بول. لم يتجاوز عدد القوة الروسية ثمانية آلاف رجل: أما القوة الفارسية فقد تجاوزت الستين ألفاً. بلغت الخسائر الروسية اثني عشر رجلاً فقط".

سيكون التأثير المعنوي لهذا النصر شاملاً. أدرك فيليامينوف ذلك، وكان سعيداً لأجل الإمبراطورية الروسية المقدسة. وأدرك الفرس أن نهاية ثورتهم قد أصبحت وشيكة. سيصاب الثوار في كل مكان بالذعر ويعيدون التفكير في آمالهم التي تخبو.

لقد افتتح القيصر نيكولاس الأول حكمه بعرض مؤثر للقوة.

لكن بالنسبة ليرمولوف، فقد عرف أنه ستكون هناك نتائج أخرى. فقد أصبحت أيام نائب الملك في القفقاس "الشيطان" يرمولوف، معدودة بالتأكيد.

أما بالنسبة له : فعلى أية حال، ظل يعتقد أنه ما زال نافعاً. كتب على الفور إلى القيصر يخبره بذلك. كذلك استمر في كتابة سيرته الذاتية، فربما تصبح ذات فائدة...

* * *

صدقه القيصر نيكولاس. وهكذا وجد فيليامينوف بعد ست سنوات نفسه يقود جيشاً أكبر من الأول، ويجابه غابة جويتن نفسها

وذلك في عام 1832. بينما هو يعاين المنطقة، رأى أن التناقض الأشد مرارة لجهوده السابقة هو منظر البرية الذي ابتلع طرق "الشيطان" يارمول المحدودة ذات الكفاءة العالية. فقد اندفعت: غرقت: غطتها أجمات العليق والأشواك والشجيرات. بدا الوضع وكأن الأرض نفسها قد ضمت قوتها إلى الثوار، حتى تقدم خطاً من المقاومة التي تجدد نفسها في محاربة الغزو الروسي. لم يعد هناك أي أثر للطريق التي كانت في يوم ما عريضة، تقطع خلال الغابة العذراء. سوف يتحتم عليهم البدء من جديد مرة أخرى. لم يشعر فيليا مينوف بثبوط همته. لم يكن من طبيعته أن يخضع لا للوجوم ولا للخفة والسرور. فقد ترك الأحاسيس للأنفس "الحساسة" (مع أنه كان راغباً كلياً في رؤية حكم التاريخ عليهم – وتلك هوايته التي يدرسها على الدوام – على اعتبار أنهم قادة "ملهمون").

تقاعد القائد العام ييرمولوف من القفقاس مجللاً بالعار. حسب رأي فيليامينوف، فقد بلغ به الخطأ أن يتعامل مع الجبليين بجدية مفرطة. بمجرد أن تفعل ذلك، فأنت محكوم عليك بالضياع. من الناحية الأخرى، فقد كانت لدى الجنرال باسكيفيتش ثقة متساوية في قدراته الخاصة واحتقار للعدو أكثر ملاءمة للواقع. فقد تخبط في طريقه نحو العديد من الحملات لبضع سنوات وهو يضخم إنجازاته ويقلل من شأن إخفاقاته. غادر الجنوب وهو يحمل لقب "أمير يريفان"، وقد استولى على لقبه هذا من خانية ثائرة تمكن من إخضاعها وضمها إلى روسيا أثناء حروبه مع الفرس. والواضح أنه كان في طريقه الآن لكي يبدع ويتفوق على نفسه على الجبهة البولندية. وجد فيليامينوف عملاً تحت إمرة القائد العام التالي المعين للقفقاس، البارون روزين. طبيعي أنه سيجد: لم يكن روزين يعرف شيئاً عن الجبال أو سكانها المهلكين. لذلك كان بحاجة ليد يمنى محلية – وعندما قدمت السيرة الذاتية لفيليامينوف، بات مقتنعاً بأن يتركه يدير المنطقة على أساس أنه رجل يعرف شأنه.

أصبح للمتشددين الذين كان في الماضي يتخوف منهم بيرمولوف، أصبح لهم الآن أسم. المريدون. هؤلاء هم المسلمين من فئة السنة (وليسوا شيعة مثل الفارسيين، ولم يقاتلوا إلى جانب ثوار عباس ميرزا ضد الروس لذلك السبب). كان هؤلاء يمثلون أحياءً للأخوّة النقسبندية القديمة. ولديهم قائدان: المعلم – الشيخ، غازي الملا، وشخص آخر، هو مساعده، والذي هو حسب كل التقارير يوحي بالحماس المتزايد بين جلاوزته التابعين: شامل الآفاري.

كان فيليامينوف فوق كل شيء شخصاً يعرف كيف يخلص نفسه. حتى يستطيع أن ينجو، كان يعرف كل الحقائق على الدوام.

عندما سأله البارون روزين بتردد "لماذا لم تخضع منافع التجارة مع روسيا ولا الإقناع شعوب وقبائل الشيشان والداغستان، لأنها كما يبدو نجحت مع بعض العشائر القباردية"، كان فيليامينوف واضحاً.

"ليس لدى الجبليين أي شيء تقريباً ليبيعوه ويكادون لا يمكلون أية نقود". بسخرية.

لا عجب. فبينما زحف الجنود الروس إلى الأمام، وقد شجعتهم انتصاراتهم الأخيرة، فوق المنطقة الصخرية الجرداء، ظل فيليامينوف يعجب من جنون أي رجل يرغب في الموت من أجلها.

ومما كان يثير حنقه، فقد ظل الثوار يثبتون أنه على خطأ عندما تمكنوا من جمع ما يكفي من الرجال لتشكيل جيش من بين الليسغيين والشيشان، لمهاجمة حصن كيزليار على نهر التيريك، وبعد ذلك بوقت قصير، حصن نازران.

أصبح ذلك العمل أقرب إلى فلادي كافكاز مما يحتمل. ولذلك فقد تواجد فيليامينوف وقائده، الجنرال روزين، مرة أخرى، بعد أن عبروا كل بلاد الشيشان بالسيف والنار، وعلى وشك تعقب قادة المريدين إلى قلب معقلهم: جيمري في بلاد الآفار. كان يشاع أنها

بيت طفولة الشيخ شامل هذا: موقع تعلقه الطفولي بغازي الملا، أستاذه، الأكبر منه سناً وتوقيراً، وأخوة بالدم.

أشار فيليامينوف إلى نجاحات جيشه الصيفية. "إخضاع ثمانين قرية، التدمير الشامل لإحدى وستين قرية. الخسائر الروسية: ضابط واحد قتيل، ستة عشر رجلاً قتلى: ثمانية عشر ضابطاً وثلاثة وثلاثين جندياً جرحى...

لقد حل الشتاء مبكراً في هذا الإقليم. وقد هجرت المستوطنات المثيرة للشفقة: فقد انتشرت إشاعة بين الأودية الضيقة لبلاد الآفار بأن الروس، الذين ولغوا بالدم في بلاد الشيشان، قادمون لتنفيذ عملية الإبادة النهائية. بقيت قطوف العنب متدلية وقد تجمدت على الدوالي. وتركت حقول الخضار بلا عناية، وقد اسودت وتعفنت من جراء الصقيع. تحرك جنود فيليامينوف بسرعة كفؤة خارجين من الرقع الفقيرة المزروعة إلى المرتفعات المحيطة. تقع جيمري وسط أحد هذه الممرات الضيقة: كان الممر يضيق أحياناً بما لا يكاد يتسع لمرور رجل واحد، ناهيك عن جواد محمّل. أفضت الخضرة الفقيرة إلى جدران عالية حادة من الصخر الجيري. فوقهما، ظهرت مرتفعات السلسلة القفقاسية الشرقية رمادية على البعد، ملتفعة على الدوام بعاصفة ثلجية عنيفة فوق قممها. ثلاثة عشر ميلاً من الكمائن المتعرجة المخادعة.

هنالك طريق آخر. وهو طريق لا تكاد تسلكه سوى الماعز فوق الجبال، ينزل على جيمري من فوق.

طرح فيليامينوف سؤالاً بلاغياً مازحاً "هل يستطيع كلب أن يمر؟ إذن ذلك يكفي. فحيث يستطيع الكلب أن يمر، كذلك يستطيع الجندي الروسي".

أمر نصف جنوده أن يسلكوا ممر الماعز. ذهب خبراء المتفجرات أولاً ونحتوا ممراً أوسع من الصخر بالفؤوس وحشوات

المتفجرات. اتجهت بقية القوة نحو جيمري من الممرات السفلية، وهي تسير مع المتعرجات بسرعة أقل، عبر ممر إيربيلي.

أخرجت السلالم المصنوعة من الحبال من العربات لتسلق الوجه الصخري الحاد لممر الماعز. ظهر بعض الآفاريين المقعدين للفرجة على هذا الجنون. أمسك هؤلاء الرعاة المسنون بأعنة الجياد لتهدئتها، غير عابئين بالخطر، واكتفوا بالفرجة بينما اندفع الجنود جيئة وذهاباً. حدث أن أمر فيليامينوف بأحدهم بينما كان يقاقئ بلغة مكسورة "أنت تعتقد أنك ستنزل على جيرمي مثل المطر من الغيوم، أيها الجنرال؟"

انتفض أنف فيليا مينوف الرفيع باتجاه مساعده طالباً منه التفسير. عندما تم ترديد الإغاظة، أجاب وكأنه أستاذ مدرسة "ها! هناك أشياء أخرى، مثل الحجارة، مثل الصخور، مثل الانهيارات الثلجية تنزل مندفعة من جانب الجبل. ألا تعرف ذلك أيها الرجل العجوز؟".

كان معظم قطع المدفعية الثقيلة قد ترك في الخلف مع الطابور الثاني. كلها ما عدا المدافع الجبلية وبضعة مدافع هاون خفيفة. كان في ذلك الكفاية.

استغرقت قوات "الجاور" أسبوعاً من الوقت حتى استطاعت أن تتموضع، في منتصف سفح الجبل، وتستعد لشن الهجوم النهائي. اختاروا مواقعهم بشكل ما خارج مرمى بنادق المريدين.

ارتدت بضع طلقات طائشة عن الصخور حول فيليا مينوف أثناء مراقبته بمنظاره المقرب لمهندسي التفجيرات وهم يعملون، سقط ضابط جريحاً إلى جانبه، وهو يمسك بذراعه.

فقال "أيها الساده، أقترح أن تسقطوا في مكان آخر".

كان المريدون قد بنوا سوراً دفاعياً ثلاثياً فوق جيمري على الممر الجبلي. أعمال من الحجر الجاف: دعامات حائطية، اثنين من

"الساكليا" أو غرف الاستطلاع مبنيتان داخل السور الخارجي، متاريس مرتجلة يبلغ ارتفاعها لغاية الصدر تلتمع من خلالها فوهات بنادق المدافعين. وفي الجهة الثانية، هاوية رهيبة.

في الصباح الباكر، بدأ فيليا مينوف هجومه على الأعمال الحجرية إلى اليسار، بنيته الاستيلاء عليها، وهدم الجدار للسماح للجسم الرئيس من الجنود تحت قيادة البارون روزين بالتقدم. فشلت المحاولة الأولى، لكنها نجحت في إبعاد عدد لا بأس به من الثوار الذين يدافعون عن هذا الجناح. خلال هذا الوقت كانت القوة الثانية تأخذ طريقها المتعرج صعوداً من الممر السفلي إلى طريق إيربيلي، مصطحبين معهم المدافع الثقيلة: بحركة كماشة. عندما لم تستطع فصيلة من المريدين الاحتفاظ بهذا الطريق وسمحت للجنود والمدافع بالاختراق باتجاه جيمري، عرف فيليا مينوف أن المد قد انقلب لصالحه.

نجحت محاولته الثانية ضد السور الثلاثي نجاحاً كاملاً. تقدم الجنود الروس إلى الأمام، بشكل متقاطر، حتى بنوا موجة: انهزم المدافعون عن التحصينات وتراجعوا بغير انتظام. لم يكن لديهم مكان يهربون إليه: أما إلى الأمام نحو حراب "الجاور" ورصاصاتهم، أو إلى الجوانب، فوق الصخور الهاوية عند حافتها العالية فوق قرية جيمري. كان الارتفاع عمودياً عالياً فوق صخور أكثر حدة وارتفاعاً. لم يرغب أحد من المريدين في البقاء بين الجدران المحطمة والسماح لنفسهم بأن يؤخذوا أسرى. لذلك اندفعوا نحو الحراب: أو قاتلوا بأيديهم قتال الأيدي حتى دفعوا وألقي بهم من فوق الجرف الصخري. تقطعت الأجساد إلى أشلاء.

لم يكن هناك أكثر من خمسمئة ثائر، استناداً إلى حسابات فيليا مينوف، في مواجهة خمسة آلاف روسي.

اندفعت وحدات روزين، وسيطرت على المعقل. أمر روزين رجاله بنصب الخيام قبل حلول الليل، وهو واثق بصلافة من سقوط

جيمري. إضافة إلى ذلك، لم يبق هناك ثائر حي ليقاتلهم. رفع "الجاور" راياتهم، منتصرين، داخل جدران السور الثلاثي المحطمة لدفاعات غازي الملا.

تأخر فيليامينوف نفسه، مع طاقم من خبراء المتفجرات والفصائل الأخرى، بما فيهم بعض رجال المدفعية، وراء رجال روزين بمسافة كبيرة، وكان لا يزال مشتبكاً. رغم الحقيقة القائلة أن المعركة قد انسابت إلى الأمام وتجاوزتهم بمسافة كبيرة، إلا أن نزلاء "الساكيا" الاثنتين أو كوخي الاستطلاع في السور الخارجي استمروا في إطلاق النار بغزارة وسرعة. لم تحدث خسارة المعركة بالنسبة لهم أي فرق.

طلب فيليامينوف من أحد الكشافة إجابة "كم هو عدد المريدين المنحشرين هناك في رأيك؟"

"أعتقد أنهم حوالي الستين، أيها الجنرال"

"أخلهم من الموقع"

أحالت بضع قذائف من المدفعية كوخي للاستطلاع إلى لهيب، على وشك الانهيار. اندفع حوالي خمسين مريد خارجين، رافعين سيوفهم، وبنادقهم تدوي، يقاتلون حتى الموت. هجم كل رجل منهم إلى الأمام، يركض المدى بكامله، كل واحد منهم أكثر جرأة من سابقه. تمكن كل واحد من أن يقطع رأس أو يخترق حفنة من رجال فيليا مينوف، قبل أن يلقى به إلى الأرض هو الآخر. ماتوا جميعاً تقريباً، وقف رجل منهم في إطار الخشبات المحترقة لأحد الأبواب. نظر فيليا مينوف إلى أعلى المنحنى. كان هذا الرجل ذو قامة عملاقية، وله بنية قوية رغم نحولها. توقف، ليس من باب الخوف، بل وكأنه يعطي الجنود الروس الوقت حتى يصوبوا باتجاهه بإحكام. كان يسعى إلى جذب انتباههم. زمَّ فيليامينوف عينيه: هذه هي المريدية: هنا تتجلى روح الثورة، متمثلة في شخص هذا الشيطان المجنون الواحد. صوب جنوده بنادقهم باتجاهه.

ألقى المريد بنفسه بقفزة عملاقة في الهواء مقنطراً من فوق رؤوس الصف الذي أمامه. ملوحاً بسيفه بيده اليسرى، استطاع أن يجندل ثلاثة رجال ولكن الرابع طعنه بالحربة في صدره. لم يتباطأ الرجل. بدت أعماله وكأنها غير إنسانية، وحتى شيطانية: أمسك المريد بالحربة بقوة بيده اليمنى. بحيث سحب الجندي إلى الأمام حتى يتمكن من ذبحه بتلويحة واحدة من سيفه. ثم أمسك بالحربة بيديه الاثنتين وسحبها من داخل صدره وألقى بها جانباً. استجمع قواه مرة أخرى وقفز من فوق السور المحطم للمعقل، واختفى في ظلام الليل القادم.

أصيب فيليامينوف بصدمة شديدة. فهذه المرتفعات الجبلية تربي مخلوقات وحشية ذات قوى خارقة للطبيعة.

أصيب جنوده بالصعقة. فقد غلف التكذيب إحساسهم بالنصر. بدأوا يطلقون النار بتصميم متجدد ذات اليمين وذات اليسار، لكن لم يكن قد بقي أحد حياً ليقتلوه.

أصدر فيليامينوف الأمر باقتضاب وحزم "أوقفوا إطلاق النار. سوف ننضم إلى القوة الرئيسة ونخيم هنا لهذه الليلة. لقد أنجزت المهمة".

تبين أن النوم سهل: ولكن الراحة لم تكن كذلك. رقدت أجسام الرجال ساكنة لكن عقولهم تجولت بين الأحلام والكوابيس.

انفجرت صرخة عويل مبكرة، قبل الفجر. فقد بدأت مجموعة مشردة من الرجال المسنين في تلمس طريقها من خلال أجساد المريدين، الملقاة عبر سلاسل الجبال فوق جيمري. أمام باب الساكليا مباشرة، توقف اثنان أو ثلاثة منهم ثم سقطوا على ركبهم، يضربون الأرض برؤوسهم ويصلون بدون توقف.

استدعت الضوضاء انتباه فيليامينوف، فمشى المسافة القصيرة من مبيته لمعرفة سبب الضجة. من بين الأجساد الملقاة على الأرض كانت هناك عينة متميزة، هيئة جميلة لرجل رغم أنها

مغطاة بالدم المتجمد، المائل إلى اللون الأرجواني. لقد سقط المريد على ركبتيه عند وفاته، واتخذ الوضع المسلم في الصلاة (السجود)، ولسبب غير معروف بقي على تلك الوضعية حتى حل التخشب الموتي بجسده: كان يمسك بلحيته المضمخة بالدم بإحدى يديه، بينما الأخرى مرفوعة، وأصبع فيها يشير نحو السماء.

أدرك فيليامينوف "أقسم بالله، هذا هو زعيم المريدين، إنه غازي الملا بشخصه". أحسَّ وكأن صدره سينفجر من شدة إحساسه بالارتياح وعظم الإنجاز.

فإن موت الإمام، قائد الأخوّة، الطريقة، هو نصر مؤثر بنفس تأثير انتزاع قلب من جسم يتنفس! قال بجلافة "أخبروا البارون روزين، أتصور أنه سيدخل إلى جيمري بدون أن يضطر إلى إطلاق رصاصة واحدة".

بات الجنرال فيليا مينوف ينتظر بلهفة أن يبدأ في كتابة التقارير، وفي مذكراته أيضاً، أن حركة المريدين قد انتهت، وأن الداغستان قد أخضعت لحكم القيصر إلى الأبد.

***

ساعد أصلان جيراي شقيق الإمام بالدم، كان قد التجأ إلى الأحراش الواقعة أسفل جيمري، بعد أن حوصر ومعه حمزاد بيك، المريد المساعد الذي كان يفترض فيه الاحتفاظ بموقعه على ممر إيربيلي، ضد الطابور الروسي الثاني الذي يحتوي على المدافع الثقيلة. مع هبوط الليل واندفاع ضباب كثيف نزولاً من الجبال، تمكنت حفنة من المريدين من الإفلات. كان أصلان جيراي واحداً من هؤلاء، إلا أنه سقط، ولوى كاحله، وغاب عن الوعي لوهلة من شدة الألم. استفاق في وقت لاحق ليجد نفسه محاطاً بالهدوء، والضباب المكثف، وصوت شخص يسحب نفسه بتثاقل في العتمة. كان ذلك الراعيان المسنان اللذين وقفا يتفرجان بينما كان الجيش الروسي يسعى جاهداً لتسلق ممر الماعز نحو جيمري. تساعد

العجوزان في حمل الرجل الموشك على الموت الشيخ شامل، نصف الطريق، وفي سحبه النصف الآخر.

تعرف أصلان جيراي على شامل من أيام "الحج". كل ما استطاع عمله وقد أخرسه الألم، هو التناوب مع الرجلين العجوزين على حمل ثقل المرشد، قائده.

لأن أصلان جيراي عرف بدون أدنى شك أن هذا هو الرجل الذي سيهب حياته لأجله. لقد أدار حمزاد بيك ظهره وهرب: ويعزى سبب سقوط جيمري بشكل كبير إلى جبنه. بمشيئة الله، وبطريقة ما، سوف ينجو شامل من الموت ليعود إلى قيادة المريدين نحو المجد ضد هؤلاء الأوغاد ومدافعهم، وأطماعهم التوسعية في المناطق، والغياب الكلي للاهتمام بمصائر الأمم الأخرى.

كان شامل مصاباً إصابات بليغة. تكسر اثنان أو ثلاثة من أضلاعه: كان صدره ينتفخ وقد حال لونه إلى الأرجواني، والدم الأحمر الفاقع ينبثق من وسط صدره، مع كل خطوة يخطوها – فقد اخترقت إحدى رئتيه طعنة من سيف أو من حربة.

صار يتمتم "أونتسكول".

قال أصلان جيراي "سنوصلك إلى هناك، أيها السيد" وقبل خدي شامل بحماس، في محاولة لتدفئته برغبته الشخصية في نجاته.

تكوموا تحت بضعة شجيرات عندما وصلت آلام شامل إلى حد لا يحتمل، وهو يكتم تأوهاته مخافة أن تعثر عليهم دورية روسية. كان تقدمهم بطيئاً. بقي أصلان قريباً من هذا الرجل في دوامة خانقة من الحمى والخوف، فهو يعتبره ينبوع الحياة: الرجل الذي أختير من قبل الله، وأختير من قبل الملا غازي، شيخه، صديق طفولته سابقاً، ليكون خليفته.

استغرقهم الوصول إلى المخبأ الجبلي في أونتسكول ثلاثة أيام، وهي لا تزيد عن مجموعة تعيسة من الساكليات، أكواخ الرعاة الجبليين. عرف المسنون شامل من أيام كان صبياً يتجول في التلال بحرية. لم يعرف أصلان كيف فعلا ذلك، لكن بينما كان هو أيضاً نائماً ليتهرب من آلام جراحه، أرسل الرجلان خبراً إلى فاطمة زوجة شامل، حتى تحضر لتمريضه، وإلى أبيه، عبد العزيز، ليداوي جراحه. كان عبد العزيز جراحاً ذا مهارة عظيمة: ملماً بكل أدوية التلال وعالج صهره بالأعشاب والحجامة ومراهم شمع عسل النحل. بقيت حياة شامل معلقة في الميزان لعدة أسابيع – خمسة وعشرين يوماً على حسابات أصلان.

في أحد الأيام، عندما أصبح واضحاً أن شامل قد بدأ يتعافى، جاءت شقيقته للزيارة– ولتخبرهم بأن جيمري قد سقطت فعلاً بيد "الجاور"، وأن حمزاد بيك قد تم الاعتراف به على أنه الإمام، المرشد، الرجل الذي سيقود المريدين.

قالت "أنظر إلى ما أحضرته لك يا أخي" بينما عيناها تسحان الدموع على مرأى هذا العملاق المطروح أرضاً، رجلاً محطماً. بسطت أمامه على أرضية الكوخ الخشنة بقايا مقتنيات العائلة الثمينة – كل ما استطاعت أن تنقذه من القرية المحاصرة، قبل أن يتم طردها منها من قبل الرجال، لضمان سلامة أطفالهم ونسائهم.

غطى شامل عينيه، انفجر سعال مع الفقاعات من صدره. صار يبصق الدم – أصيب وجه شقيقته بالهلع.

جاء صوته متحشرجاً "إلى الخارج، إلى الخارج، اخرجوا".

جمعت القلائد، الأساور، وحلى الرأس، لفتها كلها داخل قطعة قماش وهربت من الكوخ.

عرف أصلان السبب. فقد علمته أمه كل الخرافات القديمة. والتي يقول بعضها أن الجواهر النفيسة النادرة تمارس تأثيرات

شريرة على الناس المرضى: لأن الأحجار الكريمة مثل الجمشت والياقوت والأوبال، تمتلك قوى خاصة بها.

همس للمرأة الحزينة "بيعيها، سيحتاج شامل الداغستاني إلى خزائن ملك قبل أن ينهي نضاله".

***

كان إمام، نجل كازبك يأخذ قسطاً مستحقاً من الراحة. جلس يصطاد السمك على ضفاف التيريك، تحت ظلال أشجار الصفصاف الباسقة. إلى جانبه جلس ابن عمه، حميد، أكبر أبناء أنور، صبي في الثانية عشرة صبيح الوجه والطباع، كان قد عاد لتوه من التدريب والتعليم لدى "الأتالق".

طفق الصبي يسأل "هيا أكمل، ماذا حصل بعد ذلك؟"

"حسب ما تقول الروايات، لقد اختفى ببساطة، يبدو أن أحداً لا يعرف إلى أين ذهب، لكنني واثق من أنه لم يمت. حتى جدي لا يعتقد ذلك أيضاً".

"لكن "الجاور" قد أتموا اكتساحهم الآن، أليس كذلك؟"

"لا أدري. لا أحد يحب أن يكثر في الحديث عما يدور حالياً".

لقد أخبر حميد بدوره قصصاً عن المريدين المشهورين من قبل "الأتالق". حدّق عبر الامتداد الواسع لنهر التيريك وتنهد "تخيل. لا أعتقد أنني أستطيع أن أقفز إلى ذلك الارتفاع. هل تستطيع أنت؟"

ضحك إمام وفرك رأس الصبي. "الأمر يعتمد على الظرف... إذا كنت محاصراً باثني عشر قوزاقياً يحاولون إطلاق النار عليّ، فربما أستطيع!".

قفز حميد واقفاً على رجليه وحاول أن يؤدي قفزة في الهواء من وضعية الوقوف، وهو يهدف نحو رأس إمام. لكن الشاب، وهو مراهق ضخم التكوين، لم يهتم لهذه الحركة، كأنما هو جبل البروز

العظيم. بإمكان حميد أن يقفز ويرفس إلى ما يصل لخصر إمام. كان حميد معجباً أشد الإعجاب بابن عمه الضخم، ويعتبره المثل الأعلى، لذلك لم يكن يخشى أن يستودعه مكنونات قلبه. قلة من الرجال في ضخامة وشجاعة إمام هم الذين لم يورثوا حميد انطباعاً بأنه أقل منهم شأناً: إلا أن إمام لم يفعل ذلك مطلقاً.

"لا تقلق يا حميد. المقاتل القباردي الجيد لا يبتعد عن جواده مطلقاً.... نحن مع شديد الأسف، لسنا رجال جبال".

"لماذا تقول ذلك، يا ولدي؟"

عندما نظر الصبيان إلى أعلى، شاهدا كازبك يتمشى نزولاً باتجاه مكان جلوسهما عند طرف الماء.

"يا تحمادا، لقد كنت لتوي أخبر حميد عن "أسد داغستان"... أنت تعرف، القصة التي تدور حول كيفية هروب شامل من جيمري، آخر الباقين على قيد الحياة".

تجهم وجه كازبك. حتى هنا عند حافة الماء، الصراع حاضر على الدوام. "آه، تلك القصة" قال بانشراح، مستخفاً بالقصة.

"يقول جدي أنه ما يزال حياً. هل تعتقد ذلك أنت أيضاً، يا تحمادا؟" نظر حميد إلى الأعلى، بوجهه النضر، المتلهف.

"أشك في ذلك. وأشك في أن القصة صحيحة من أساسها" ظهر البؤس على وجهي الشابين. لم يشأ كازبك أن يسبب لهما اليأس "هات، أعطني سنارتك، وسوف ألقيها من أجلك يا حميد. اجلس إلى جانبي الآن".

جلس حميد بخجل إلى جانب عمه، وقد سامحه.

قال كازبك بلطف "أعتقد أن لدى كليكما واجبات تؤدونها أفضل من أن تهيجا نفسيكما بالإشاعات، لا بد وأنكما تعرفان أن الرجل الحكيم لا يسمح لنفسه أن يتلهى بالكسل، إن ذلك يضعفه".

كان كازبك رجلاً صبوراً، شخصاً تعلم أن يضبط أعصابه ويؤدي واجباته بالطريقة الصعبة.

أدرك فجأة وهو يتحدث كيف أصبح يشبه اباه إلى درجة مدهشة. أصبح بإمكانه أن يسمع تلك اللهجة المؤنبة الباردة التي يستخدمها البالغون.

"البالغ؟" هل أصبح على تلك الدرجة من الكبر منذ الآن؟ أدرك كازبك بحزن أن القدر لم يختبره كما توقع أن يختبر – لقد خاض أبوه غمار المغامرات.. فقد الهم الشيخ منصور أحمد العجوز، قاده إلى المعركة، إلى "الغزوات" المجيدة، الغارة على كيزليار.

لقد أغار شامل وغازي الملا على كيزليار بدورهما. ما من شك في أن أصلان جيراي كان أحد مقاتليه الأكثر تميزاً.

لقد شهد العجوز أحمد بعض المعارك الرائعة، بينما عاش أولاده حياة حذرة، مزدهرة. لماذا لم يكن يشعر بالسعادة؟ إنه يكره سفك الدماء. حدق في الولدين اللذين لم يعرفا أياً من الويلات التي يمكن أن تنجم عن مقاومة "الجاور". يفترض فيه أن يمتلئ بإحساس عظيم من الإنجاز، ولكنه حرم من ذلك الإحساس بطريقة ما.

فجأة، وبلا مقدمات، رأى كازبك طريقة واحدة لتغيير كل هذه الأحاسيس. لقد كبر الأولاد بما يكفي: والمزرعة مزدهرة. سوف يسافر – سيفعل ما اقترحه عليه أصلان جيراي – سيذهب للدراسة.

لقد حان الوقت بالنسبة له لكي يتصارع مع هذه القضايا: الحرب، القدر، الواجب. يجب أن يتوصل إلى نوع من السلام الداخلي في حياته.

يجب أن يتقبل وضعه: إن القباردييين قريبون من الروس بأكثر مما يجعل أية مقاومة ممكنة. وهو يعرف ذلك.

سوف يؤدي واجباته الروحية، ويقوم برحلة الحج إلى مكة المكرمة.

من أجل خاطر أبيه، سوف يخبر أنور أنه توجد أفراس رائعة يمكن شراؤها من البلاد العربية. سوف يرتاح الرجل المسن لفكرة وجود فائدة لمزرعة الاستيلاء حتى أثناء غيابه. ذلك سيمنحه القدرة على الاستمرار...

إضافة إلى ذلك، فإن العجوز أحمد سيرى في هذه الحجة الحدث المتوج لحياته كنبيل قباردي. أن يكون لديه ابن أتم "الحج".... ليس هناك من شرف أعظم من ذلك لأية عائلة.

قال كازبك "هل أطلعكما على سر، أيها الولدان؟" وقد أحسن فجأة بمرح وتصميم – واختلطت بصوته رنة دافئة.

إلتمعت عينا إمام الرماديتان الجميلتان بلهفة. فقد كان أبوه كياناً غامضاً بالنسبة له: كان يشعر بألفة أكثر بكثير نحو أحمد العجوز.

"إن شامل حي. لقد سمعت من مصدر موثوق أنه سيصبح الإمام التالي للأخوَّة المريدية، "الطريقة". لا يهم أن الروس قد عينوا خاناً وضيعاً في بلاد الآفار: إنه أضحوكة. سرعان ما سيصبح القائد الحقيقي هو شامل. وبعدها سوف تسمعون بعض القصص. أنا أعدكم بهذا. سوف يسيطر على المنطقة من دربند إلى مضيق داريل. إنه في واقع الأمر يحظى بدعم الشيشان منذ الآن... إنه يبني سلطة قوية. وذلك هو ما يحتاجون إليه"...

لم يستطع إمام أن يفهم السبب وراء كلمات أبيه الشرسة والفخورة.

***

الفصل الحادي عشر

ألقى إمام نظرة أخيرة حول الإسطبلات قبل أن ينضم إلى العائلة في ميدان قرية الحابسا. كل شيء منظم بشكل دقيق: الخيول منظفة إلى حد الكمال، ومهاجعها مكنَّسة نظيفة، العدة ملمعة ومعلقة بترتيب واضح. في الخارج داخل الحظيرة كان خمسة عشر فلواً صغير السن يلعبون ويتقافزون تحت أشعة الشمس: كان قد أشرف مع عمه أنور على ولادتهم بأمان في وقت باكر من الربيع. تأمل إمام أن يكون أباه سعيداً حين يرى أن مزرعة الاستيلاد قد أديرت بكفاءة في غيابه. فقد تغيب أكثر من سنة: إن غياب الأب عندما يكون الشخص في الثامنة عشرة يشكل فرقاً حيوياً، فكر إمام. شعر بفخر عظيم من استقلاله وأدرك أنه قد بلغ سن النضوج بسرعة، لأنه ترك حتى يتدبر أمره بنفسه لفترة أطول. لكن الاختبار الحقيقي لرجولته سيكون في طريقه رد فعل كازبك تجاهه. لم يتوقع إمام أن تتم معاملته كند – لأن أباه يستحق كل الاحترام على أساس أنه وجيه كبير السن، والآن، هو "حاج". لكن الرحلة إلى مكة كانت تؤدى على الدوام من قبل رجل مستعد لتسليم أعنة مشاريع حياته.. وعلى اعتباره ابناً ووريثاً، فقد كان إمام يرغب أكثر من أي شيء آخر في أن يجده أبوه لائقاً لتولي زمام ميراثه.

مر إمام أثناء توجهه إلى ميدان القرية، من أمام جناح النساء. تذكر كيف كانت العزبة تبدو واسعة وهائلة بالنسبة إليه أثناء طفولته، عالم بالكاد يستطيع أن يعبره من طرف إلى الآخر. بدت أسيجة الحدود وكأنها أطراف الكون... قد يكون الكبر قلل من حجم المكان فعلياً، ولكن بالمقابل علمه كم كانت المزرعة إنجازاً كبيراً. لقد وصل جده إلى هنا كغريب، وعمل لسنوات طويلة حتى يبني

المكان من لا شيء تقريباً. في أحد الأيام لم يكن لدى أحمد الكوباني سوى بيت عائلة واحد، مسكنين صغيرين لخدمه، ومخزن أعلاف قديم. أما الآن، فهناك منزل رائع مبني من الحجر والخشب لعائلة كازبك، بيت آخر مشرف على نهر التيريك لأحمد والجدة تسيما، بالإضافة إلى العديد من البيوت الخارجية ومباني الإسطبلات. كان لأنور، عم إمام، منزله الخاص، الممتلئ حتى حوافه بزوجته اللطيفة النشطية زكية وعائلة صاخبة من خمسة أفراد.

أما نورسان... فقد ظلت قبل رحيل كازبك بسنوات، تجد مكان إقامة كازبك صعباً عليها أن تشغله. لذلك كانت تبقى وحدها فترات طويلة، تدير شؤون الخدم، وتشعر دوماً بالتوتر العصبي. أشغل كازبك نفسه بالسفر لبيع خيول المزرعة أو التعامل مع شؤون تجارية أخرى متعلقة بالمزرعة. كانت نورسان تحب كازبك بخصوصية وعمق إلى درجة أنها تشعر بأن الوقت الذي تقضيه بعيدة عنه هو وقت ميت: لم يكن لديها أي دفاع عن مشاعرها تجاهه إلا السيطرة الاستحواذية الغيورة على ولدها. بمجرد أن أصبح إمام في سن تسمح له بأن يرسل إلى "أتالق" – لم يعد الشقاق بين والديه سراً مكتوماً. لم تنجب نورسان إلاّ طفلاً واحداً: إمام.

لم تحتمل فكرة غيابه عن أنظارها. أراد كازبك أن ينال إمام حريته ويصبح مقاتلاً حسب التقاليد القباردية. تجادل مع نورسان مطولاً حول هذه القضية. وعانت صحياً نتيجة هذا الوضع، حتى تدخل الجد أحمد في نهاية المطاف.

إذ أعلن قائلاً "سيأتي الصبي ويعيش معي، لطالما عارضت تسيما فكرة ابتعاد أولادها عنها في هذه المرحلة، ولكنها أنجبت الكثير، لذلك أصريت. ليس الوضع نفسه بالنسبة لنورسان..."

كان كازبك في مزاج مشاكس، فقال بمرارة "كلا، ليس نفسه، لكن ذلك ليس سبباً لأن لا يحظى ولدي بالتعليم الجيد. سوف يظل يفتقد إلى "النيمس" بدون إخفاق من طرفه".

وهذا كله سبب إضافي للسماح له بالمجيء لعندي. أستطيع أن أعلمه أكثر من أي "أتالق" قال أحمد بصدق وافتخار "وعلى كل حال، فإن لدى الصبي ميلاً طبيعياً للتعامل مع الخيل".

لا يزال إمام يشعر بفورة الاعتزاز بالنفس التي شعر بها حينما حمله جده أحمد عالياً فوق كتفيه وأخذه إلى البيت القائم قرب التيريك. منذ تلك اللحظة، انغمس في شغفه بالخيل حتى المنتهى، ولم يتغير قربه من جده وجدته منذ تلك اللحظة.

عرف أن أبوه كازبك قد رغب في المزيد من الأطفال لكنه لم يرزق بأي منهم. كان سيحب أن يكون له إخوة وأخوات، لكنه كان يحب الجياد بما يكفي لإبقائه سعيداً. اتسعت الهوة بين الأبوين في غياب إمام. بقدر ما كان كازبك يحب نورسان، إلا أن خيبة الأمل ظلت تقرض أعصابه حتى قضت تدريجياً على العلاقة الحميمة في حياتهما. عندما عاد إمام إلى بيته وقد بلغ مرحلة الشباب ليأخذ مكانه إلى جانب أبيه، كانت أمه تقضي معظم وقتها في عزلتها بجناحها ونادراً ما كانت تغامر بالخروج حتى هذا اليوم.

إتكأ إمام على جدار بيت نورسان، وهو يمني النفس بأن تغير رأيها وتحضر احتفال الرجوع إلى البيت. كانت المصاريع مغلقة بإحكام كالعادة، الحديقة الصغيرة معتنى بها حد الكمال وقد أشيع حول البيت جو من التزمت الصارم. عدل إمام سترته التشيركيسكا بغياب ذهن تام. وهو يأمل في أن يحظى بموافقة أمه...

قرع الباب بخفة وعلم من هسهسة ثوب داخل الغرفة المظللة التي تنعم بالبرودة أن الخادمة قد ذهبت لاستدعاء أمه. ظهرت نورسان بعد بضع لحظات، لكنها أبقت نفسها بعيدة عن الشمس التي استحم فيا المدخل. ابتسم إمام

"هل أستطيع الدخول يا أمي؟"

"طبعاً يا إمام. قبلني.... هل أنت سعيد؟"

"جداً. آه، نعم، جداً...".

لم يفعل تقدم العمر شيئاً لإنقاص جمال نورسان المتميز. بل على العكس فإن عزلتها التي فرضتها على نفسها قد عززت من رقي تعابيرها ورقة جسمها. كانت نحيلة للغاية تحت خمارها الأبيض الموسلين الراقي الذي يغطي جسمها بالكامل، ذات بشرة باهتة، وعليها مخايل الزهد والتنسك. لقد خلقت بنفسها وجوداً محمياً لا يخترقه سوى النزر اليسير من أخبار الدنيا التي يمكن أن تزعجها. رأت فيها بعض نساء الحابسا إمرأة أنانية لكن كازبك وإمام يعرفان أن سعادة نورسان تكمن في إبقائها على هذا النمط المتواضع والمنسحب من الحياة.

"أنا طبعاً اشعر بالسعادة والإثارة يا أمي... ألا تعتقدين أنه سيكون أمراً لطيفاً لو أنك تمشين معي المسافة القصيرة نحو البوابة؟ سيشعر أبي بتشريف كبير إذا كنت موجودة للترحيب بعودته إلى البيت".

هزت نورسان رأسها بالرفض "الأفضل أن يرحب به سكان القرية أولاً، أن ترقصوا وتغنوا وتستمتعوا كلكم بدون أن تقلقوا لأمري. يعرف والدك إنني هنا أنتظره، وسوف يجيئ في الوقت المناسب ليصالحني.. أنت تعرف كم صليت من أجل عودته سالماً. إنني في منتهى السعادة لمجرد علمي بأنه قد عاد بدون أن يصاب بأي أذى".

عرف إمام أن الجدال لا يفيد "كما تقولين يا أمي".

"إنك تبدو في غاية الوسامة اليوم يا إمام. يا لها من سترة رائعة، هل صنعتها لك تسيما؟"

"طبعاً لا يا أمي – أنت تعلمين تمام العلم أنك أعطيتني إياها في الخريف الماضي!" وجد إمام الوضع مضحكاً: كان موضوع المنافسة بين جدته لأبيه وأمه قصة دائمية في حياته. لكن غروره الشخصي أملى عليه في هذا اليوم أن يختار عمل أمه اليدوي

الممتاز، رداء تشيركيسكا مطرزة أطرافه بتخاريم من الفضة. لقد كانت نورسان مغرورة بدورها، ولكن فيما يتعلق ببراعتها الفنية فقط. ما كان إمام ليجرؤ على تذكيرها بهذا الضعف. بدلاً من ذلك، طبع على خدها قبلة كبيرة. ففي نهاية المطاف، هو الرابح... "هيا انطلق. سيكون هناك العديد من الاحتفالات هذا اليوم يا إمام، وسوف تلقي العديد من الفتيات بنظراتهن إليك، فأنت في غاية الوسامة في هذا الرداء!".

"أمي! وكأنني وغد بشع بقية الوقت!"

ضحكت نورسان في سعادة وانسحبت من ذراعي ابنها "هيا اذهب، لا تتأخر" نادت عليه وهي تتراجع بسرعة إلى برودة غرفتها الداخلية. تباطأ إمام وهو يستمع إلى آخر صوت من خفها الصغير المصنوع من جلد الغزال. وهو يطرق الحصائر المصنوعة من القش. كانت نورسان أحياناً تغادره تاركة لديه انطباعاً بأنها ليست حقيقية تماماً: حضور سحري يكاد يتهرب منه ومن كل الناس معه. وصل إمام إلى ساحة القرية في الوقت المناسب تماماً ليرى فارساً يرمي بنفسه إلى وضعية الوقوف التام أمام الحشد المنتظر. كان ذلك هو روسلان، أحد أصغر أبناء أنور. "إمام! لقد رأيتهم – رأيت أباك على الطريق إلى هنا – لقد تحدثت إليه – أتوقع أن يصل إلى هنا في أقل من ساعة، معه العديد من الجياد البيضاء – أنا واثق أنك لم تشاهد في مثل جمال تلك الجياد الصغيرة على الإطلاق!"

انطلق روسلان مبتعداً ليخبر أباه. قفل إمام بدوره عائداً، ليحيط جده علماً بأنه لا يزال هناك متسع من الوقت حتى يستعد. لكي لا يستعجل: كبار السن يستعجلون دوماً...

لكن أحمد كان مستلقياً فوق سريره، تملأه القناعة. كان سعيداً بالصمت: كان العمل في هذا الصباح عند أدنى مستوياته لأن

الجميع يستعدون لعودة كازبك إلى البيت. فلا صرخات من "البشله"، ولا ضحكات مجلجلة من الصبية.....

دخل إمام في هدوء. "دادا، إن والدي يقترب الآن – شاهده روسلان على بعد مجرد ميلين من هنا"

رفع أحمد نفسه بجهد واضح "رائع، رائع، ذلك أمر جيد. سوف أنضم إليكم حالاً. أبعث إلي بجدتك لتساعدني على ارتداء ملابسي – انتظر– دعني أنظر إليك!".

أحمر وجه إمام خجلاً وحاول أن يقف وقفة رجل. لقد كان "ورق" قباردياً في كل بوصة من كيانه، منتصب الظهر، طويل القامة، أزرق العينين، مع كتلة كثيفة من الشعر الأسود الفاحم. هز أحمد رأسه بالموافقة والرضى.

"إنك تجعل جدك العجوز يشعر بالفخر"

اندفعت تسيما داخلة واحتضنت إمام "لقد سمعت، لقد سمعت..."

"أنت قومي بمساعدة دادا، يا جدتي، وسأذهب أنا إلى البوابة "انطلق إمام مسرعاً، وهو يلوح لتسيما بقبلة.

حملت سترة مجهزة سابقاً لزوجها. زمجر أحمد قليلاً وهو يلوح بأعضائه التي يصدر عنها الصرير نازلاً عن السرير.

هتفت تسيما "إبننا – "حجي"!، هل يمكنك أن تتخيل!" هزت السترة بقوة ثم رفعتها لأحمد "ولكن كان يجب أن تذهب معه. كنت تمكنت من ذلك. أنت ما زلت صغيراً وقوياً".

عندما وقف أحمد ونظر في عيني تسيما الرماديتين الجميلتين لمعت في ذاكرته لحظة لقائهما. أرخت تسيما ياقته بنفس تلك النعومة، تماماً كما فعلت عندما وقع في حبها قبل خمسين عاماً. لم تتناقص مشاعره تجاهها: لقد حظي بالبركة.

"ربما تتمنين أن أكون قوياً وصغير السن يا امرأة، لكنني عجوز" قال بخشونة "وكذلك أنت! رحلة مثل تلك كانت حرية بأن تقتلني. إضافة إلى ذلك، انظري كم من الوقت تغيب... أكثر من سنة".

قالت تسيما بهدوء "كانت لديه أسبابه... لم تكن حياة كازبك سهلة وهناك العديد من الأفعال التي توجب عليه التوبة عنها، الكثير من المرارة التي يجب التخلص منها في هذه الرحلة للحج حتى يمكنه أن يتصالح مع حياته الماضية. سيكون غريباً أن نشاهد كازبك الرجل المغامر يصلح نفسه ليصبح رجلاً روحانياً".

"إنني أعجب مما إذا كان قد أحضر معه أفراساً عربية كما اتفقنا...".

لاحظت تسيما أن أحمد كعادته يحصر اهتمامه بالجانب العملي من الحياة. فأنبته بصراحة.

"أنت والخيل! أقسم بأن كل ما تفكر فيه هو أن الرحلة إلى مكة كانت لذلك الغرض!"

رفعت تسيما ذراعي أحمد إلى داخل السترة بقوة "استدر نحوي. دعني أصلح هذا. لا يهمني ما أحضر معه. لقد عاد، وهذا هو الشيء الوحيد المهم".

ابتسم أحمد بينما كانت تسيما تتحرك بسرعة إلى صندوق ملابسه لتخرج أسلحته، وقد تم تلميعها حتى تلألأت خصيصاً لهذه المناسبة. بقيت تسيما في نحافة ونشاط أية امرأة في مثل نصف عمرها، ولم يفقد لسانها أياً من سلاطته أيضاً. أية معجزة أنجزها الحق سبحانه وتعالى، حتى ينعم على أحمد الكوباني ليس فقط بطول العمر بل أيضاً بتحقيق أحلامه.

في هذه الأثناء اجتمع القرويون في الساحة أمام منزل أمير الحابسا وأخذوا يحدقون في البعيد، يشيرون أولاً إلى لمحة أولى من

مرافقي "الحجي" بدأت تظهر لهم. ركب كازبك في المقدمة، رجل قوي الجسم في الخمسين من عمره، بلحية رمادية بلون الحديد وقامة منتصبة. كان يمتطي حصاناً عربياً جميلاً ويمسك بعنان الفرس القائدة لستة أفراس عربية بيضاء. مربوطة إلى بعضها في صف واحد بحيث ظهرت وكأنها أرواح نادرة أخذت أسيرة، كانت الأفراس منظراً يبهر الأنفاس. كن ينتقين طريقهن برشاقة عبر السهل الأخضر المرتوي وهن يلقين بأعرافهن كالريش في الهواء. ركب خلف الأفراس سائس كازبك التركي، الذي ظل يهش كل هنيهة على بغلين محملين بالكثير من اللوازم، يعدوان خبباً إلى جانبه بقدر أقل من الرشاقة.

تقدم أحمد نحو الساحة، وهو يتكئ بشدة على عصاه ويمسك بكتف إمام على جانبه الأيمن.

لكن الحقيقة هي أن قبضته المتوترة لم تكن نتيجة عدم توازنه بقدر ما هي للسيطرة على الفرح العارم والفخر الذي يتنامى داخل صدره لمرأى ولده البكر، متدثراً بالأبيض ومصحوباً بكل هذه الأفراس المذهلة. أصبح تحقيق هذا الكم من آماله في صورة واحدة أكثر من أن يحتمله. سلّم كازبك عنان قيادة الأفراس إلى سائسه في استجابة ظاهرية لمشاعر أبيه القوية، وطرد حصانه إلى الإمام ليقابل والده. قفز نازلاً عن سرجه وهم بتقبيل يد أبيه لكن أحمد نسي تحفظه القباردي لمرة وحيدة وقام بكل بساطة بإحاطة ابنه بذراعيه أمام الجميع.

"مرحباً بعودتك يا ولدي، أهلاً بك، يا "حجي" كازبك... لقد عدت أخيراً".

عانق كازبك أباه بصمت، وقد غلبه التأثر بهذا الإظهار المكشوف للمحبة. أن يكون انتظر كل هذا الزمن، من أجل هذا.....

أشار أحمد نحو الحشد، وهو يسعل حتى يزيل الحشرجة التي تجمعت في حلقه. "لقد أصر أصدقاؤنا على الترحيب بك بهذه الطريقة، يا ولدي...".

عثر كازبك على صوته بصعوبة "أشكرك يا أبي، على تشريفك لي... وكم أنا مرتاح وسعيد لرؤيتك بهذه الصحة الجيدة!"

وقف إمام منتظراً في الخلف أثناء حدوث هذا اللقاء. لم يكن هو الآخر يصدق عينيه عندما عانق جده كازبك. خلال سنين تدريبه كلها، لم يظهر أحمد هذه المحبة البدنية لحفيده: شعر إمام بالغيرة لثانية قصيرة. لكن ذلك الشعور انقضى بسرعة، لأن نظرة كازبك الفولاذية مسحت الحشد باحثة حتى عثر على ولده الوحيد. تمشى إلى الأمام: لكن تصادف أن تيمور، صديقه القديم ونجل مراد كان يقف إلى جانب إمام، تعانق الرجلان وتمتما لبعضهما بعضاً بدفء.... تعلق إمام على الكلابات لشدة توتره...

ثم، وبمنتهى الغرابة، تراجع كازبك إلى الخلف ومد يده مصافحاً "إمام. أرى بعض الزغب على وجهك. أنت أصبحت رجلاً، الحمد لله والشكر..."

قاوم إمام دموعه. رغب الطفل بداخله في أن يطوي نفسه داخل صدر والده العريض.

أما الرجل البالغ بداخله فقد تسامى تيهاً لأن والده خاطبه بهذه الصفة الرسمية أمام جميع الكبار....

همس لوالده "أشكرك يا أبي!"

أحضر أحد الموجودين في الحشد آلة أكورديون قديمة وبدأ يعزف عليها لحن "قافه" شائعاً بينما كانت لجنة الاستقبال تتحرك ببطء عائدة إلى بيت كازبك. كانت الرحلة بطيئة، بوجود كازبك في وسط اللجة، يسير بنفس سرعة أحمد ويرد على الأسئلة المتشوقة من كل الجهات. رقص الأطفال حول البغال، وهم يسحبون أذنيها:

ركب الشباب اليافعون إلى جانب الأفراس العربية أو مشوا، مسحورين بجمال هذه الحيوانات، ومظهرين نقاط المقارنة مع خيولهم القباردية.

وقف الأمير وشقيقه مراد ينتظرون كازبك في مسكنه للترحيب به هناك. تحول شعر الأمير عمر إلى البياض التام: لاحظ كازبك كيف أصبح يشبه أباه الأمير العجوز، ليس ببنيته بقدر ما شابهه في جدية طباعه والحكمة اللطيفة التي يشع بها وجهه.

قال الأمير عمر "نحن سعداء بعودتك إلينا، يا كازبك "بصوته الخفيف الجاف المعهود "لقد كانت آراؤك قيمة على الدوام – وها أنا أحظى بها مرة أخرى... فالحمد لله والشكر...."

وقف مراد إلى جانب أحمد وقد عقد ذراعيه فوق صدره الناحل. أطلق ابتسامة عريضة "حسناً يا أحمد، من كان يظن، يوم دخلت تلك القرية الجبلية، إننا سنحظى أبداً بيوم مثل هذا... جدير بك أن تكون سعيداً بإنجازاتك".

اكتفى أحمد بهز رأسه، وشدَّ على ذراع رفيقه بقوة.

من على البعد، ومن داخل البيت، تناهى إلى سمع كازبك غناء النساء وهن يضعن اللمسات الأخيرة على الوليمة التي ستلي بمجرد أن تغيب الشمس. انضم عازفون آخرون إلى عازف الأكورديون وشارك الجميع في معزوفة قديمة محبوبة هي "الحشت"

تنهد كازبك قائلاً آه....، وقد تذكر ذلك اللحن بالذات من أيام شبابه...... واستدار ليجد كل شباب القرية وقد بدأوا يتمايلون مشاركين في الرقصة. شكل الرجال حلقة في منتهى العفوية وجاءت فتاة جميلة لم يكن كازبك يعرفها، تقدمت بخجل نحو العجوز أحمد، ثم قادته بأسلوب راقٍ نحو مركز الحلقة. تذكر كازبك كم اشتاق إلى مناظر وروائح بيته، لكنه أدرك في هذه اللحظة أن أكثر ما اشتاق إليه هو هذا: استمرار ودوام العادات القديمة.

إلا أن الموسيقى ذكرته بزوجته: كيف وكم رقصا عندما كانا صغاراً ومتحابين.

استدار نحو إمام "وأمك....؟"

هز إمام رأسه. "إنها تنتظرك في جناحها".

أصر كازبك على موقفه "في هذه الحالة، سأهتم بأمرها لاحقاً. لا يمكنني أن أظهر عدم الاحترام، بالوجهاء الكبار..." اقتيد سائس كازبك بعيداً من قبل الخدم إلى بيت سيده، فقد كان هناك العديد من الأصابع الفضولية بين الخدم مصابة بالحكة من جراء الفضول للوصول إلى الرزم ورؤية ما بداخلها من البضائع الشرقية الرائعة التي عاد بها "الحجي". خضع التركي نفسه للكثير من الاستجواب والتدقيق، خاصة وهو يرتدي سترة مطرزة بالذهب وبنطالاً واسعاً عريضاً أزرق اللون، كان معظم الأطفال يحفظون بضع كلمات من اللغة التترية، وسرعان ما لجم ألسنتهم من الدهشة، بقصصه عن السلاطين، العبيد، وسفن القراصنة التي صادفها...

في نهاية المطاف، غادر كازبك جمع القرويين واتخذ طريقه نحو صالة استقبال نورسان.

كان الضوء قد بدأ يخبو. لاحظ لحزنه الشديد أن قلبه ما زال يخفق بعنف لمجرد فكرة مشاهدة زوجته. ظن أثناء غيابه أنه قد تغلب على هذه الأحاسيس كلياً. وهكذا عاد إلى القلق من أن تعود الإحباطات غير اللائقة، وحالات سوء التفاهم القديمة، وتهب بينهما مرة أخرى.

قالت نورسان بنعومة، وهي تمسك الستائر له حتى يدخل إلى بيتها "أهلاً بك يا زوجي".

كانت بنفس درجة الجمال التي يذكرها بها، ققفز قلبه بين أضلاعه. وجه يشبه وجه آلهة القمر، أثيري، مراوغ، شديد الهشاشة. ما زال يحبها، بقوة، ولكنه شعر بالارتياح وهو يتفحص

ملامحها الباهتة الهادئة لأنه لم يحس في صدره إلا بتصاعد في التعاطف معها – لم يعد الشغف موجوداً.

"أشكرك يا عزيزتي. هل أنت بخير، يا نورسان؟"

"نعم، الحمد لله والشكر، وأنت تبدو رائعاً! لقد منحتك الرحلة المزيد من القوة....."

"نعم، هذا صحيح. سوف أخبرك بالمزيد، الكثير أكثر... هل ستحضرين الوليمة هذا المساء، يا نورسان؟ سأشعر بالخزي إذا لم تحضري".

"آه، وهل يتوجب عليَّ ذلك؟" وامتلأت عيناها بالدموع.

قال كازبك بصوت متزن "نعم، لقد أخبروني مسبقاً بأن عدة عائلات سوف يحضرون بناتهم حتى يقابلهن إمام. يجب أن تؤدي واجبك..."

خفضت نورسان رأسها "لقد أخفقت في واجبات أخرى عديدة – فلماذا تصر على أن أذعن الآن"

"لأن هذا الأمر من أجل إمام. لقد سعدت كثيراً برؤيته – يا له من تغيير! كيف كبر! لقد تحول إلى شاب في غاية الوسامة! أرجو الله أن تكون مشيئته بأن يتزوج صغيراً ويكوِّن عائلة كبيرة!".

رددت نورسان بندم "تلك هي أمنيتي أيضاً، يا زوجي".

لكن كازبك لم يشأ أن يعلق في اتهاماتها المضادة الناعمة بعد الآن. فقد تمكن من تنحية كل ذلك جانباً. وقال "سيتم كل شيء بمشيئة الله، اسمعي يا نورسان: لقد فكرت مطولاً وبعمق في مصاعبنا أثناء غيابي. وأنا الآن مقتنع بأنني توقعت منك أن تتفوقي على أحلامي. وقد كانت أحلامي هي عماد حياتي ومادتها لفترة طويلة جداً. لا أريد أن يحدث الشيء نفسه لإمام".

أخفت نورسان وجهها بين يديها وبكت.

ضمها كازبك بين ذراعيه "دعينا نتصالح يا زوجتي. أنا كبير السن على الاحتفاظ بالإحباطات أكثر من هذا. يكفي هذا القدر".

وهكذا كان لاحقاً، فوجئ جميع القرويين بحضور نورسان وهي ترفل بالثياب المذهبة، وقفت وأدت دورها في الترحيب والاحتفال مع باقي البنات والزوجات. بينما هي تصب لكازبك الباخسما، لمست أصابعه يدها للحظة بنفس الحنان الذي اعتاد على المشاركة فيه، فمنحته ابتسامة تشع بقدر من الوضاءة إلى درجة أن كل من حولهما نحى وجهه جانباً.

لقد تغير "الحاج" كازبك.

لاحظ إمام بدوره الهدوء الذي تنزّل على والده. ربما كان ذلك هو السبب في الخفة التي أحسها في قلبه، فقد ألفى نفسه يلقى بنظرات خجولة على الصبايا اللاتي كن يرقصن خلف حلقة الكبار، وأنه بدأ يخوض في أفكار متأملة في نفسه – فقد ظلت الرومانسية حتى الآن مسألة غامضة ومشحونة بالمشاكل بالنسبة له.

اصطادت عينه حسناء ذات شعر أشقر. كان يعرف اسمها، لأن الشباب الذين حوله ما فتئوا يرددون اسمها بما يشبه الطنين – فقد كانت الفاتنة الأولى.

ستناي. ستناي، كان باستطاعته أن يسمع اسمها يهمس به من كل جهة حوله.

السبب في ذلك بسيط: لقد حاول كل شاب في الحابسا أن يحظى بنظرة منها، ويتلقى منها تلك الإشارة الخفية التي لا يمكن إخطاؤها، بأنه يمكن دعوتها إلى الرقص. وعلى أية حال، فإن ستناي لم تختص أحداً بالتذبيل الضروري في عينيها.

كان إمام خجولاً إلى درجة تمنعه من تقديم نفسه كما فعل الآخرون، قبالتها مباشرة متخذين وقفات مصطنعة وملقين بنظرات جريئة باتجاهها بين الفينة والأخرى. اكتفى بالجلوس مستنداً، وهو

يحس بشيء من الجرح أمام هذا التبادل اللعوب للأمل والرغبة الذي لم يؤثر فيه حتى هذه الأمسية. ثم نظرت إليه. قفز قلب إمام عن الخفقة التي تضرب بها الأمثال. نظر ببراءة خلفه، فلعله يوجد شاب آخر متحمس قصدته بهذا التيار الساطع المدمر من الضياء. لم يكن هناك أحد آخر. اصطبغ وجه إمام لحد اللون القرمزي ووجد نفسه يحدق في قدميه. مشى ابن عمه روسلان متئداً من أمامه وألقى بوجهه بالكلمات "أيها الشيطان المحظوظ! إنها تسعى إليك!".

شتم إمام نفسه: "هيا أيها الأحمق، ارفع رأسك وانظر ثانية" لكن رقبته تيبست كأنما تسمرت عليه مليون عين. عندما أفلح في تمييل رقبته إلى الجانب، استطاع أن يرى أن والدي الفتاة يبتسمان ويهزان رأسيهما باتجاهه. إنهما يشجعانها! يا إلهي الطيب!

رفع إمام قامته ونظر مباشرة نحو ستناي: كانت شقراء البشرة بحاجبين محببين مقوسين بشكل رائع، وأطول رقبة مثالية، كتفين رشيقين، وصدر مكتمل النمو أقحمه في تخيلات سببت له الاضطراب. ثم ابتسمت له ووجد إمام نفسه ينهض واقفاً على قدميه وكأنه يستجيب لأمر رباني.

دخلت حلبة الرقص وتحرك برشاقة نحوها، ودعاها إلى الرقص حسب الطريقة التقليدية. هزت ستناي رأسها باحتشام، وانسابت عبر الحلبة، عائمة مثل بجعة فوق بحيرة من الجليد.

لم يخطئ أحدهما في أهمية هذا اللقاء. هذه هي الطريقة "الشركسية" في اختيار الشاب لعروسته – بأن يقودها إلى الرقص أمام الكبار. شعر إمام بالفخر في أن يقوم باختياره علناً في ليلة مثل هذه، حيث كان أبوه موجوداً ليمنحه مباركته وحيث وجدت أمه في نفسها القوة لتضيف دعمها المعنوي إلى المجريات.

إنضما في خطواتهما إلى رقصة "القافا"، وهما مدركين أن الأعين المعجبة ترمقهما من كل جانب لأنهما يرقصان بدرجة من الإجادة ليشكلا صورة رائعة.

مال تيمور نحو كازبك وهمس له بصوت خفيض "إن"أنسوقه" عائلة "وَرْق" محترمة، وهذه هي الابنة الكبرى.... فتاة جميلة. إنهما يشكلان زوجين رائعين وحسبما سمعت فإنها شابة ذكية وقديرة وجاهزة تماماً للزواج".

رفع كازبك رأسه وقد فوجئ "ما الذي تقوله يا تيمور! أكل هذا يحدث في أمسية واحدة؟" قال مازحاً.

كان مراد قد لاحظ بدوره الشابين ومال إلى ناحية، حتى يراهما بشكل أفضل "آها! إن إمام متيم هذه المرة بكل تأكيد! إنهما يبدوان رائعين سوية، إنهما صنوان متكافئان، ألا تتفق معي في هذا يا أحمد؟

أطلق أحمد نظرة حادة باتجاه حفيده الذي ظهر فعلاً وأنه ملتبس بالإثارة. "أنا لا أفهم في هذه الأمور.. إن الزواج الناجح يعتمد على أكثر من التجاذب المشترك..."

تبادل مراد وتسيما ابتسامة دافئة، فحتى وأثناء كلامه، وجدت يده المعروقة يد تسيما واستراحت فوقها بثبات ليؤكد رأيه.

***

رأى كازبك بدوره ما يجري، وأحسّ قلبه بالسعادة. لكنه بات متشوقاً لأن ينفرد بأسرته ويشاركها الأخبار وحكايات المسافرين. عندما أزف الوقت الملائم في وقت متأخر من تلك الأمسية، دعا الكبير والصغير إلى صالة بيته للاحتفال بتوزيع الهدايا.

أحضر لأحمد سجادة صلاة جميلة من نوع "الكليم" من البلاد العربية. أحضر لتسيما غطاء رأس حريري من أفخر أنواع القماش الخفيف المشغول بخيوط الذهب على الطريقة المراكشية. وهكذا تدفقت الهدايا بين صرخات الدهشة والعرفان. قماش دمشقي لنورسان، مكبات من خيوط الذهب والفضة لمطرزاتها النفيسة، مسبحة من العنبر لزكية، زوجة أنور، خنجر عربي فخم لأنور

نفسه، ولأبنائه: سيوف دمشقية مشتراة من أشهر صنّاع السيوف في المدينة المنورة. في النهاية، أخرج كازبك جرة فخارية تحتوي على ماء "زمزم" الطهور وكسر ختمها. ران الصمت على الجمع كله للحظة بينما قام كازبك بتقديم رمز تطهيره إلى والده أولاً.

قال كازبك وهو يدعو لأحمد بالبركة ":اشرب يا "تحمادا" " – وبينما نال كل واحد من الحضور شرف شرب الماء بالتناوب، همس كل شخص بدعواته الخاصة إلى الحق سبحانه وتعالى.

***

بعد إتمام جميع المفاوضات المستحقة، تبع احتفال عودة كازبك ببضعة أشهر احتفال عظيم آخر، هو زواج إمام من ستناي. بهذا الاتحاد، توحدت عائلتان عظيمتان من الجلاخستني وأزهرت في الإقليم براعم الأمل. تمثلت أثناء الاحتفالات بلعبة "الدباْه"، وهي سباقات الخيل الشهيرة والتي شارك فيها أفضل الفرسان في جميع قباردا الصغرى. جرى هذا السباق في اليوم الأخير من احتفالات الزفاف.

وقفت ستناي في هذه اللحظة، وهي في قمة تألقها من الارتواء الحميم، وما زالت ترتدي ثياب العرس البيضاء، بين النساء المتزوجات من عائلة أحمد الكوباني: تسيما، نورسان وزكية زوجة أنور، يشجعن أجمل صبية في العشيرة (كاتبه، صغرى بنات أنور) على أن تحمل جائزة "الدباْه". قامت ستناي في وقت أبكر من ذلك اليوم بمساعدة النساء في تزيين مجسم الشجرة الصغير المزوق بأناقة ودقة، بحبات البندق والجوز. تعود هذه الطقوس إلى بواكير الزمن الضبابية، ربما أحضرها إلى القفقاس الفرسان الجوالون من أيام الحروب الصليبية. كان اليوم حتماً يحمل بصمات الاحتفالية العائدة إلى القرون الوسطى، فقد ازدانت الجياد بأبهى العدد والحلل، وارتدى الخيالة ستراتهم "التشيركيسكا" المشغولة بخيوط الذهب والفضة وعلى رؤوسهم طواقي الاستراخان مائلة باختيال وزهو.

خرجت كاتبه ابنة أنور ذات الأربعة عشر ربيعاً، من محيط سياج الأسرة إلى حقل الفروسية، حاملة "الدبأه". جالت بناظريها بخجل باحثة عن فارسها المفضل، والذي تصادف أنه مجيد، ابن تيمور، صبي ممتلئ بالحيوية في السادسة عشرة.

قالت لها أمها بفخر "هيا اذهبي، يا كاتبه، اختاري أنت، وناديه باسمه!" قالت كاتبه بصوت رقيق "مجيد، مجيد" وأقبل الشاب متقدماً بلهفة ليتناول الجائزة منها. تراجع الحشد، ابتسم مجيد بسعادة في وجه كاتبه ثم أطلق صرخة مدوية وانفجر خارجاً من الدائرة وهو يعدو بجواده بأقصى سرعة.

ضحكت ستناي واحتضنت بذراعيها كاتبه التي كانت تقفز صاعدة نازلة من شدة الإثارة. "أحسنت الاختيار يا ابنة العم العزيزة! لقد انتقيت فارساً بارعاً!".

ضرب مجيد جواده بالسوط، وهو يرفع "الدبأه"، فوق رأسه متحدياً بقية الفرسان. سرعان ما ثارت زوبعة من الغبار حول القرويين، حاجبة كوكبة الفرسان الشباب التي ملأت الحقل بينما يتعارك الفرسان الآخرون فيما بينهم محاولين اللحاق بمجيد وتخليص "الدبأه" من قبضته. أغار الفرسان وتداوروا طيلة ما بعد ظهيرة ذلك النهار، متحدين بعضهم بعضاً على القيام بالمهارات الأخطر والتي تعتمد على قوة الأعصاب والبراعة. ألقيت "الدبأه" واختطفت في تمريرات بارعة بين الخيالة بين صفير وتشجيع الجمهور المحتشد.

اعتمد النجاح في هذه الألعاب على الشجاعة والسرعة بين الرجال، وعلى قوة التحمل لدى جيادهم – لكن بالنسبة لبنات الحابساي، فقد كان الأمر ينطوي على أكثر من ذلك بكثير. فإن حياتهن كانت تعتمد على شجاعة رجالهن: خلف المرح الذي يخلقه احتفال "الدبأه"، هنالك الضرورة الماثلة على الدوام في شحذ

المهارات القتالية للشباب والحفاظ على روح الشباب المقاتل في حالة من التوتر الدائم.

منذ حادثة "الهجرة"، حين ارتحل آلاف القبارديين غرباً عبر نهر اللابا، استطاعت العشائر التي اختارت البقاء في القباردي أن توفر لأبنائها حياة رغيدة. أبرمت الاتفاقيات مع الروس: لأن فظاعات ييرمولوف لم تترك شكاً لدى أحد في أن عواقب التحدي ستكون كارثية. دفع الروس الجزية مقابل حق المرور في أراضيهم: حصل قدر معين من التبادل التجاري، وساد جو عام من التعايش السلمي المشرف بين الجهتين، وإن كان بدون تقارب. لكن أحداً لم يخدع نفسه، وخاصة الكبار في مستوطنات التيريك، بأن هذه الأوضاع يمكن أن تستمر إلى الأبد. فالأمر لم يتعدَّ الاستمتاع بالسلام طالما بقي سائداً. باستطاعه كازبك أن يغلق عينيه ليمتلئ كيانه كله بالسلام الذي يتأتى من معرفة الرب في الداخل والرب في الخارج: النفس على أنها نسيج غشائي رقيق ما بين التجربة الحميمة والمطلقة للفرد. ما عاد هناك شيء مهم، ومع ذلك، فإن الجمال في هذا الإحساس، هو أن كل شيء مهم. مما جعل العالم سهلاً على القبول، وذلك بدوره جعل عائلته تتقبله بسرعة وإيجابية أكثر، وهو بدوره تقبلهم. وهكذا، كثيراً ما كان يجلس – ويكتفي بالملاحظة والتأمل، كأقرب ما يكون إلى الصلاة. شمس الصباح: هذه البوابة، البيضاء البراقة: هذا السياج، المعتنى به جيداً: هذا المنظر لإمام وهو يقوم بتدريب الحصان الفحل العربي الضخم في الأشواط. ستناي، الزوجة الجديدة، وقد بدأت تظهر عليها الآن الحياة الجديدة التي تنمو في داخلها، واقفة هناك إلى جانب الشباك تبتسم. كل هذا طيب: كل هذا هو الله. إن الله موجود في كل الأشياء. شعر بالأمان والتصالح من خلال تلك المعرفة.

كان إمام يركب الحصان بسرعة ومهارة، يتلوى، يدور، ويتراجع في خطوات دقيقة عبر الحظيرة. لقد أصبح الحصان والفارس متناغمين بشكل واعد مع بعضهما بعضاً رغم الوقت

القصير الذي قضياه سوية. لكن إمام لم يكن واثقاً بعد من درجة ذكاء الحصان العربي. أخرج كازبك نفسه من تأملاتها، وحضرت خبرته القديمة إلى الواجهة.

"ولدي، اقترب أكثر.." ناداه كازبك "هذا الحصان ذو كبرياء، إضافة إلى ذكائه. لا تجبره على تنفيذ إرادتك – أنت ما زلت تميل إلى ذلك.. ما زلت تجبر فمه بالشد أكثر مما أنت بحاجة إليه..." ناور إمام مرة أخرى ولكن بقليل من التردد.

قال كازبك بصبر وأناة "لا يا إمام، اسمع" وأمسك باللجام عندما اقترب إمام من السياج "هذا الحصان بالذات فمه حساس وضعيف، عندما تشده بقوة فأنت تؤلمه. خلافاً للأنواع الأخرى، سوف لن يطيعك ويتصرف بعناد. وهكذا تراه يعمل ضدك وليس معك.."

حاول إمام مرة أخرى

شجعه كازبك "بلطف، بلطف، دعه يشعر بالأعنـــَّة، بأنك تمسك بها وأنك مسيطر. حافظ على اتصال مستمر بفمه، ولكن أدره بلطف. هكذا، صح، سوف ترى.."

بدأ إمام بخبب بدون مجهود يذكر، ثم بدأ يدور، ويتساهل مع الحصان، وبعمله هذا، يستمتع بالوضع أكثر. سرعان ما اقترب من السياج ومن أبيه، متأملاً أن يكون قد حاز على موافقته. "هل كان ذلك أفضل؟ متى يمكنني أن أجريه في اختبار سرعة؟" سأل بلهفة "أريد أن أعرف إذا كانت لديه فرصة في الفوز أمام خيول القوزاق!"

ابتسم كازبك "قريباً" وعد ابنه "في البداية يجب عليك أن تعمل على تدريبه في مسألة الإطاعة، السيطرة.... وأنا أؤكد لك، إنه سريع. إنك يمتلك سرعة حقيقية. أن أصله من أفضل سلالات خيول شمَّر لدى عائلة الفرحان في البلاد العربية. لقد قيل لي أن أباه كان في مثل سرعة الريح".

"ماذا قلت اسم رسنه؟ وصل انبهار إمام بالحصان إلى حد جعله يرغب في معرفة كل شيء عنه، وليس فقط ركوبه بمهارة.

"إنه صقلاوي نقي. وهو واحد من السلالات الخمسة المهمة في الجواد العربي. معظم المهرات والأفراس الأخريات اللاتي أحضرتهن من رسن الصقلاوي أيضاً. ربما تكون بينهن اثنتين من رسن الكحيله..." ترجل إمام ومدَّ يده بالأعنة نحو كازبك "هيا يا أبي، أرني" قال ذلك وعيناه الداكنتان تشعان فخراً.

شعر كازبك بالقناعة لانعدام نبرة التحدي كلياً من كلمات إمام. فقد طلب ذلك من باب الحب لا غير، ومن باب اللهو والرياضة. ما إن امتطاه كازبك حتى لف الحصان وانحنى بمنتهى السيولة والليونة والاستجابة السريعة. بدا كازبك عملاقاً فوق ظهره.

لم يملك إمام غير الوقوف، وقد عقد يديه عبر صدره، يضحك ملء شدقيه. إن أباه هو الأفضل، من نواحي عديدة....

"هل ستسمح لي بالمشاركة بالسباق فيه الشهر القادم؟ في المنافسة؟ أرجوك يا أبي سيكون النجم. إنه في غاية الجمال".

كان كازبك يستمتع بكل هذا، وهو يدور ويتراجع بمهارة متطورة. "الجمال لا يؤخذ في الحسبان ولا يؤثر؛ إلا إذا استطعت أن تكسب السباق وأنت تركبه "قفز الحصان باتجاه السياج، ودفع إمام برقة.

طار إمام من الفرح "أعرف ذلك، ولكنني سأجعله فخوراً بي فلا تقلق. ليس لدى القوزاق أي شيء يضاهي هذا الحصان. سوف ترى"

ترجل كازبك وقاد أحد السواس الحصان الثمين عائداً به إلى الاسطبلات حيث ينظفه. مشى إمام إلى جانب أبيه عائدين إلى البيت.

"أخبرني يا أبي، كيف اشتريت ذلك الحصان العربي؟ لا بد وأنه كلفك ثروة..."

"لا يا إمام. لم أشتر هذا الحصان. هل تذكر ما قلته لك عن المهرات السبعة اللاتي اشتريتهن من الحجاز. حسناً، أثناء رحلة عودتي دعيت لزيارة شيخ قبيلة شمَّر – ".

قاطعه إمام "أين هي هذه القبيلة؟" وكله آذان، متشوقاً على الدوام لمعرفة المزيد عن العالم.

"إنهم موجودون في شمال الجزيرة العربية" لم يعمد كازبك أبداً إلى تصحيح آداب إمام في مثل هذه الأوقات. فقد كان يشعر بسعادة طاغية لكونه قريباً من ابنه. "إنها قبيلة مهمة وذات تأثير كبير. يعيشون في شمال الجزيرة، بين النهرين العظيمين، دجلة والفرات على الأغلب".

"إذن كنت أنت ضيف الشيخ..."

"لعدة أيام. لقد أعجب بمهراتي، وطبيعي أنه عندما يعجب رجل بشيء تملكه، فأنت تقدمه له: أعطيته مهرة كهدية. وهكذا أحسن تقدير هذه البادرة إلى درجة أنه أهداني أفضل فلو لديه، هذا الفحل، بالمقابل. شعرت بتشريف كبير. وهكذا كما ترى، فهو عزيز علي. آمل في أن ينتج لنا بعض الأصول الطيبة...."

توقف إمام للحظة "لقد أخبرني جدي أنه بدأ موجوداته الأصلية بفحل عربي. ستقوم بتطعيم هذا الفحل أيضاً مع أفراسنا القباردية، أليس كذلك؟"

"نعم، بالطبع. ولكنني أريد أن أرى ما يستطيع فعله مع أفراس من نوعه هو. أعتقد أننا سنجد سوقاً لهذا الرسن، العربي النقي، في بلاد القفقاس".

نفض إمام كتفية وقال بصراحة "يعتقد جدي أنك تضيع وقتك سدى، فهو يعتقد أن الخيل العربية النقية صغيرة الحجم جداً ولن

تجد رغبة فيها بين القبارديين أو أية قبائل أخرى. إنهم يحتاجون هنا فقط إلى خيول الحرب، هذا ما يقوله!"

أعجب كازبك بقدرة إمام على التأثر بالآراء، وتأثر بقدرة الشاب على التعبير عن نفسه بحرية، واختيار آرائه. أن يسير تحت أشعة الشمس ويخطط مستقبلاً لسلالة عائلة - لا شيء يمكن أن يشوه الفرح الذي أحس به. وضع يداً حانية على ظهر إمام العريض، مما سبب له اندفاعاً من السرور البدني بملامسة العضلات الصلبة، القوة الرجلية في جسم إمام، لحمه ودمه...

"أعرف ما يعتقده جدك، يا ولدي. لكن الخيل العربية ممتازة للحرب. إنها تربى من أجل الحرب. إنها ثابتة الأرجل، واثقة الخطى، وهي ذكية وسريعة. سوف يغير "التحمادا" رأيه بمرور الوقت.

***

بعد بضعة أسابيع بدأ رجال العائلة يستعدون لسباقات وادي التيريك. فهذه تجري في العادة سنوياً بعد موسم الحصاد، وهو وقت ملائم للاستراحة من العمل وتجربة الأفلاء والمهرات.

كانت السباقات أيضاً المناسبة السنوية الوحيدة التي يعبر فيها القوزاق النهر ويشاركون في منافسة ودية على ظهر الخيل، مع "شراكسة" الحابساي.

في الواقع، أصبحت هذه المنافسة مواجهة جدية بين الشباب القباردي والمستوطنين القوزاق. ولكن كما كان كبار السن في الحابساي يقولون "الأفضل الالتقاء مرة واحدة في السنة في ميدان السباق من الالتقاء فوق ميدان المعركة".

بينما كان ميدان السباق يمتلئ تدريجياً بالمتنافسين والمتفرجين، لاحظ كازبك الحضور المتزايد للقوزاق من "الستانيتزات" القريبة. جعلتهم ستراتهم الحمراء القصيرة يبرزون

بوضوح بين الجمهور، كما كانت تظهر تشكيلات الزهور المتألقة لوشاحات نسائهم التي يغلب عليها اللونين القرمزي والأزرق.

لقد كان القوزاق أنفسهم فرساناً مشهوداً لهم بطريقتهم الخاصة ويستمتعون بالمسابقات: كانوا هم أيضاً بحاجة إلى فسحة في رتابة أيامهم لأن معظمهم، حسب شروط توظيفهم من قبل القيصر، جنوداً – مزارعين مجبرين على افتتاح أراض جديدة وفلاحتها والتزود بغذائهم لأنفسهم في المناطق التي يحتلونها. كان القباردیون يستمتعون على الأقل باحتمال هزيمة هؤلاء الأعداء السابقين فوق الميدان بأسلوب رمزي.

كان هناك العديد، من بينهم أنور، تيمور، وجعفر، لا يفلحون في إخفاء كراهيتهم لوجود القوزاق في وسطهم. فتوجب على أحمد، ومراد تحديد النبرة والحث على التكتم. وافق كازبك على سياستهما بشكل طبيعي.

جلس هؤلاء الرجال سوية بين الكبار ينتظرون امتلاء الميدان. كالعادة، جلس المشاهدون تحت المظلات المزينة بالأعلام المثلثة والأقمشة الزاهية الملونة: أضافت الروح الاحتفالية المألوفة القديمة نوعاً محدداً من السرور إلى المناسبة – نوعاً من الهدوء الذي يشجع على تبادل الأحاديث المتقطعة وسمحت بتناسي الأحقاد.

قال كازبك لأنور بهدوء "هم على الأقل يهتمون بشؤونهم ولا يختلطون بنا"

أجابه أنور "هناك دوماً رغبة في التآخي، لكن نساءنا لا يمكن مطلقاً..." تهاوى صوته تدريجياً لأن كلماته كانت مثل الفكرة، لا يمكن الحديث فيها.

تمتم كازبك "ذلك جيد، لأن الآخر سيؤدي حتماً إلى الشقاق".

انتقل أنور بالحديث إلى مسائل أكثر مرحاً "حسناً يا أخي. هل سنشاهد حصانك العربي الشهير هذا اليوم، أم لا؟"

تدخل تيمور "نعم، يا صديقي القديم، سيشعر العديد منا بخيبة الأمل إذا لم يهزم فحلك القوزاقيين هزيمة نكراء. ما الذي يؤخره؟"

شعر كازبك بالانفرج. لقد كان حلم والده في أن يستورد في يوم من الأيام سلالة جديدة من الخيل العربية ليطعمها مرة أخرى بالقباردية لتحسين السلالة. كان الرجل العجوز يؤمن بقوة أن هذا هو السبب الرئيس لرحلة الحج عند كازبك. سمع كازبك أسطورة سلالة "الشولوخ": كيف تم تلقيح فرس من سلالة الألب قباردين عن طريق الصدفة من قبل فحل عربي على شواطئ بحر قزوين ونتج عنهما السلالة المعروفة اليوم باسم "شولوخ"، والمسماة على اسم صاحب الفرس الأمير شولوخ تالوستان: وكيف أن أباه أحمد قام بتكرار نفس سياسة الاستيلاد مع فرسه "الشولوخ" والفحل العربي الأسود الذي جيء به من بلاد فارس. وقد أثبت التطعيم في الاستيلاد أنه متفوق مرات ومرات. والآن لديه الفرصة لتحسين الرسن القباردين مرة أخرى بفحله الرائع هذا. لكنه إلى جانب ذلك يؤمن بالجواد العربي كسلالة نقية وكان مستعداً لإعطائه الوقت والجهد. الكثير يعتمد على تفوق الفحل العربي.

أشار كازبك إلى الطرف البعيد من الميدان حيث كان إمام يمتطي الفحل الأبيض الرائع ويقوم بتمارين لإحماء بخطوات رشيقة مبالغ فيها. كان الفحل العربي مبهراً، جلده الأبيض يلمع ببريق خاطف تحت الشمس، رقبته الطويلة مقوسة كأنها رقبة بجعة، ذيله مرفوع ويقف منتصباً يتلاعب كالريشة وينتفض من الإثارة العصبية.

جاءت نبرة كازبك مقتضبة "لا تتوقعوا أكثر مما يجب، إنه ما زال مبتدئاً. سوف نرى ما يستطيع إمام أن يفعله في السباق الطويل".

لكنه أبقى عينيه مثبتتين على الفريق الذي يمثل القوزاق، فمهما كان نوع الجو السائد من الهدنة بين "الجاور والشركس"، فإنه

ستوجد على الدوام لحظات من التوتر، وقد علمت التجارب الطويلة في أحوال العالم كازبك أن هذه اللحظة يمكن أن تتولد عنها مثل تلك اللحظات. حمى عينيه من الشمس ولاحظ وجود ضابط وخمسة من أتباعه وقد انفصلوا عن حشد من جنود القوزاق الذين انهمكوا في المراهنات، ومشوا نحو نقطة أقرب إلى المسار. هذا الرجل يريد أن يلقي نظرة فاحصة على الفحل، ذلك أمر واضح.

أراد إمام، بصفته المتحدي الرئيس لهذا اليوم، أن يضع حصانه في جو السباق، أن يبني درجات إثارته - يحسُّ الجواد الطيب الذي يعشق التسابق بالمناسبة، وأصبح بمقدور إمام أن يدرك بأن الفحل العربي يتمتع بمعنويات عالية. ركب أمام القوزاق وجعل الفحل يقفز ويقف على قائمتيه الخلفيتين، فخوراً باستعراض قدراته. صاح به أحد القوزاق بلغة شركسية مكسرًه "عقيدنا - الاسم ديمتيري.... تحيات إليك. هو يريد، أنت تخبر، الحصان للبيع؟"

شعر إمام بقليل من الرضى، لكنه أيضاً شعر بشيء من الغضب. هؤلاء الكفار التعساء، ابناء الشياطين، يعتقدون فعلاً أن بإمكانهم أن تقع عينهم على أي شيء ويحصلون عليه.

"بإمكانك أن تشكر ضابطك وتقول له أن الجواب هو لا". رفع إمام قامته بكبرياء والتمعت عيناه الزرقاوان.

أعجب العقيد بنفسية الفارس بقدر إعجابه بنفسية الحصان. مال برأسه بابتسامة ساخرة على وجهه وسأل مساعده إذا كان الحيوان سريعاً أو أنه شارك في السباقات قبلاً.

كان إمام بالطبع فخوراً جداً بحقيقة أنه يستطيع أن يفهم اللغة الروسية. الجيل الثالث: كان هذا تقليداً في عائلته. قال موجهاً كلامه مباشرة إلى الضابط "كلا أيها العقيد، هذا الحصان لم يسابق قبلاً. اليوم هو المرة الأولى". كان ذلك أفضل ما يمكنه عمله، وأعطى النتيجة المتوخاة. "آها! أنت تتكلم الروسية! ذلك أمر رائع". داعب القوزاقي شاربه بأصابعه في محاكاة تكاد تكون نمطية لأبناء جنسه،

واستطرد بنبرات مازحة رنانة" إنني معجب بحصانك أيها الشاب. سأشتريه منك حتى ولو لم يكن ليربح السباق. ماذا تقول في ذلك؟".

انتصب إمام أكثر في جلسته فوق الفحل الأبيض ونظر إلى العقيد ديمتيري نظرة تقييم: ارستقراطي بالفطرة يستحيل أن يقبل بأن يفرض عليه شعور بأنه أقل مكانة من قبل رجل أدنى منه، بصرف النظر عن ميزان القوى. كان ديمتيري رجلاً ضخماً، سميناً، في حوالي الأربعين، له رقبه ثور، كتفين عريضين وابتسامة عريضة آسرة. لكنه بالنسبة لإمام رجل له طبيعة اللص. لم يكن يدفع للقوزاق ما يكفيهم حتى يتخلوا عن عاداتهم في النهب التي تعود إلى قرون ماضيه. حتى في هذا الوقت، أثناء فترة الهدوء النسبي، كانت مجموعات منهم تخرج وتسوق الماشية وتسرق البضائع من التجار المتجولين.

كرر إمام قولـــه "لقد قلت الحقيقة" مستمراً في التحديق بعيني ديمتيري اللتين أرهقتهما الشمس بنظرة شرسة. "هذا الحصان، لن يكون معروضاً للبيع أبداً". لكن كلماته غرقت في صخب من الجمهور بينما وصل السباق الثاني لهذه الظهيرة إلى ذروته.

سرعان ما سيأتي دوره. السباق الثالث لذلك النهار، وهو الأطول، ثلاث دورات للمسار. نسي إمام موضوع العقيد وعدا مبتعداً خبباً ليتخذ موقعه المناسب في حلقة التجمع. انتهى السباق الثاني: هتفت الجماهير بجنون – ولكن في هذه المرة– فإن قوزاقياً قد فاز بفارق رقبة. استاء الجمهور وتحول إلى العداء، فهذا هو الفوز الثاني للعدو على التوالي.

لاحظ كازبك كل هذه المجريات. سمع أحمد يستدير نحو مراد – الذي كانت لتوه يشتم حظ القوزاقيين الجيد: "إن السباق المهم قادم الآن يا أخي – لا تتهيج ولا تغضب منذ الآن...".

عبس مراد "نعم، وانظر إلى العدد الذي جهزوه قبالتنا! لقد احتفظوا بأفضل فرسانهم لهذا السباق – أية فرصة بقيت لنا!"

ابتسم أحمد ابتسامة عريضة "سوف نرى... وبكل الأحوال، هو مجرد سباق..."

حافظ كازبك على صمته، حدق الجميع في خط البداية حيث دخل إمام لتوه ليحتل مكانه، كان الفحل منظراً آسراً وتسبب في تعليقات لا حد لها.

تمتم كازبك "هذه هي لحظة الحقيقة، أنه يبدو رائعاً – ولكن هل يستطيع أن يركض؟".

إلى جانبه، جلس تيمور يحن إلى الماضي، "أذكر، حين كنت طفلاً صغيراً، ذلك الفحل الأسود الذي كان والدك يملكه. كان ذلك في بلاد الشيشان، أليس كذلك يا "تحمادا"؟" قال مخاطباً أباه، طأطأ مراد برأسه.

استطرد تيمور قائلاً "لقد كان مثل هذا الفحل تماماً" وقد اضاء وجهه النبيل، الهادئ في العادة، بذكرى الطفولة الحية "ما عدا اللون. كان يحتفظ بعرفه مرفوعاً ويتقافز كأنه إمبراطور. لم نعرف أبداً ما إذا كان ذلك الفحل سريعاً – لم تكن لديهم سباقات في بلاد الشيشان، إلا ربما للهروب من القوزاق المغيرين!" نظر تيمور بوجه ضاحك باتجاه أبيه وأحمد العجوز، محاولاً أن يتصور الاثنين وهما يعدوان مثل الشياطين عبر غابات أشجار القضبان، وينسلان من قبضات المرتزقة "الجاور".

تكلم كازبك بتحفظ "ينبغي القول بأنني أعتقد أن الوالد كان يعتز به أكثر من أن يخاطر به في السباق. الأرجح أنه يعتقد أننا أغبياء لأننا سمحنا للشاب أن يسابق به الآن...".

رفع مسؤول البداية مسدسه، تململت الجياد بعصبية – كلهم عدا حصان إمام الذي ارتفع على قائمتيه الخلفيتين لشدة إثارته، فأخطأ الإيقاع، لحظة الانطلاق...

قفز القباردين على أقدامهم قفزة رجل واحد، بصرخة يأس هائلة. لكن إمام استعاد سيطرته على الحصان خلال ثوان وركض به كأنه وطواط خارج من الجحيم خلف جمع الخيل. بدت المسافة مستحيلة حتى في تلك اللحظة.

وقف الجمهور مبهور الأنفاس بينما تجاوز إمام الفارس الأول، ثم الآخر... هذا حصان لا يطيق أن يجيء من الخلف. استجاب كل عصب وكل عضلة في جسمه للدافع الذي يحدوه لأن يخرج إلى المقدمة حيث موقعه اللائق. لم يكن تعامل إمام الحساس الذي جعل الفحل يسابق وكأنه أحد خيل النارتيين الأسطوريين المهاجمة: لقد كانت كبرياؤه وقدراته الكامنة.

احتل إمام المركز الرابع بنهاية الدورة الأولى. أخرج كازبك تنهيدة "ليس وضعاً سيئاً بالنسبة لمبتدئ..." تمدد أنور بجسمه ليمسك بذراعه بقوة " لم ينته السباق بعد يا أخي!" وأشار: كان اثنان من القوزاق وإمام يقودون الميدان، وقد ابتعدوا عن البقية. كان إمام ينتقل من قوة إلى قوة. مرتفعاً في سرجه إلى درجة أنه بدا طائراً، بسهولة، يكاد لا يلمس الفحل الذي ما كان بحاجة إلى الحث. بدأت المسافة نحو النهاية تضيق... إمام وقوزاقي يعدوان رقبة محاذية لرقبة. رقبة محاذية للأخرى، والآن بدا وكأن إمام قد تمدد بجسمه قليلاً، منح حصانه عناقاً عند الرقبة – ثم فاز. مد الفحل العظيم رأسه إلى الأمام في حركة دورانية حذرة، فقد أظهر غرائزة الحقيقية في الياردات العشرين الأخيرة كفائز، كل عضلة فيه تتشوق إلى تلك الميزة الصغيرة – وكان ذلك هو ما صنع منه فائزاً.

أصيب الجمهور بحالة من النشوة الجماعية. رمى القباردين قبعاتهم في الهواء وقبّلوا بعضهم بعضاً.

أطلق القوزاق وابلاً من الشتائم البذيئة، لأن الابتهاج كان لأكثر من السباق – كان لإحياء روح الانتصار عندما انهزم عدو قديم، موغل في القدم.

نظر كازبك عبر المدى إلى جمع القوزاق المتحلقين حول العقيد ديميتري. كانوا يشعرون بالحَرَدْ، لكن العقيد ديميتري كان أذكى من أن يتصرف على تلك الشاكلة. نظر باتجاه كازبك، إلى الكبار المحتفلين، وطأطأ برأسه موافقاً.

تمتم كازبك لنفسه "الشرف حيث هو مستحق، وانحنى انحناءة بسيطة جداً ليرد اعتراف العقيد. استدار وقد استراح ذهنه قليلاً بينما ضغط حشد من المهنئين حوله وحول أحمد وأنور. استرد أحمد وقاره وبدا لبقاً، غير مهتاج ، يمنح ابتسامات عارفة من القبول في وجه وابل جارف من المديح. عرف حتى أكثر من كازبك بأن الصقلاوي هو واحد من أفضل المسابقين في كل القفقاس، ولكن الأهم من ذلك أيضاً، أن إمام هو أمهر فارس في جيله بلا منازع.

قاد الفائز الفحل باتجاه أبيه.

"هاك يا أبي، ألم يبدع! ولد طيب! ولد طيب! لاطف إمام الفحل بينما مرر كازبك يده الخبيرة فوق أقدامه وأوتاره، يتفحصها من أي ضرر يمكن أن يكون قد أصابها.

"إنه بخير. إمش به نحو البيت بلطف يا ولدي. لقد أدى أكثر من واجبه اليومي في ذلك السباق... حسناً فعلت".

لكن إمام لم يستطع أن يهدئ نفسه "إنه رائع، أليس كذلك؟ إنه أفضل ما ركبت على الإطلاق، لقد جرى بطريقة رائعة..."

"نعم، نعم" هدأ كازبك كلاً من الفارس والحيوان "لقد أبليت بلاءً حسناً... والآن إذهب به وأمسحه جيداً واتركه يبترد جيداً قبل أن تقدم له أي ماء أو علف".

مشى روسلان، الذي كان نسخة عن إمام في المظهر وأراد من كل قلبه أن يساويه في المواهب، إلى جانب بطله

"آه، لقد رأيتهم" قال بحبور بالغ، بينما ركب الجنود القوزاق لاعتراضهم في طريقهم إلى البيت. "تهانينا يا "شركس"! لديك حصان رائع!"

حاول إمام أن يقف ساكناً، لكن دم الفحل كان يفور، فكان يضطر إلى تهدئة سرعة خطوه.

"أرجوك أن تفكر جيداً فيما سأعرضه عليك" صاح به العقيد ديميتري، وقد سد طريق إمام بحيث لم يعد هناك مجال لكلمة أرجوك على الإطلاق "خمسون روبلاً! خمسون روبلاً ذهباً!"

اتفق كل من إمام وروسلان مع العبارات المندهشة التي أطلقها القوزاق الآخرون بأن هذا مبلغ رهيب، ويشير إلى أن هذا العقيد قد تخلى عن كل المنطق وفقد إدراكه.

اكتفى إمام بأن هز رأسه نفياً. قدم الفحل جوابه بنفسه، فقد رفع قائمتيه الأماميتين بحيث أجبر جواد ديميتري على أن يتنحى جانباً.

"لقد أصيب بضربة شمس، يا روسلان، هيا بنا، لنذهب إلى البيت".

ضحك إمام في وجه ابن عمه وانطلقا في طريقهما تاركين العقيد ديميتري وقد أعياه الغضب.

لكن إمام استطاع أن يشعر بثقل الرغبة عند الرجل، أحس بالعينين الغاضبتين المشتهيتين تحفران في ظهره، والكلمات المتمتمة بصوت خفيض والتي سمحت حتى معرفته المحدودة باللغة الروسية له أن يلتقطها:

"سوف أحظى به، يوماً ما.."

***

الفصل الثاني عشر

لم تتمكن ستناي من النوم: فقد أصبح حملها متقدماً بحيث أن الطفل يمكن أن يولد في أي يوم. لكن لم يكن ذلك هو السبب في بقائها مستيقظة واعية تماماً. لقد كان عقلها مليئاً بالأحلام، ليس من الرؤى الإرغامية البعيدة النظر التي تجيء بلا استئذان وتترك الإنسان مهموماً. كلا، كانت ستناي تفضل التخيلات البيتية الأكثر تواضعاً التي يمكنها أن تخترعها لنفسها في ذلك العالم نصف المريح بين النوم والصحو، بينما هي مستلقية بالقرب من إمام وتخطط كيف ستكون الحياة بالنسبة لهما، بالضبط.

سيرزق إمام بابن بكر: أخبرتها عرافة من البلقار بهذا الأمر، بالإضافة إلى الطبيب الأرمني الرحال الذي ترك لديها أعشاباً سحرية كانت تتناولها سراً.

يفترض في هذه أن تزيد حجم وقوة الطفل وتسهل عملية ولادتها. أرطماسيا – عسل، سمَّار، حلو، أفسنتين... وعناصر صينية مسحوقة أحضرت من بعيد بواسطة تجار جوالين، قرن أحادي القرن المسحوق ورشة فوق لهيب الشمعة من أصداف مسحوقة معينة، مخلوطة حسب قاعدة قديمة مع الأوركيد المجفف، الزنبق، جذور الناردين.

ليلياً، كانت ستناي تصلّي للشقيقات القديمات الثلاث اللاتي يحمين كل البيوت ويحفظن المقاتلين في ميدان المعركة بأجنحتهن – لأن العائلة التي لا يوجد فيها أب مقاتل ليست عائلة على الإطلاق. في نهاية الأمر، فإن ستناي، التي تحمل أسمها، حسب أساطير "النارتيين"، هي المرأة المثالية.

كان البطل آرجون يسعى إليها كعروس له، بين العديد من الخاطبين، الذين كانوا يتسابقون عبر الجبل للعثور عليها. أصيب جواد آرجون بالعرج فحمله على ظهره، ورغم ذلك سبق جميع الأبطال الآخرين ليكسب يدها...

وكان ستناي هو اسم والدة البطل النارتي الأعظم – "سوسروقة".

يغط إمام في نوم عميق جداً لأنه كان لديه الكثير من العمل في العزبة هذه الأيام، مثل العناية بالخيول الجديدة، إضافة إسطبل جديد إلى القطاع القائم. استلقت ستناي باسترخاء تام في مفصل ذراعه، سعيدة لأنها أصبحت زوجة رجل نبيل واعد مثل إمام. كان يختلف عن أبيه جذرياً – كانت ستناي مبهورة جداً في سرها من حمويها، مع أنها "نسا" قائمة بواجباتها خير قيام. كان كازبك جدياً، وقوراً، ومتغيباً على الدوام في مهمات استشارية متعمقة لشؤون البلد مع كبار الحابسا. يخوضون في أحاديث المسنين عن الحروب والخدع السياسية، أمور دنيوية بعيدة لم تكن تعني الكثير لستناي، التي تركزت حياتها على ما يحدث في المدار الأصغر لبطنها.

ظل إمام يتحدث عن الخيل بلا توقف، عن المفضلات لديه، ومغامرات طفولته مع جده العجوز أحمد.

لم تكن ستناي تمانع في الاستماع إلى كل هذا بطريقة ما: فإن تجلس لتراقب الشخص الذي تحبه وهو يتحدث عن الأشياء التي تسعده هو إحدى مسرات المرأة. كانت تحب أن تراه مزدهراً.

تحرك في هذه اللحظة قليلاً.

"أنت لست نائمة يا ستناي، يجب أن تستريحي جيداً، لأجل الطفل..." غمغم لها وما زالت عيناه مغمضتان.

"إنني أشعر بإثارة تمنعني من النوم. أشعر إن الطفل قادم في وقت قريب. أخبرني مرة أخرى – هل أنت واثق من أنك تحب إسم إينال؟ أنا كنت أفضل أسم ناخو، تيمناً بأخي الأصغر".

تنهد إمام واحتضنها بحنو وقال لها "إن إينال وتشاومبوك، هما ابنا الأمير كيس، وإينال هو مؤسس عائلات القباردي، نعم، إنه اسمنا المفضل، يا حبيبتي، أنا أحب الأسماء الموغلة في القدم، فهي تجعلني أشعر بالفخار..." ضمها بقوة أكثر: "لكن إذا كانت بنتاً يجب أن نسميها "مزكواشة".

"نعم، هذا ما قلته، ولكن لماذا؟ ليس لأحد من عائلتك هذا الاسم."

"لا، ولكن أبي ظل يقص علي حكايات عندما كنت مجرد صبي عن امرأة عاشت في حرش وكانت قادرة على تحقيق الأمنيات". أفلحت ستناي في هذه الآونة في إيقاظ إمام كلياً واستلقى على ظهره واضعاً إحدى يديه تحت رأسه والأخرى خلفه، معيداً تشكيل حالة الاستعداد للنوم التي اختبرها مرات نادرة عزيزة، عندما كان بعد صغيراً جداً جداً، ليس أكبر من أربع سنوات، قبل أن يرسله والده إلى "التحمادا" أحمد. كانت "مزكواشه" تحتفظ بدب كحيوان أليف، وتقدم العسل للذئاب كل ليلة بحيث لم يكن أي من وحوش الحرش عدواً لها. كانت تصنع أقنعة سحرية تعطيها لغريب مار، إذا قررت أنه من الشجاعة بحيث يجرؤ على عبور المدى المعتم لمملكتها.... فالقناع يبعد عنه جميع الأرواح الشريرة... يقول أبي أنها عاشت حتى بلغت مائة وسنتين من العمر..."

"لم أسمع بهذه البطلة "الشركسية" من قبل أبداً"

ضحك إمام "لا، أنا أعتقد أن هذه القصة بكاملها من اختلاق أبي لوحده. أذكر أنني سألته عنها بضع مرات عندما كبرت قليلاً، وكان دوماً يمتعض، كأنما يحرج لأنه عاملني بنعومة واختلق مثل ذلك السخف النسائي! أحياناً تقوم "مزكواشه" بتغسيل الأبطال في مياه من ينابيع "النارتيين"، مياه نارزان الممزوجة بالعسل، لتمنحهم القوة... آه، كانت القصص بلا نهاية: مليئة بالسحر والأعمال الجريئة".

"ها، لا أستطيع أن أتخيل "الحجي" يقص حكايات عن نساء في الأحراش يقدمن حمامات بالعسل..." ضحكت ستناي بلطف.

غمرها إمام "يا لك من بومة ليلية! يا لك من ثرثارة! والآن أصر على أن تنامي وإلا عدت إلى جناحي الخاص..."

"سأنام... ولكن أرجوك يا إمام. أريد أن يكون اسم الولد ناخو". ابتسم إمام لطبيعتها المصرة "حسناً يا روحي، نامي الآن".

احتضنته ستناي وأغلقت عينيها بقوة، وهي تدعي أنها تنفذ ما قيل لها، وتسترخي بين ذراعيه تدريجياً حتى أحست بإمام نفسه يتهاوى نحو النوم.

في تلك اللحظة تناهى إلى سمعها صوت عراك خارج البيت: تحركت ستناي خارجة من الفراش بصعوبة وحدقت إلى الخارج من بين شرحات المصاريع الخشبية. ظنت أنها شاهدت ظلاً يمر عبر بوابة أحد الإسطبلات في البعد. مع كل هذا الحديث عن القصص... لم يكن من غير المنطقي أن تخشى من وجود بعبع، "جاور"، قوزاقي. دب أسود كبير، ذئب... كلا، إنها تتخيل الأشياء. لا شيء، ما من شيء هناك. بعد أن اقتنعت كلياً، تكورت ستناي إلى جانب إمام وأغمضت عينيها بقوة. ليس هناك من خطأ، فكل شيء آمن.

تسارع الزمن. بدا وكأن ساعات انقضت بعد ذلك حينما جعل نباح الكلب وحركة إمام المفاجئة وهو ينتزع نفسه من جانبها أحلام ستناي تتحول إلى الكابوس المطلق. همس لها "هنالك ضجة! لصوص جياد! ابقي هنا!".

نهض إمام، سحب نحوه ثوباً أبيض وتناول "القاما"، الموجودة إلى جانبه كالعادة. فتح باب غرفة النوم المفضي إلى الساحة وفي الحال ارتد ذراعاه إلى الخلف بقوة حينما تلقى طلقة بندقية اخترقت وسط صدره. لم تنبس ستناي ببنت شفة بينما كان حبيبها يخطو إلى

الخلف خطوة واحدة، بخفة، ثم ينهار عند قدميها إلى جانب السرير بكل بساطة.

القوزاق! لقد أتوا ليسرقوا الفحل العربي، الذي ترددت أصداء صهيله المتوتر من صوت الطلقة كأنها صرخات ألم يائسة. ضرب بحوافره جدار مربطه، رنات جرس كنسي تعلن موت سيده...

توفي إمام على الفور، لم يكد ثوبه الأبيض يتبقع بالدم. انسابت الحياة من جسمه بدون أي مؤشر: بصمت، موت مفاجئ. سريع إلى درجة أن ستناي اكتفت بالتحديق العصبي على الفهم.

ثم صرخت، صدر عنها صوت لم تخرجه في حياتها كلها قبلاً، غريباً في قوته الحيوانية. انفجرت الفوضى في البيت. ظهر أحمد مثل طيف ينذر بالموت: كان أول من انزعج من المتسللين بسب خفة نومه، فأقبل من بيته مسرعاً. عجوزاً شرساً، يحمل بيديه بندقية قديمة، تجمد عند مدخل الباب، غير قادر على الحركة. تبعه كازبك الذي ألقى نظرة وحشية واحدة على إمام، اندفع خارجاً إلى الساحة ملوحاً بسيف "شركسي" هائل. تراجعت ستناي إلى الخلف.

أصوات الحوافر: صرخات "الجاور" الخارجة من الحلق وهم يهربون في العتمة: العديد من الطلقات، خيول كثيرة، سحابة من الغبار، ملاحقة أشبه بدوي الرعد. راقبت ستناي الفوضى العارمة أثناء تبخرها لتتحول إلى ظلا م دامس، وصرخت مرة أخرى – فالقاتل على وشك أن يهرب. لم يركب كازبك فرسه. هجم بأسرع ما يستطيع في محاولة للإيقاع بقوزاقي تحت سيفه لكنه أخفق. استدار وعاد إلى حيث وقف أبوه وستناي. ضم ستناي المشرفة على الإغماء بين ذراعيه. في لحظة واحدة ذاب خوفها من حماها ليصبح تشنجاً عاطفياً من الحزن المتقاسم. فقد أحب هذان الاثنان إمام أكثر من حبهما للحياة نفسها والآن أصبحت حياتهما فارغة. احتضن أحدهما الآخر في عذاب يائس وتراجعا متعثرين إلى الغرفة التي ما زال جثمان إمام مسجى فيها.

نسوة البيت يتراكضن في جميع الاتجاهات، لمساعدة ستناي، إيقاظ الآخرين، لإشعال الأضواء، ليرين بأنفسهن مصير إمام. لكن ستناي تعلقت بكازبك كأنها تتعلق بالحياة نفسها. أجبر انفجار العويل المفاجئ من الخادمات كازبك على التحرك إلى الأمام بسرعة – وصل إلى غرفة النوم وهو يكاد يسحب ستناي ليشاهد أمه الضعيفة، راكعة على ركبتيها إلى جانب جثة حفيدها. كان احمرار الدم الخارج من صدره قد انتشر بعمق في بياض ثوبه. منظر سيظل يطارد كازبك بقية أيامه كلها: صورة كابوسية تمحو كل أحلام ستناي. كانت يدا إمام هما اللتان أخبرتا تسيما فوراً بموته. لم تستطع أن تنظر إلى وجهه. كانت أصابعه منبسطة بنعومة وعجز تام وقد تكورت قليلاً مثل أول مرة نظفته فيها ووضعته في فراشه – ما تزال مثالية التشكيل، بدون ندوب أو علامات – اليدان القويتان القادرتان لشاب غض القوام.

ألقت تسيما بنفسها فوق صدر إمام، ليمتص صدرها الأعماق الدبقة والرطبة لجرحه. تمنت لو تستطيع أن تمنح حياتها لتنقذ حياته...

أمسكت برئتيها حشرجة رهيبة. نظرت باتجاه كازبك مندهشة ثم أمسكت صدرها بقوة وكأنها تخشى عليه من الانفجار "آه يا ولدي.... قلبي...."

إنهارت ذراعا كل من كازبك وستناي.

صرخ "أمي!" وركض إليها، حملها بين ذراعيه، نظرت إلى الأعلى في وجهه بارتياح وأدارت رأسها إلى كتفه.

انفطر قلب تسيما الضعيف من قوة الصدمة وماتت.

كان قدر كازبك أن يشهد المخلوق الشاب الأكثر براءة والعجوز الأقرب إلى قلبه في كل حياته، جثتين في حضنه. إمام، تسيما. احتضن أمه كما حمل مرة الطفلة الحلوة المحترقة، كوللا

من قرية ترام، في حضنه، وكما لن يعود إلى احتضان أحد بعد اليوم، طفلاً كان أم بالغاً.

وصلت نورسان ملتفة بشالها الأبيض، الدموع تنساب على خديها، ألقت بنفسها على جثة ابنها الساكنة، تندب بصمت، وبألم.

حدق كازبك في وجه تسيما الخالي من التعبير، في محاولة لإفراغ أحزان قلبه.أقسم لحظتها. أقسم أن لا يهتم بعد ذلك مطلقاً، إلا بالانتقام. أراد كازبك لمثل هذه الأعمال الوحشية أن لا تمسه بعد الآن أراد أن يصبح آله، موصل للعقوبات لا يشعر بشيء. لكنه اكتشف أنه لا يوجد شيء اسمه نهاية الحزن. بل على العكس، فإن الخسارة الجديدة تحفر بئر الأحاسيس إلى عمق أكثر. إن القدرة مدهشة، بل مذهلة في صدمتها البدنية.

في الوقت الحالي، انساب حزنه إلى عمق مؤثر إلى درجة أن روحه أصبحت لا تحد في قدرتها على الحداد، على التحمل، وأن لا تفعل الأمرين بسلبية. وهكذا أدرك كازبك فجأة أن هذه هي الطريقة التي سيتحمل بها خسارته: من خلال غضب مقدس، شغوف ومكرَّس، حافز مستمر ودائمي لأعماله... إلى أبد الآبدين... بات يصلّي.

ظهر أحمد بينما هو جالس هناك يتفكر، مستنداً إلى أنور: أصيب كلاً من كازبك وأنور بصعقة من رؤيتهما للكبر المفاجئ الذي حل بأبيهما. عيناه تحدقان: انخسفت وجنتاه، وأطرافه ترتعش بينما تجيء أنفاسه متقطعة لمرأى زوجته وحفيده ملتفين على بعضهما وقد وحدهما الموت.

تردد صوت حاداً "غطوهما... جهزوهما... اخلوا الغرفة، لا اريد أن أسمع كلمة من أحد. هيا باشروا العمل، سوف نتكلم مع أول خيوط الضوء".

استدار أحمد لينصرف، وهو يكاد يتعثر، لم تعد به حاجة لأن يلمس تسيما، ليودعها. فقد ذهب الطعم من حياته، وسوف يقوم بتوديعها في كل لحظة يبقى فيها حيث هي غير موجودة.

استذكر أحمد فجأة موت والديه المضاعف في عربتهما، حين تدحرجا إلى داخل شعب عميق في ثلوج الكوبان. متجمدين سوية إلى الأبد. لقد كانا محظوظين. فقد تجمد هو الآخر وأراد أن يستلقي على الأرض، لكن قدره كان أن يستمر في المسير. على أن لا يطول مسيره "إنشاء الله".

بعد بضع ساعات رمادية جلس أحمد مستنداً على وسائد في صالته وقد أحاط به كل رجال أسرته. أخبره روسلان بما رآه عندما طارد الزمرة السارقة. "لقد لاحقتهم إلى معسكر القوزاق نفسه، يا "تحمادا". ليس هنالك أي شك في هويتهم. لقد استطعت أن أميز الضابط، الذي أراد أن يشتري الفحل العربي من إمام- وقد كان يمتطيه!"

رفع كازبك رأسه، مرتبكاً. لم يقل له إمام أي شيء عن ضابط قوزاقي يعرض ثمناً للفحل. كان يجب أن ينذروا. تذكر مجموعة الجنود الذين وقفوا يتفحصون الفحل العربي في ذلك اليوم أثناء سباقات وادي التيريك، كيف انتحوا ناحية وظلوا منعزلين...

جاء صوت أحمد جافاً ومهتزاً لكنه يتحدث بعقلانية.

"أشكرك يا ولدي. لقد أبليت بلاءً حسناً. لكن يجب أن لا تتحدث عن هذا الأمر لأي شخص. هل تفهم؟"

انحنى روسلان مطيعاً.

كان الكل يشعر بدرجة من الغضب والحزن تمنعه من التكلم. أصبح من واجب أحمد باعتباره الأكبر سناً أن يقرر خطة العمل المتوجب تطبيقها والتفكير بما هو أبعد من حزنه الشخصي.

"سوف ندفن ميتينا بسلام" قال بنبرات مملة جعلت الجميع يتألم. فكلهم يعرفون ما يعنيه موت تسيما للرجل العجوز. ويدركون أنه لن يشفى: ستصبح خسارته ملموسة في كل ثانية من حياته.

"لن يتحدث أحد عن القوزاق. إذا سئلنا يجب علينا أن نتكهن وكأننا لا نعرف. نحن نتوقع مجيء حياة جديدة.. سيولد طفل جديد قريباً. دعونا نفكر في المستقبل".

توقفت نظرات أحمد المحدقة المتحجرة على كل شخص بدوره. لاحظوا أنه لم يكن يتكلم تلقائياً بدون تفكير، أو تحت تأثير عنصر المفاجأة. بل كان يعني كلامه. إن "التحمادا" رجل صنع من الحديد فعلاً.

أنهى الرجال مشاوراتهم وتفرقوا بسرعة حتى يتجنبوا أي إظهار للعواطف. وحده كازبك بقي جالساً، وقد بدأت عيناه المحاطتان بدوائر حمراء تتعمقان، وتلطخ شقرة بشرته الدوائر السوداء. كانت الحمرة الدموية في حزنه تتحول إلى مرارة سوداء في داخله. تحديقه مشحون بالخطر، يملأ أحمد بالتوجس. حثه قائلاً:

"تعال يا ولدي، أيها "الحجي"، شعائر الجنازة".

ولكن بينما كان أحمد يطلق هذا النداء، أدرك أن كل شيء قد ضاع.

إن فجيعة فقدان كلاً من الأم والابن مدمرة لأي أب "شركسي". أما بالنسبة لكازبك، فقد عمق من هاتين الخسارتين خيبة الأمل في زواجه والتركيبة الشغوفة، نصف الروحانية لطبيعته. تسمرت عينا ابنه الرماديتين الزجاجيتين على عيني أحمد في تحديق مجنون. كان فيهما بريق غير مقدس: لقد حصل كازبك "الحجي" على الغفران في مكة المكرمة، ولكنه أعتق نفسه من هذه العهود ابتداءً من هذا الفجر. فبدلاً من أن يدير ظهره لهذا العالم المضطرب، سيلقى بنفسه وسط شروره وعنفه، مجدداً.

***

بدأ قدوم طفل ستناي بينما كان يجري إنزال تسيما في قبرها. فبينما كان كازبك يتناول جسد أمه الصغير الملفوف بالكفن بين ذراعيه وينزلها برفق في الأرض، انسحبت نورسان من مجموعة النساء الحزينات وأسرعت إلى غرفة الولادة. ركعت لتمسك بيدي ستناي. كانت عيناها قد جفتا من الدموع، وكلماتها عناق دافئ.

"لقد احتضنتني تسيما بينما كنت ألد إمام. دعينا نحبها سوية، يا ستناي، ونساعد هذا الطفل على القدوم إلى الدنيا بسلامة".

تعلقت ستناي بنورسان، وقد فوجئت بقوتها.

صرخت بألم "لا أستطيع!".

سمعت نورسان رنة الغضب العميق في تأوهات ستناي العالية. أصبح بإمكانها أن تلاحظ أن الفتاة تكاد تكره الحياة المتشكلة بداخلها، وكأنها لشدة يأسها، ما عادت ترغب في الحياة ما دام إمام قد ذهب. فهو سيحيا بلا أب وستكون أمه محطمة...

كانت تعرف بدورها كل العواطف البدائية المتصارعة عند المرأة التي يجب أن تحب رجلها وطفلها على السواء. ولكن بما أنها لم تصالح نفسها على هذين الواجبين، فقد أصبح من واجبها أن تتأكد من أن ستناي ستفعل ذلك. تحدثت إليها بصوت هادئ واستمرارية بينما بدأت التقلصات تتزايد لدى ستناي.

"كل ما بوسعك عمله هو الحب. إذا لم تتعلمي أن تحبي حيث يجب، فإنك تسهلين الفوز على الأشرار. في النهاية، فإنك تقابلين الله ويحكم عليك ليس بمقدار الحب الذي حصلت عليه من الآخرين، بل بمقدار الحب الذي تعلمت أن تمنحيه".

أبقت ستناي عينيها مسمرتين على وجه نورسان، مذهولة، لأنها لم تحصل منها على مثل هذه المحادثة الطويلة والصريحة من قبل مطلقاً. مدت يديها الاثنتين، كأنما تمتلك نورسان قوى خاصة تساعدها عبر هذا المخاض.

استمرت نورسان بنفس القناعات "أنت تتعلمين القيام بهذا الأمر من خلال الألم الشديد. إن إمام يحتاج منك أن تغمري هذا الطفل برعايتك. لقد كان حبه عظيماً إلى درجة أنه يساندك أنت أيضاً، بعد ذهابه. لا بد وأن هذه هي الطريقة التي أرادها الله سبحانه وتعالى. والآن أمسكي بي بقوة، يا ستناي الأعز، واسحبي نفساً قوياً – إلى الداخل!".

وقف كازبك داخل القبر العميق، يهمس بصلواته الخاصة وأشكال التوقير والوديعة لدى الله سبحانه وتعالى، والتي تعلمها أثناء رحلة الحج، تدلى أحمد وأنور إلى داخل القبر وسلما "الحجي" كازبك جثمان ولده.

مقارنة مع تسيما، فإن إمام ثقيل، صلب – كأنما سيرقد إلى جانب جسد السيدة العجوز الناحل الضعيف ليحرسه بقوة شباب جسده. ستكون طاقة ملائمة، داخل أحراش الصفصاف والحور هذه النامية على ضفاف التيريك، حينما تتحد شجاعة المرأة الشيشانية بالأمل لدى المقاتل القباردي لتتحول إلى طاقة الأرض، تتنفس ذكرياتها المحبة غير المحكية أحدهما إلى الآخر، للأبد، وجهاً لوجه.

رفعت نورسان الطفل المغرق في الصغر إلى ستناي حتى تراه. كان للصبي شعر كثيف فاتح اللون وأصابع تحيك أشكالاً في الهواء منذ اللحظة، تستكشف، تشعر الإثارة الملموسة من أوائل أحاسيسها بالوجود.

"إنه ولد، يا ستناي. ماذا كان إمام سيرغب في تسميته؟"

"لقد أراد أن يسميه إينال، لكنني أعتقد أنني سأسميه ناخو. أرجوك أن تسألي رأي "التحمادا" في رغبتي، لقد تحدثنا في الموضوع قبل مجرد لحظات من وفاته وقد وافق". ثم همست "ولكن يا نورسان، ربما كان في الحقيقة يرغب في بنت. والآن لن تتحقق له هذه الرغبة أبداً..."

اغرورقت عينا ستناي بالدموع لكن نورسان ناولتها جسم الوليد الجديد الملفوف بشدة، فتكلل وجه الأم غريزياً بالابتسامات.

كانت قوى الاستشراف لدى نورسان تسبب لها الاضطراب "آه يا ستناي"، قالت بنعومة " هنالك المزيد من الأحزان القادمة..."

رفعت ستناي رأسها إليها "أعرف، سينتقم كازبك لنا، وسيبكي الآخرون وقتها". بصوت خال من العواطف.

أحست نورسان بكراهيتها القديمة لاستمرارية العنف في بلادها. ولكنها وللمرة الأولى، اقتنعت بأن القتال عادل ومحق، وهي تحدق في وجه المرأة الأصغر سناً، وقد تلبد شعرها من العرق ودبت الحيوية في عينيها الزرقاوين من الفرح.

***

بينما كان كازبك راكعا يصلي: وبرغم تركيزه على صلاته، إلا أنه كان بإمكانه أن يلاحظ الاستعدادات القائمة خارج بيته. أصوات طبيعية بالنسبة له بقدر الركوع والسجود الذي يمارسه في هذه اللحظات. الخيل تسرج، والمؤن توزع على الرجال، أكياس تربط، أحزمة الخرطوش يجري فحصها، وأحزمة السروج تشد....

أتم الركعة الأخيرة، طالباً من الله سبحانه وتعالى الهداية: داعياً إلى الله أن يتقبل منه هذا التغيير في الاتجاه. مسح وجهه ولحيته بكفيه وأنهى صلاته.

نزع كازبك ثوب "الحجي" الأبيض وارتدى أكثر سترات "التشيركيسكا" التي يملكها متانة. كان أبوه أحمد قد أعطاه سيفه الهائل: "القاما" المثبتة في حزامه هي الهدية التي قدمها لإمام – وهي التي سقطت من يده لحظة وفاته. سحبها كازبك غريزياً من غمدها ثم أغمدها ثلاث مرات – مؤدياً اللعنة الأقدم المعروفة عند الجبليين "أدعو أن تهجر عدوي شجاعته".

ركب كازبك بصحبة عشرين قباردي متجهين صوب التيريك – قرب المخاضة الصيفية القديمة التي تعرف عليها أنور منذ زمن بعيد. في كل سنة، عندما يذوب الجليد في السلسلة العليا، يصبح هذا الانحناء في النهر المكان المعتاد لتجمع الأخشاب والحجارة التي يحملها النهر في جريانه، مشكلاً مخاضة طبيعية متغيرة. تحركت مجموعة كازبك بسرعة خبب صامتة وبثبات نحو "الستانيتزا" القوزاقية.

لكل رجل واجبه المحدد له. شكل اثنان منهم مرقى للآخرين حتى يقفزوا من فوق السور المحيط.

قتل أحدهم حارس البوابة بطعنة سكين مخترقة سريعة. تسلق أحدهم برج المراقبة حيث جلس شاب تعيس يعض على حبة لفت نيء لنوبة حراسته الليلية – وهي ليست وجبة مميزة للدقائق الأخيرة من حياة قصيرة خالية من المعالم.

تحرك كازبك ورجال الحابسا الثلاثة ضمن المجموعة في تشكيل سريع نحو مهاجع الجنود.

كانت هناك بناية طويلة مطلية بالجير الأبيض وخيمتان كبيرتان للمجندين. كان القبارديون الآخرون يتعاملون مع أولئك..

تحرك كازبك بهدوء عابراً ممر الموقع، ماراً بكل قسم مغلق بستارة، وهو يرفع القماش بطرف "القاما"، مترفعاً عن جلخ نصل سيفه على أحد إلا القاتل. عثر عليه في النهاية: العقيد ديميتري، يغط في نوم هادئ لذيذ عميق لمن كان خالي الضمير.

توقف كازبك فوق جسده الممدد. كانت إرادته تملي عليه أن يعرف ديميتري نهايته. ببطء، وبدون أي اتصال جسدي، انبعث منه قدر رهيب من الكراهية إلى درجة أن العقيد أحسّ بوجود عدوه واستيقظ. بينما كانت عيناه تصفوان – فقط بما يكفي لأن تمتلئا بالرعب كما يزحف الضباب فوق الماء – هكذا فهم ديميتري السبب من وجود القباردي.

"لقد كان حصاني ذلك الذي سرقته- ذلك الذي قتلته هو ولدي، أيها القاتل الخراء!"

أغمد سيف أبيه في قلب الجاور: ثم أدار النصل، مستمتعاً بفرحه بينما ندت عن القتيل ضجة من القرقرة وخرجت فقاعات الدم من زاوية فمه. بقيت عينا العقيد ديميتري متجمدتين من الرعب على وجه كازبك – نظرة تنم عن إدراكه لخطيئته، لكنها كان يمكن أن تكون انبهاراً أعظم بينما هو يقابل المجهول حاملاً دم رجل بريء على يديه.

يمكن أن تكون مرت دقائق أو ساعات – لم يكن لدى كازبك أي مفهوم أو إحساس بالوقت لكنه تابع غايته حتى أتمت المهمة. أعاد القبارديون تجميع قوتهم في وسط "الستنانيتزا" بعد انتهاء المهمة، وتحركوا باتجاه الحظيرة حسب الخطة الموضوعة سلفاً.

بحث كازبك عن فحله العربي الأبيض لكنه لم يكن يبيت مع مطايا الخيالة الباقين.

"ليخرج اثنان منكم عائدين ويحضروا لنا خيل الركوب إلى هنا. سنأخذ كل هذه الجياد القوزاقية معنا. ولكن أولاً – اعثروا لي على الفحل".

تفرق الرجال: بحث كازبك أيضاً إلى أن ناداه صوت خفيض متلهف – كان ذلك ابن تيمور: "ها هو هنا يا "تحمادا".

فك فرد آخر من المجموعة الغازية سرجاً من الزريبة المحاذية للحظيرة بتبجح نموذجي، وانزل القباردي السرج فوق ظهر الفحل، مبتسماً لكازبك، بينما كان كازبك يقود رأسه المتوتر ويهمس له بكلمات التهدئة. كان الحصان قد عومل معاملة سيئة، وكانت عيناه تتدحرجان بلون أبيض.

انبلج الفجر بينما كان القبارديون يركبون خارجين من "الستانيتزا". لم يتحرك خفير واحد لأنه لم يترك خفير واحد حياً

ليتحرك. ولا حتى هدير حوافر خمسين جواداً من خيل القوزاق نبه أحداً من الجنود على حدوث الغارة، لأنهم كانوا ملقين مذبوحين كلهم داخل مهاجعهم كالأغنام. كانت المذبحة شرسة وعديمة الرحمة رهيبة. ركب كازبك ورجاله باتجاه الغرب، ولم يعودوا إلى قباردا الصغرى، بل اكتفوا بالنظر إلى الخلف بين الفينة والأخرى باتجاه شروق الشمس خلفهم، وهي تصبغ الغيوم الباهتة باللونين الأحمر والقرمزي المركزين – وهي علامة مؤكدة على نهار رائع مجيد.

***

بعد عدة أيام، لاحظ كبار قرية الحابسا قدوم فصيلة من الخيالة إلى القرية عدواً بخيلهم. كان الأمير عمر يتوقع قدومهم.

فرّق الجنود قطيعاً من الإوز يسير خلف "بشله" كانت تقودهم باتجاه النهر. اتكأت مدينا، زوجة مراد، يتثاقل على ذراع نورسان وقد خشيت أن تقف في طريقهم أثناء مشوارها الصباحي.

قالت وهي تمسك بذراع نورسان بقوة وتحاول أن تسرع خطاها "بسرعة، هؤلاء هم القوزاق!"

أجابتها نورسان "لا تجزعي، أيتها العزيزة" بنبرة مطمئنة وقادت المرأة العجوز بسلام إلى مقعد طويل حتى تلتقط أنفاسها. "يعرف مراد وأحمد ما يجب أن يفعلوه. يجب علينا جميعاً أن نتصرف بشكل طبيعي ونؤدي دورنا أيضاً".

دخل الصف الأول من القوزاق خبباً إلى الساحة واتخذوا مواقع استراتيجية – وهم يتصرفون تماماً كأنهم جيش احتلال، سمحت لهم حالة الطوارئ بالتصرف على هذه الشاكلة.

تمشى الضابط الأعلى رتبة مع ثلاثة من رتب متدنية بخيلهم إلى بوابة أمير الحابسا.

لكن القبارديون كانوا مستعدين. خرج ستة مقاتلين بلباسهم الكامل: سيوف مشرعة، بنادق محشوة ومجهزة لكنها ملقاة على ظهورهم. ظهر قائدهم، تيمور، خلفهم، وقد التمع درع الزرد عند الياقة المفتوحة لسترته "التشيركيسكا".

تحرك الرائد بوجدا نوفيتش بحذر داخل سرج جواده. فهو لم يتوقع لجنة استقبال على هذه الدرجة من الأهمية. كان باستطاعته أن يرى أن الرجال كلهم من القبارديين "الورق".

"أنا بوجدا نوفيتش من سلاح الفرسان لصاحب الجلالة الإمبراطورية. أرغب في التحدث إلى أميركم حول مسألة في غاية الاستعجال. لقد جئنا بسلام". استخدم بوجدا نوفيتش القاعدة المهينة المعهودة في كلامه مما جعل شفة تيمور السفلى تتكور بغيظ. رفع يده، بالإشارة المعهودة، فشعر الرائد بالشعيرات على رقبته تزحف واقفة متيبسة. لم يكن بحاجة إلى أن يدير رأسه، لأن كل سطح بيت ضمن زاوية نظره كشف فجأة عن صف من القناصة، وقد صوبوا بنادقهم على كل رجاله. أدرك أن نفس الوضع ينطبق على جميع النقاط المسيطرة خلفه. وجد صعوبة في الاحتفاظ بهدوء أعصابه. فهذا عمل ينطوي على الوقاحة المجردة من قبل هؤلاء القرويين. بدا على ضباطه الصغار الإجهاد، معتمدين عليه لتهدئة الموقف الذي بدأ متفجراً.

على أية حال، فقد تحدث تيمور بشيء من الليونة، باللغة التترية "أنت على الرحب والسعة يا بوجدا نوفيتش. يسمح لك بالترجل واللحاق بي. سوف يستقبلك الأمير".

أطاع بوجدا نوفيتش، وهكذا فعل ضباطه بحبور، إلا أن تيمور أوقفهم بنظرة شريرة "لا، ليس أنتم. ابقوا راكبين على خيلكم".

في صالون الأمير، جلس الأمير عمر، مراد، أحمد وأنور مشكلين نصف دائرة مع باقي كبار أهل القرية.

قام تيمور بالتقدمات الرسمية المعهودة. "يا أميري، هل تسمح لي أن أقدم لك العقيد بوجدا نوفيتش إنه قادم بسلام – كما يقول!"

مال عمر برأسه ولكنه لم يتنازل للحديث. أخذ مراد دور الناطق الرسمي، وقال "بالنسبة لضابط مسالم. فقد أتيت بالعديد من البنادق. اجلس معنا. ماذا يمكننا أن نفعل من أجلك؟" كانت نبرته كاوية.

بذل بوجدا نوفيتش جهداً كبيراً في استعادة اتزانه. كان رجلاً ضخماً كشجرة بلوط هائلة بلحية خشنة كثه وسوالف، كما كان يحلو لكل القوزاق أن يبدوا، ولكن مشيته القوزاقية المتبخترة لم ترفع من قدره في صحبة هؤلاء "أصحاب التسويات" المفترضين بالقدر الذي كان يرغب فيه. لقد قيل له على الدوام أن القبارديين قوم لطفاء وسادة مهذبين، بارعين في الكلام، يربون الخيل ويتاجرون بالفراء. وقد ظلوا على علاقات طيبة مع الروس والقوزاق، خلا بعض الاشتباكات. لسنين عديدة.

لكن هذه الغرفة ملأى بالمحاربين أصحاب التجربة الذين بحلقوا في وجه الموت وفي عينه لمناسبات عديدة. كان تيمور في مثل سنه – تجاوز الخمسين- لكن جسمه مبني في صلابة مخزن حبوب ويقف فوق رأسه ممسكاً بمقبض "القاما" بخفة – تلك القبضة التي يمكن أن تتحول إلى غاية رهيبة في جزء من الثانية.

أنزعج الرائد. وحاول جهده لكي لا يتعرق لكن مثل تلك المهمات تتفوق على العقل، ولذلك فقد بدأ يبتل، وتخرج منه رائحة تشبه جذور الخضار انتشرت في الغرفة وملأتها.

تحدث بسرعة حتى يخفي انزعاجه.

"يا صاحب السمو، أشكرك على استقبالي بدون موعد رسمي. إن البنادق والجنود مجرد إجراءات عسكرية أنا مضطر لإطاعتها. نحن لا نحمل لكم ولشعبكم سوى الاحترام والإعجاب. هكذا ظل الحال بيننا وبين القبارديين دائماً".

ابتسم الكبار في غموض محير. هدأ بوجدا نوفيتش أكثر قليلاً. "نحن من الحامية في موزدوك. أنا مكلف بالتحقيق في مذبحة لفصيلة كاملة من القوزاق في "الستانيتزا" القائمة على التيريك عبر النهر..."

لم يكن كازبك قد كشف أعماله بالكامل حتى الآن. فقد اختفى تاركاً مجرد الأمل عند أحمد في أن يكون العقيد ديميتري قد عوقب، وأن موت إمام قد جرى الانتقام له بما يناسب. لم يخبر كازبك أحداً منهم بما أنجزه، حماية للقرية. بهذه الطريقة لن يتعرض الكبار للإحراج، ولن يضطروا إلى الكذب دفاعاً عنه. وهكذا فقد أذهلتهم كلمات بوجدا نوفيتش وعمرت قلوب كل الحاضرين بالفخر. لم تفضح أية حركة أو أية نظرة سعادتهم السرية والإعجاب بهذه المغامرة غير العادية. وحده أحمد أصيب بالصدمة، من أن يذهب ابنه، "الحجي" إلى هذه الأبعاد.. كل ذلك الدم على يديه!

استطرد بوجدا نوفيتش بصعوبة، وقد حيرته ردة الفعل.

"يبدو أن سبب الهجوم هو سرقة خيل القوزاق – فقد ذهبت جميعها. نحن نطالب بتعاونكم في تحقيقاتنا".

تحدث مراد بنعومة "كيف يمكننا أن نتعاون بالضبط. هذه مسألة عسكرية ولا يمكن أن يكون لها أي علاقة بقريتنا".

اختار الرائد كلماته بعناية غير عادية "ليس لدينا أي سبب يدعونا إلى الشك في أي شخص من قريتكم، ولكن كإجراء روتيني نحن نرغب في إلقاء نظرة على جميع جياد القرية".

كانت هذه إهانة وتشكل تطاولاً. أدرك بوجدا نوفيتش والكبار على حد سواء أنها تذهب إلى أبعد من شروط الاتفاقيات القائمة بين سلطات القيصر وشعب الحابسا.

"إن جياد القوزاق كلها خيل عسكرية وهي ممهورة بعلامة. إن أملنا الوحيد في حل الغموض حول هذه المذبحة العشوائية هو في العثور على أحد أو جميع هذه الجياد".

طرح أحمد سؤالاً جافاً "ألم يكن هناك ناجون من الهجوم؟ لا أحد يخبركم من أو ماذا كان مهاجموهم؟"

نظر بوجدا نوفيتش في عيني الرجل المسن، وهو يتعجب مما تحمله من معلومات سرية، على الإطلاق. لكن التعبير على وجه أحمد كان عصياً على الاختراق، فقد كانت عيناه وحشيتان مثل عيني ثعلب وما كانتا ودودتين.

"لسوء الحظ ليس هنالك أحياء. وذلك، كما يمكن لكم أيها السادة النبلاء أن تروا، يعقد تحقيقاتي".

أرادوا كلهم أن يصدقوه – أن يعرفوا بأن مقاتليهم، وبشكل خاص "الحجي" كازبك، كانوا فوق الشبهات. ولكن ذلك ربما يكون خدعة، لذلك آثروا التريث وعدم المخاطرة...

على أية حال، فقد أحب مراد الدبلوماسي على الدوام، أن يغامر قليلاً "يبدو أن هذا عمل أجانب – نوغاي جوالون. مؤكد أنكم لا تشكون في أن القبارديين المتمدنين يقومون بمثل هذه الأعمال!".

إذا كان مراد يقصد إهانتهم فما كان بوسعه أن يفعل أفضل من ذلك. فالنوغاي هم شراذم، شعب محتقر – أن يتم ذبح معسكر كامل للقوزاق على يد مثل هؤلاء الحثالة سيكون انتكاسة لكل التوقعات العسكرية.

لمس بوجدا نوفيتش كأس الشاي، الذي ناولـــه إياه أحد خدم الأمير لتوه. حرق أصابعه فوضعه بنعومة على طاولة صغيرة.

"نحن لم نكوّن بعد رأياً يا صاحب السمو إذا كان الدافع للهجوم هو حقيقة سرقة جياد – يمكن حتى أن يكون هذا عمل أناس من الخارج ولكن...."

مال أحمد، المخادع العجوز إلى الأمام: "لديكم شكوك!".

تجرأ بوجدا نوفيتش على الجهر بما لا يمكن إثباته "يبدو أنه إجراء أكثر تطرفاً بكثير من مجرد الاكتفاء بسرقة الجياد – ألا تعتقد ذلك؟ تفوح من الموضوع رائحة عمل انتقامي. ولكن من قبل من، ولماذا؟"

تجولت نظرة بوجدا نوفيتش بعينيه السوداوين بدائرة حول الغرفة. قلما شاهد في حياته مثل هذا الغياب الكلي للاهتمام. مثل رباطة الجأش هذه، في كل حياته المهنية. لعنة الله على ديميتري هذا، قائد المعسكر هذا، ما الذي فعله حتى تسبب في هذه الوحشية؟ تكوَّن لدى بوجدا نوفيتش أقوى شعور بأنه لو حقق في القضية أبعد من ذلك، فإن المشكلة ستعود إلى أصلها حيث حدثت، وشعر بالقرف.

تحدث مراد مرة أخرى بلغة "الأديغه" وقد أحسّ بهزيمة الرائد " يا أحمد، أنت تعرف جميع خيول الوادي. اصطحب الرائد وأره كل ما يعجبك. ليس هناك من ضرر يمكن أن يتأتى من ذلك".

أومأ أحمد برأسه ورد على بوجدا نوفيتش بأناقة بلهجته الروسية الرسمية "أنا مربي الخيول في هذا الإقليم. سوف يسعدني أن أريك كل خيول شعبنا... على أية حال، اقترح عليك أن تسحب جنودك إلى خارج محيط القرية لتجنب أي احتكاك ممكن. لا حاجة لهم لمرافقتنا". ثم ابتسم له ابتسامة طويلة بانت لها نواجذه "سنقوم نحن بحمايتك!".

كان الرائد قد قرر سلفاً أن الانسحاب هو الخطة المعقولة الوحيدة بأكثر من وجهة. لقد كان يحدق في وعاء العسل: وكما يقول "الشركس"، حيث يوجد العسل، فهناك يوجد النحل – أو الدبابير، في هذه الحالة.

"اقتراح حكيم، أيها النبيل. سوف آمر بذلك".

***

قاد كازبك جياد القوزاق خلال منطقة تلال جافة. أخبرته الغيوم الماثلة أمامه أنهم سرعان ما سيخرجون إلى منطقة أكثر اخضراراً حيث يمكن سقاية الخيل بأمان. لقد طردوا الحيوانات لمدة تزيد عن ثلاثين ساعة بدون توقف- وخلافاً لخيل القباردين، فإن خيل القوزاق تصلح فقط لأعمال المسافات القصيرة، وغير مدربة على رحلات الركوب الطويلة.

كان أتباعه نائمين في سروجهم وقد ربط كل منهم عنان قيادة فرسه بالرجل الذي أمامه. وحده هو وابن تيمور الشاب كانا مستيقظين: كانوا يتبادلون الأدوار في النوم وهم راكبون وكانت هذه خدعة أخرى مكنتهم من وضع أطول مسافة ممكنة بينهم وبين منطقة التيريك.

بعد فترة قصيرة وصلوا إلى سهل منبسط بتربة طرية مخفي بين سلسلتين من الحجر الجيري. كان هناك نبع صغير يروي المرعى. تمطى الرجال مع بدء مغيب الشمس، ترجلوا، اعتنوا بمطاياهم أولاً بحكم العادة، أدوا صلواتهم، وبعد ذلك قاموا بتهيئة وجبتهم المسائية – بفضل ابن تيمور الذي تمكن من اصطياد غزال بقوسه وسهمه.

استلقى كازبك على مسافة من الآخرين، مستنداً إلى سرجه، تناهى إلى سمعه كلام الرجال وهم يبحثون أمر الطريق الواقعة أمامهم: فهم ما زالوا يتجهون غرباً.

قال أحدهم "تبدأ بلاد "الشابسوغ" مباشرة خلف هذه السلاسل..."

"بإمكاننا الوصل إلى هناك بحلول ظهر الغد، بمشيئة الله..."

دأب الرجال على مضغ وجبتهم البسيطة في صمت تظلله الرفقة. كم يحبهم كازبك. إنهم آخر من سيشاهدهم من أقاربه في وقت طويل. استند بعد وهلة إلى مرفقه ليتكلم. كانت كلماته مترددة. من جهة لأنه شعر بالأسف لأن يخيب ظنون الرجال بعد أن

تصرفوا بكل هذا الإخلاص وهذه الجرأة، ومن جهة أخرى بسبب كراهيته لأن يعزل نفسه عن الاختلاط بين قومه.

"أشكركم جميعاً على قدومكم إلى هذا البعد". وظهرت كلماته قاطعة ونهائية إلى درجة أن كل واحد فيهم استدار لينظر "ولكن يجب أن تعودوا إلى عائلاتكم بحلول الغد. أستطيع أن أتدبر أمري لوحدي من هنا..."

قال صديق قديم له "يا "حجي"، ربما كان ذلك مبكراً جداً. يجب أن نبقى سوية حتى تصل إلى السلامة".

قال آخر "بإمكان عائلاتنا أن تنتظر، إنني مستمتع بهذا الأمر أكثر بكثير من دفع المحراث في البيت!".

خالفهم كازبك "لقد وصلنا إلى بعد كافي فعلاً. إن غيابكم سوف يثير الشكوك. ستنقضي أيام قبل أن تصلوا عائدين إلى التيريك وأنا أريدكم أن تعودوا، مع إنني سأحتفظ بهذا الذي يكره المحراث! صديقي حَشِرْ. بإمكانه أن يساعدني ليوم آخر أو اثنين!".

شعر حشِر، الذي عرف كازبك لسنوات طويلة، لأنه رافقه في رحلات صيد كثيرة سابقاً، بالامتنان العميق.

قبل الآخرون كلماته بالاحترام اللائق بمنزلته. حدث شيء "للحجي" منذ الغارة على معسكر القوزاق. فقد صلــَّبت حادثة القتل إرادته، وملأت روحه بالحديد. أصبح كازبك بالنسبة لصديقه القيم حشِر، إنساناً آخر كلياً، واقعاً في قبضة مهمة عليه إنجازها. أصبح لكل أفعاله وقراراته نوعاً من التطمين حولها. يوحي – وقد تجرأ على أن يفكر – بالرعاية الإلهية. فقد سلم كازبك أمره ونفسه كلياً كمقاتل، إلى إرادة الله، أكثر مما فعل كرجل دين.

لم يعد كازبك التابع "للطريقه"، بل أصبح تابعاً "للغزوات": الموت للكلب الكافر. ولسوف يلهم مثاله الأجيال القادمة.

***

الكتب الأخرى في الثلاثية

- سيوف الشيشان
- المؤامرة الثلاثية

يتبع في ملحمة القفقاس

- قصة البلقان (مأساة الشابسوغ)
- الثورة
- الشتات
- ضياع في بلاد الشيشان

صدر للمؤلف
محيي الدين عزت قندور

في الرواية

- عملية اختطاف الطائرة
- الصدع
- سيوف الشيشان
- كازبك
- المؤامرة الثلاثية
- قصة البلقان
- الثورة
- الأسطورة
- تحالفات خطرة
- ضياع في بلاد الشيشان

دراسات

- المريدية، دراسة الحروب القفقاسية (1819-1859)

المؤلف في سطور

محيي الدين عزت قندور شركسي هاجر أجداده خارجين من القفقاس الى تركيا العثمانية وبعدها الى الأردن ، حوالي نهاية القرن التاسع عشر .

ذهب الى الولايات المتحدة الأمريكية كمراهق وأكمل دراسته الجامعية بكافة مراحلها في أنديانا وكاليفورنيا حيث تخرج بدرجة ماجستير في الدراسات الدولية ودكتوراه في الاقتصاد والتاريخ .

عمل قندور في إدارة الأعمال مع شركات متعددة الجنسيات في نيويورك ولندن لحوالي خمسة وعشرين عاماً كمدير تنفيذي و/أو مستشار . في بداية السبعينات قضى أربع سنوات في هوليوود ككاتب نصوص سينمائية ، ومنتج ومخرج . كتب عدة أعمال غير روائية وست روايات منشورة ، والتي تشكل الثلاثة الأخيرة منها هذه الثلاثية «كافكاز»

The Sabres of Chechnia

رواية NOVEL

بعض ما كتبته وسائط الاعلام العالمية حول " ثلاثية القفقاس "

أسلوب الدكتور قندور المفعم بالحيوية، يقطع مثل السيف القوزاقي عبر عين العقل. فقد حيكت في ثلاثية القفقاس مئة سنة من تاريخ العائلة في مادة الاساطير. نستطيع الآن أن نرى أن المقاومة المسلحة في بلاد الشيشان والقفقاس لم تكن أمراً مستجداً لأن للتاريخ طريقة وحشية في تكرار نفسه.
(Minerva Press - London) مجلة مينيرفا لندن

يروي ابن المهاجرين القبارطيين الذي يبحث عن جذوره، قصة شعبه في أسلوب ملون جذاب يما هي الأحداث التاريخية بالأساطير العائلية ... ممتع ومثير بدرجة عالية.
(Pravda-Moscow) برافدا

أثناء قراءة هذا الكتاب - السيرة ذات الابعاد الملحمية عبر ثلاثة أجيال من تاريخ عائلة قفقاسية، تشعر وكأنك تشاهد انتاجاً سينمائياً ضخماً ضمن أروع تقاليد هوليوود. لم يتحقق هذا من خلال موهبة المؤلف وحدها، بل أيضاً جراء انغماسه الشخصي في كل ما يصفه. ففي نهاية المطاف، فقد كان لاسلافه دور في مأساة الجبليين ...
(Literary Journal) المجلة الادبية

مؤلف ألمعي ... لقد حول محي الدين عزت قندور صفحات تاريخ وطنه الاصلي الى نص جذاب بفكر متعمق.
(Red Star Journal) النجم الأحمر

من خلال بحثه عن الحقيقة التاريخية، واضح أن المؤلف قد بحث في مجلدات من وثائق الأرشيف التي لم تصبح متوفرة إلا مؤخراً .... موضوعي ومتوازن .... عمل جميل.
(Trud-Moscow) الأعمال الأدبية

آن كتاب قندور ملائم للعصر. رسالته واضحة: ليس للتاريخ معنى إلا إذا تعلم شخص دروسه. هل تستطيع الأمم القفقاسية أن تتجنب كارثة مثل يوغسلافيا السابقة، أم أن الوطنية الإنفصالية العرقية نفسها ستقود الى كارثة أخرى.
(Russian News) الأنباء الروسية

ISBN 9953-36-741-8

